



جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

نحو النص (معيارا السبك والحبك) فيما تداخل
من القرآن المكي والمدني في السورة الواحدة

إعدادُ

شادي محمد عيسى الغول

إشرافُ

أ. د. محمد رباع

قدّمتُ هذه الأطروحةً استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

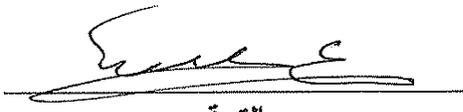
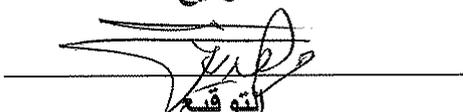
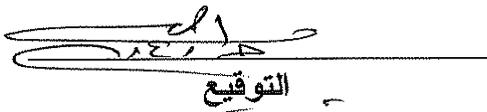
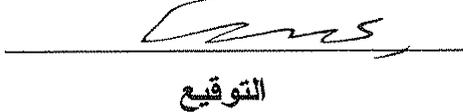
2022م

نَحْوُ النَّصِّ (مَعْيَارًا السَّبْكِ وَالْحَبْكِ) فِيمَا تَدَاخَلَ
مِنَ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدْنِيِّ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ

إعدادُ

شادي محمد عيسى الغول

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2022/05/25م، وأجيزت:

 التوقيع	أ. د. محمد الرباع
 التوقيع	أ. د. مهدي عرار
 التوقيع	أ. د. أحمد حامد
 التوقيع	أ. د. يحيى جبر

الإهداء

إلى

(محمد رباع)

وفاءً لعمق الفكرِ وسحرِ القلمِ

الشكر والتقدير

إلى كلِّ مَنْ له سهمٌ في إنجازِ هذا العملِ

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

نَحْوُ النَّصِّ (مَعْيَارِ السَّبِّكَ وَالْحَبِّكَ) فِيمَا تَدَاخَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدْنِيِّ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي
أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: ساري محمد بن الفضل

التوقيع: ساري محمد بن الفضل

التاريخ: ٢٠٢٠/٥/٢٥

فهرسُ المحتوياتِ

ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرسُ المحتوياتِ
ط	فهرسُ الأشكال
ي	الملخصُ
1	مقدمةٌ
2	مشكلةُ الدراسةِ
3	أهميَّةُ الدراسةِ
3	أهدافُ الدراسةِ
4	منهجُ الدراسةِ
4	إطارُ الدراسةِ
4	الدراساتُ السابقةُ
6	مُخطَّطُ الدراسةِ
8	الفصلُ الأولُ محدداتُ المكيِّ والمدنيِّ وموجِّهاتُ نحوِ النَّصِّ
8	1.1 المكيُّ والمدنيُّ؛ المفهومُ وعوارضُهُ
8	1.1.1 تحديدُ المفهومِ
9	1.1.2 اعتمادُ السَّماعِ
12	1.1.3 اعتمادُ القياسِ
14	1.1.4 الاستثناءُ وتداخلُ الوصفِ
16	1.2 موجِّهاتُ نحوِ النَّصِّ
20	1.2.1 مفهومُ نحوِ النَّصِّ
23	1.2.2 معاييرُ نحوِ النَّصِّ
24	2.2 معيارُ السَّبكِ
26	1.2.3 معيارُ السَّبكِ ووسائلُهُ النحويَّةُ
26	1.2.3.1 الإحالةُ

27	1.2.3.2 الاستبدالُ
29	1.2.3.3 الحذفُ
31	1.2.3.4 الوصلُ
33	1.2.4 معيارُ السَّبْكِ ووسائلُهُ المعجميَّةُ
34	1.2.4.1 التَّكرارُ
35	1.2.4.2 المصاحبةُ المعجميَّةُ
37	1.2.4.3 علاقاتُ المصاحبةِ المعجميَّةِ
38	1.2.5 معيارُ الحَبْكِ وعلاقتهُ
39	1.3 نحوُ النصِّ والقرآنَ
43	الفصلُ الثانيُّ السَّبْكِ والحَبْكِ في المكيِّ المدمجِ في المدنيِّ
43	2.1 سورةُ البقرةُ
50	2.2 سورةُ النساءِ
51	2.3 سورةُ المائدةِ
56	2.4 سورةُ الأنفالِ
58	2.5 سورةُ التوبةِ
61	الفصلُ الثالثُ السَّبْكِ والحَبْكِ في المدنيِّ المدمجِ في المكيِّ
61	3.1 سورةُ الأنعامِ
67	3.2 سورةُ الأعرافِ
69	3.3 سورةُ يونسَ
73	3.4 سورةُ هودِ
76	3.5 سورةُ يوسفَ
79	3.6 سورةُ إبراهيمَ
79	3.7 سورةُ الحجرِ
80	3.8 سورةُ النحلِ
82	3.9 سورةُ مريمَ
84	3.10 سورةُ الأنبياءِ
85	3.11 سورةُ الحجِّ
87	3.12 سورةُ الفرقانِ

88	3.13 سورة لقمان
89	3.14 سورة السجدة
90	3.15 سورة فاطر
92	3.16 سورة الزمر
92	3.17 سورة غافر
94	3.18 سورة الدخان
95	3.19 سورة الجاثية
96	3.20 سورة الأحقاف
97	3.21 سورة النجم
98	3.22 سورة القمر
99	3.23 سورة الواقعة
100	3.24 سورة القلم
101	3.25 سورة المعارج
101	3.26 سورة المزمل
102	3.27 سورة الإنسان
108	الفصل الرابع مفارقات التنظير وانسجام ما تداخل من المكي والمدني
110	4.1 الاستثناء والسياق المتصل
113	4.2 أوحدة موضوعية أم سياق متصل؟
121	الخاتمة
123	المراجع العلمية
b	Abstract

فهرس الأشكال

شكل (1) أقسام المعايير السبعة 24

شكل (2) أقسام السبك 26

نَحْوُ النَّصِّ (مَعْيَارِ السَّبْكِ وَالْحَبْكِ) فِيمَا تَدَاخَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدْنِيِّ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ

إِعْدَادُ

شادي محمد عيسى الغول

إِشْرَافُ

أ. د. محمد رباح

المُلخَصُ

الغاية من هذه الدراسة أن تنتظرَ في مظاهر التماسك النصي في السياقات التي تداخلت فيها آيات مكيّة ومدنيّة في سورة واحدة، ثم رجّع نظري في أسفار بعض المستشرقين؛ بغية الوقوف على وهم وصف القرآن بتباين نظمه وعبنيّة أسلوبه، في زمانين منفصلين، مكّي ومدنيّ، وذلك بالوقوف على أدلتهم وموجّهات أدائهم، وباستثمار قوة النصّ القرآنيّ لغويّاً بصورة فكريّة؛ لاستجلاء الحقائق، كنفّي بشريّته، وإثبات إلهيته، استناداً إلى درس لسانيّ تطبيقيّ، يتخذ من نحو النصّ، (معياري السبكِ والحبكِ) مضماراً لهذه الغاية، وقد يُعِينُ هذا على إعادة النظر في بعض الدراسات العربيّة الحديثة التي دارت في فضاء أنظار المستشرقين، وبعث صورة واقعيّة للنصّ القرآنيّ في بؤرة هذه الدراسة؛ وفق معطيات علميّة متكاملة بعيدة عن التعميم والتقريب.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى أنّ الآيات المكيّة والمدنيّة المستثناة من السورة القرآنيّة جاءت وفق معياري السبكِ والحبكِ - منسجمة مع سائر آيات السورة في سياق نصيّ متّصل، يكشف عن مدى التماسك النصي في السورة القرآنيّة، وهذا يدحض أنظار المستشرقين وأوهامهم.

الكلمات المفتاحية: معيارا السبكِ والحبكِ؛ القرآن المكيّ والمدنيّ؛ السورة الواحدة.

مقدمة

أسالَ المستشرقونَ حبراً كثيراً في موضوع القرآن، وأخذَ مساحاتٍ كبرى في أوراقيهم، وذلكَ لإدراكهم قيمةَ القرآنِ وأثره في أهليه؛ فما انفكوا يلتمسونَ الطعنَ فيه؛ بغيةً أن يثبتوا بشريةَ، وأنه من وضعِ النبيِّ، ولا صلةَ له بالوحيِ البتة، وربما يتعذَّرُ على باحثٍ ما أن يستثنيَ أحداً منهم من هذا الوصفِ¹.

وقد سلَّكوا غيرَ مسلكٍ في تثبيتِ ذلكَ، بأنَّ أثاروا شبهاتٍ حولَ القرآنِ المكيِّ والمدنيِّ، وقد أغرى بهم إقرارُ القدماءِ بتمايزِ المكيِّ عن المدنيِّ، ووضعِ خصائصَ وملامحَ لكلِّ منهما، ترقى لأن تكونَ فروقاً قائمةً برأسها.

وانتهوا إلى القولِ: إنَّ القرآنَ تأثَّرَ بأحداثِ العصرِ، وبثقافةِ أهليه، وهذا ما دعا (نولدكه)، و(جولدسيهر)، و(بلاشير)، و(كازانوا) إلى أن يتوهموا أو يؤهموا أنَّ القرآنَ كانَ متأثراً بالبيئة²، لا مؤثراً فيها.

ومن هذا وذاك انبعتُ أنظارُهم لافتعالِ فوارقَ حديَّةٍ بينَ المكيِّ والمدنيِّ³، لتثبيتِ نمطينِ قرآنيينِ متباينينِ، صادرينِ عن اختلافِ بيئتيَّ جليِّ، فرأوا أنَّ البيئةَ المكيَّةَ كانتَ بيئةً أميَّةً، مغلقةً، لذا؛ حريٌّ أن تأتيَ السُّورُ قصيرةً، وكذا الآياتُ، في حينِ أنَّ المدينةَ كانتَ متحضرةً بدعوى وجودِ اليهودِ، فكانَ حريّاً أن تأتيَ السُّورُ المدنيَّةُ طويلةً، وكذا آياتُها⁴.

¹ من أبرزهم الفرنسي هنري لامانس (ت 1937م)، والألماني كارل بروكلمان (ت 1972م)، والفرنسي رايغون شارل، والأمريكي غوستاف فون (ت 1972م)، والفرنسي أندري ميكال، والفرنسي كازانوا (ت 1926م)، والفرنسي لويس ماسينيون (ت 1962م)، وغير هؤلاء كثير يمكن الوقوف على آرائهم ومقولاتهم في مظانه. ينظر: الشايب، خضر، نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، الرياض، مكتبة العبيكان، 2002، ص 220، فما بعدها، ص 259 فما بعدها، المستشرقون، ج 3 ص 290 فما بعدها، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، ص 239 فما بعدها. وينظر: ابن مقبول، إدريس الدراساتُ الاستشراقيةُ للقرآنِ الكريمِ في رؤيةٍ إسلاميةٍ، المدينة المنورة، مجمعُ الملكِ فهدٍ لطباعةِ المصحفِ الشريفِ، 2005، 16-20.

² زيد عمر عبد الله، علمُ المكيِّ والمدنيِّ في عيونِ المستشرقينِ (عرضٌ ونقدٌ)، الأردن، عمان، دار الفكر للنشر، 2015، ص 12.

³ ينظر: الياسري، يعقوب يوسف خلف، بشريةُ النصِّ القرآنيِّ في ضوءِ إشكاليةِ فهمِ المكيِّ والمدنيِّ، العراق، مجلةُ جامعةِ ذي قار، كليةُ الآدابِ، عدد خاص - المؤتمر العلمي الخامس، 2012، ص 492-493.

⁴ ينظر: عباس، فضل حسن، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ط 1، دار البشير، عمان، 1987، ص 43. وينظر: العيص، زيد عمر عبد الله، علمُ المكيِّ والمدنيِّ في عيونِ المستشرقينِ (عرضٌ ونقدٌ)، ص 27.

وخلقوا لهذين النمطين تمايزاً أسلوبياً، مضموناً أن السور المكيّة فيها عنفٌ، وشدةٌ وسيابٌ، وتقريعٌ لأهل مكة، وهذا يدلُّ على تأثر النبيّ بالبيئة المكيّة، وانسجام حديثه مع ما يمتازُ به أهل مكة من غلظةٍ وجهلٍ وعنادٍ¹، ومن جهةٍ أخرى فقد اختلفَ هذا الأسلوبُ من السورِ المدنيّة؛ لأنّها نزلتْ في بيئةٍ متحضرةٍ، فاندعتْ الشدةَ والسبابَ، وحلّتْ موضعها الهدوءُ والمهادنةُ، وصارَ الخطابُ للعقلِ بالأدلةِ والبراهينِ، بدلاً من العاطفةِ والخطابةِ.²

لقد سعى المستشرقون إلى تضخيم ما يميّزُ بين المكيِّ والمدنيِّ، حتّى صيروها فوارقَ حديّةٍ لنمطين متباينين مُنبتي الصلّة عن بعضيهما، ثمّ انحرَفوا لتوظيفها بطريقةٍ مُفتعلةٍ، ففسروها في ضوءٍ منهجهم الذاتيِّ، لتبدو شُبهاً ونقائصَ، وإذا كانَ صنيعهم هذا يتضمّنُ أنظراً قد تبدو علميّةً، فإنّها ستبدو مغالطاتٍ مُستعجلةً، إنْ عولجتْ وفق منهجٍ علميٍّ تطبيقيٍّ.

مشكلة الدراسة

تأسيساً على ما سبق؛ فإنّ هناك حاجةً ملحةً لدراسة ما تداخل من المكيِّ والمدنيِّ في السورة القرآنيّة الواحدة، دراسةً لسانيّةً تطبيقيةً في إطارِ بؤرةٍ نصيّةٍ خطابيّةٍ مختارةٍ؛ بغيةِ اختبارِ مدى التماسكِ في التكوينِ النصّيِّ في تلكمِ النصوصِ، سعياً لإثباتِ مقبوليتها العلميّة، ومدى استيفائها أدلّةً نصيّةً كافيةً؛ لإقامةِ دعوى تحقيقِ الاتساقِ اللغويِّ والمعنويِّ في بؤرةِ الدراسة، مراعاةً لشرطِ النصيّةِ في السورة الواحدة.

ومن موجبات ذلك جلاءُ الإشكاليّاتِ الآتية:

- ما مدى التماسكِ النصّيِّ فيما تداخل من القرآنِ المكيِّ والمدنيِّ؟

¹ ينظر: بلاشير، كتاب القرآن، ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974م، ص81. وينظر: الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، د.ت، ص202. وينظر: العيص، زيد عمر عبد الله، علم المكيِّ والمدنيِّ في عيون المستشرقين (عرضٌ ونقدٌ)، ص19.

² ينظر: كريدان، محمد الهادي، مكي القرآن ومدنيه، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، 1984، ص301. شايب، الخضر، نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، ط1، الرياض، مكتبة العبيكان، 2002، ص369.

- ما مدى مقبولية أنظار المستشرقين المرتبطة بالقرآن المكي والمدني؟
- كيف تُفسر أنظار المستشرقين بناءً على توصيف ذلك التماسك في المكي والمدني؟

أهمية الدراسة

بالنظر في أوصاف المستشرقين المنبعثة من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، تبرز أهمية وصف الخواص التي تحقق الوحدة البنيوية للنص القرآني واستمراريته، ووصف وسائل السبك اللغوي والحبك المعنوي، ومناقشة ذلك في مضمار نحو النص، بصورة تُغني قراءات النص التقليدية، وأنماطه التحليلية الموروثة، وستناقش هذه الدراسة تلك السياقات في دراسات لسانية نصية؛ انسجاماً مع التطور الحديث في الدرس اللغوي، فإن كان هذا فإن أي نتيجة صادرة عن دراسة ما تداخل من المكي والمدني في السورة الواحدة ستكون صادقة بالضرورة- على السور القرآنية، بوصفها المحض بالمكية والمدنية.

وليس حصراً، ولكن يمكن إجمال أهمية ذلك في أربعة ملاحظ، هي:

1. الوقوف على شرط النصية، وآليات التماسك النصي والمعنوي في بؤرة الدراسة.
2. تقديم توصيف علمي لمظاهر التماسك النصي بين ما تداخل من المكي والمدني في السورة الواحدة، مُستقى من الدراسات اللسانية الحديثة.
3. بيان الفارق بين وصف المستشرقين وحقيقة التكوين النصي لمصدر ذلك الوصف.
4. تقويم مفارقات الأنظار بالوقوف على المميزات النصية لذئيك النمطين المكي والمدني.

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة إلى الكشف عن آليات التماسك النصي ووسائله فيما تداخل من القرآن المكي والمدني في السورة الواحدة، ثم بيان حقيقة أنظار المستشرقين المرتبطة بذلك، والوقوف على الأصول والموجهات المستخدمة في رسم ملامح تلك الأنظار، ورجع النظر في مصدر القول ببشرية القرآن بتوصيف حادث

مضاداً، يكشفُ عن مدى التماسكِ النَّصِّيِّ في بؤرةِ الدراسة؛ بغيةَ رسمِ صورةٍ واقعيَّةٍ لوصفِ القرآنِ بالمكيِّ والمدنيِّ.

منهجُ الدراسةِ

تتبعُ هذه الدراسةُ المنهجَ التحليليَّ الذي يقومُ على تحليلِ النَّصِّ، والكشفِ عن العلاقاتِ الرابطةِ في بنائه، ثمَّ توصيفه وفقَ آلياتِ ذلكِ التحليلِ، واستثمارِ نتيجةِ ذلكِ في درسِ أنظارِ المستشرقينِ.

إطارُ الدراسةِ

ينطلقُ الباحثُ بشكلٍ رئيسٍ من القرآنِ الكريمِ، وكتبِ تفسيره، وكتبِ علمِ القرآنِ المكيِّ والمدنيِّ، مستعيناً بالدراساتِ اللسانيَّةِ الحديثةِ، بقدرِ الحاجةِ الداعيةِ إلى التحليلِ والتوصيفِ والمقارناتِ والمقابلاتِ بينَ الآراءِ، ومن جهةٍ أخرى تنظرُ هذه الدراسةُ في أسفارِ المستشرقينِ التي نظرتُ للتباينِ الأسلوبيِّ بينَ القرآنِ المكيِّ والمدنيِّ، وجملةٍ من الدراساتِ العربيَّةِ الحديثةِ الدائرةِ في فضاءها.

الدراساتُ السابقةُ

ثمَّ دراساتٌ حديثةٌ تناقشُ معاييرَ وصفِ القرآنِ بالمكيِّ والمدنيِّ، وتستجمعُ ضوابطهَ وشروطهَ، أو تناقشُ الخلافَ الواقعَ في ذلكَ الوصفِ بناءً على معيارِ السماعِ أو القياسِ، وكذلكَ ثمَّ دراساتٌ مضادةٌ لأنظارِ المستشرقينِ في القرآنِ، لا سيما ما ارتبطَ منها بوصفِ المكيِّ والمدنيِّ، إلا أنَّها، في الغالبِ، جاءتُ في قسمٍ منها انفعاليَّةً ذاتَ عاطفةٍ دينيَّةٍ، وفي قسمٍ آخرَ صدرتُ عن تصوراتٍ دينيَّةٍ مسبقةٍ، فبدتُ كأنَّها تنظيرٌ مرتجلٌ، أو ردٌّ مستعجلٌ، وتأتي هذه الدراسةُ مسعفةً على التَّشَبُّثِ بسلطةِ نصيَّةِ القرآنِ الخطابيَّةِ، لاستشرافِ توصيفِ واقعيِّ رصينٍ لمكيِّ القرآنِ ومدنيِّه، وفقَ منهجِ تنظيريٍّ من جهةٍ، وتطبيقيٍّ من جهةٍ أخرى، وليسَ ثمَّ دراسةٌ عاجتُ على مثلِ هذا الدرسِ، في هذا المضمارِ على وجهِ الخصوصِ، سوى ما تقاربَ معه بوجهِ العمومِ، من مثلِ ما يلي:

1. السَّبْكُ والحبْكُ في القرآنِ الكريمِ، سورةِ البقرةِ، (الجزءُ الأولِ) أنموذجًا، بلعبد هجيرة وتبوع حياة، الجزائرُ، جيجل، جامعةُ محمد بن يحيى، كليةُ الآدابِ، 2020. تهدفُ هذه الدراسةُ إلى بيانِ أثرِ أدواتِ السَّبْكِ والحبْكِ في الكشفِ عن تماسكِ النصِّ القرآنيِّ، وذلكَ بتقديمِ عرضِ نظريِّ لتلكَ الأدواتِ، ثمَّ تطبيقِ المفاهيمِ النظريةِ على سورةِ البقرةِ (الجزءُ الأولِ).

2. بشريَّةُ النصِّ القرآنيِّ في ضوءِ إشكاليَّةِ فهمِ المكيِّ والمدنيِّ، الياسري، يعقوب يوسف خلف، العراق، ذي قار، مجلةُ جامعةِ ذي قار، كليةُ الآدابِ، عددٌ خاصٌّ- المؤتمرُ العلميُّ الخامسُ، 2012. تناقشُ هذه الدراسةُ استدلالَ المستشرقينَ بالقرآنِ المكيِّ والمدنيِّ على القولِ ببشريَّةِ القرآنِ، وتدحضُ هذا القولَ بالوقوفِ على الأسلوبِ البلاغيِّ في القرآنِ، الذي راعى أحوالَ المخاطبينَ، حاكياً عن الواقعِ بشخصيةِ وأحداثِهِ ورموزِهِ، ومسايراً للذهنيَّةِ البشريَّةِ بما تعتقدهُ من خرافاتٍ وأساطيرَ، وتقرُّرَ، من بعدُ، أنَّ النصَّ القرآنيَّ مشروعٌ انقلابٍ جذريُّ على الواقعِ، وليسَ الواقعُ حاكماً على النصِّ، فلا بدَّ من التفريقِ بينَ فكرةِ تأثرِ القرآنِ وانفعالهِ بالظروفِ الموضوعيةِ في البيئَةِ، وفكرةِ مراعاةِ القرآنِ لهذهِ الظروفِ؛ بقصدِ التأثيرِ فيها، وتطويرِها لصالحِ الدعوةِ.

3. علمُ المكيِّ والمدنيِّ في عيونِ المستشرقينَ (عرضٌ ونقدٌ)، زيد عمر عبد الله العيص، الأردن، عمان، دار الفكر للنشر، 2015. كشفَ الباحثُ عن طرائقِ معرفةِ المكيِّ والمدنيِّ، وخصائصِ كلِّ منهما، وناقشَ شبهاتِ المستشرقينَ في هذا العلمِ، وبيَّنَ أنَّهم يعتمدونَ مناهجَ التشكيكِ، ووجهاتِ نظرٍ سابقةً، وافتراضَ النتائجِ، وردَّ عليهم بالنصوصِ الصحيحةِ، والوقائعِ التاريخيةِ الثابتةِ.

4. الدراساتُ الاستشراقيةُ للقرآنِ الكريمِ في رؤيةٍ إسلاميةٍ، إدريس بن مقبول، مجمعُ الملكِ فهدٍ لطباعةِ المصحفِ الشريفِ، المدينة المنورة، 2005. تكشفُ هذه الدراسةُ عن ملامحِ الصورةِ المشوَّهةِ للإسلامِ والمسلمينَ في الغربِ، وتبيِّنُ أنَّ ذلكمَ التشويهَ من صنيعِ المستشرقينَ، فهمُ على اختلافِ أوطانِهِم متفقونَ في المنهجِ والوسائلِ والغاياتِ في دراسةِ الإسلامِ والقرآنِ؛ إذ بنَّوا

دراساتهم للإسلام على التشكيك في عقيدته، والتطاول على مقدماته، والطعن في حقائقه التاريخية وثوابته، قاصدين بذلك تشويه صورة الإسلام، وتصويره خطراً على الغرب وأهله.

وجليٌّ أنّ هذه الدراسة ذاتُ منحىٍّ محددٍ يَنحصرُ في مضمونِ عناونها، فهي تختلفُ اختلافاً بيّناً عن مثلِ هذه الدراساتِ التي تتحوّ منحى التعميمِ والشمولِ، فليسَ منها ما توقّفَ عندَ القضيةِ التي تتناولُها هذه الدراسةُ، من حيثُ دراستها القرآنَ المكيَّ والمدنيَّ دراسةً لسانيةً، وفقَ منهجِ نحوِ النصِّ، ولكنها من غيرِ شكٍّ سَنفِيْدُ مِمَّا يتقاطعُ معها من تلكَ الدراساتِ السابقة، وتَنطَلِقُ منه لتبنيَ عليه، أو لتعيدَ النَّظَرَ في جوانبَ منه، بمقدارِ ما هوَ منتظرٌ من الأهدافِ التي تسعى هذه الدراسةُ إلى بلوغها.

مُخَطِّطُ الدَّرَاسَةِ

تتكوّنُ هذه الدراسةُ من مقدمةٍ وأربعةِ فصولٍ جاءتْ على هذا النَّحوِ: الفصلُ الأوّلُ، وعنوانُهُ (محدداتُ المكيِّ والمدنيِّ وموجّهاتُ نحوِ النصِّ)، يشملُ القرآنَ المكيَّ والمدنيَّ؛ مفهومَهُ وعوارضَهُ، من حيثُ مصدرُ الوصفِ، والخصائصُ الأسلوبيةُ والموضوعيةُ، والضوابطُ الحديثةُ لكلِّ منهما، ودرسَ اللسانياتِ بينَ القدماءِ والمحدثينَ، ونحوِ النصِّ والقرآنِ، ثمَّ عقدَ مقارناتٍ ومقابلاتٍ بينَ الآراءِ القديمةِ والحديثةِ، ومن شأنِ هذا أنْ يكشفَ عن مدى الترابطِ بينهما، والمنطلقاتِ الأصوليةِ التي اعتمدتْ عليها الدراساتُ الحديثةُ، سواءً أكانتْ دراساتٍ متخصصةً كالتي أُشرنا إليها، أم كانتْ ملاحظَةً تتناثرُ في دراساتِ نحوِ النَّصِّ، ثمَّ يتبعُ ذلكَ تقديمٌ نظريٌّ لمعياريِّ السَّبكِ والحَبكِ ووسائلهما.

والفصلُ الثاني وعنوانُهُ (السَّبكِ والحَبكِ في المكيِّ المدمجِ في المدنيِّ) يشملُ درساً تطبيقياً للآياتِ المكيَّةِ المدمجةِ في سورةِ مدنيَّةِ.

وعنوانُ الفصلِ الثالثِ (وسائلُ السَّبكِ والحَبكِ في الآياتِ المدنيَّةِ المدمجةِ في سورةِ مكيَّةِ)، ويشملُ دراسةً تطبيقيةً في السُّورِ المكيَّةِ للآياتِ المدنيَّةِ المدمجةِ فيها.

أمَّا الفصلُ الرابعُ، فعنوانُهُ (مفارقاتُ التنظيرِ وانسجامَ ما تداخلَ من المكيِّ والمدنيِّ)، ويشملُ تداخلَ وصفِ المكيِّ والمدنيِّ والاستثناءَ منهُما، والسياقَ المتَّصلَ والوحدةَ الموضوعيَّةَ في السُّورةِ القرآنيَّةِ وفقَ أنظارِ المستشرقينَ، انطلاقاً من موضوعِ الدراسةِ.

وأُريدَ هذا بخاتمةٍ فيها أهمُّ النتائجِ الصادرةِ عن هذه الدراسةِ، تلتها فهرسٌ فنيٌّ.

الفصل الأول

محددات المكي والمدني وموجّهات نحو النصّ

1.1 المكي والمدني؛ المفهوم وعوارضه

1.1.1 تحديد المفهوم

المكي والمدني الذي تختبر هذه الدراسة مدى انسجام بعضيه مع كُله وتماسكه هو من ضرورات النظر في علوم القرآن، والإلمام به شرط في التفسير¹، وليس في التراث الإسلامي نصّ منقول عن النبي يُعين على تحديد هذا المفهوم، خلا ما نُقل عن الصحابة من روايات متناثرة ترتبط بعلوم القرآن عامّة، مكّيه ومدنيّه ونزوله وترتيبه وتفسيره، وأمّا علة عدم ورود نصّ شرعيّ في موضوع المكي والمدنيّ، فلعلّه راجع إلى أنّ واقع الحال اقتضى ذلك، فإذا كان القرآن قد نزل في مكة والمدينة، فليس ثمّ حاجة للتصيص على ذلك؛ لأنّ الصحابة ميّزوا بينهما بمقتضى واقع الحال، والمشهور لدى العلماء في علة هذا أنّ النبي لم يؤمر بذلك، وإنما دعت معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ أهل العلم أن ينظروا فيه، فيعرفوا أحكامه²، ولما كانت أقوال الصحابة هي مستند وصف القرآن بالمكي والمدنيّ، آل ذلك إلى عدم استقرار في آراء العلماء، فنشأ خلاف فيه منبث عن اختلافهم في الروايات وأسباب النزول، والمعايير التي اتّخذت موجّهًا في تعيين المكي والمدنيّ وتفسيره.

وقد اعتمد القدماء على تلك الروايات والمعايير في تعيين المكي والمدنيّ، وكان لذلك مصدران اثنان، هما السماع والقياس، وقد جاء القياس، من بعد، مصحوبًا بضوابط، وموصوفًا بخصائص ومميزات سيأتي بيانها.

¹ ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيقان في علوم القرآن، ج1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص36.

² ينظر: الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ج1، محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957، ص191.

1.1.2 اعتماد السماع

لم يقتصر السماع على وصف السورة بمكيّة أو مدنيّة، بل امتدّ ليشمل "ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، وترتيباً ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة، وحكمه مدنيّ، وما نزل بالمدينة، وحكمه مكّي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكّي في المدنيّ، وما يشبه نزول المدنيّ في المكّي... ثمّ الآيات المدنيّات في السور المكيّة، ثمّ ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة... ثمّ ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدنيّ، وقال بعضهم: مكّي¹."

وممّا أدكى هذا الخلاف في المكّي والمدنيّ أنّ جاءت أشهر الروايات المنقولة عن الصحابة والتابعين متعارضة غير متفقة في قسم منها، فكانت على هذا النحو:

- أ. في رواية ابن عباس، المدنيّ خمس وعشرون، وسائر القرآن مكّي²، وفي رواية أخرى السور المكيّة ست وثمانون، والمدنيّة ثمان وعشرون³.
- ب. في رواية قتادة، المدنيّ سبع وعشرون، وسائر القرآن بمكّة⁴.
- ج. رواية جابر بن زيد، ما أنزل عليه بمكة خمس وثمانون سورة، إلا سورة النحل، فإنّه أنزل عليه بمكّة أربعون آيةً منها، وبقيتها بالمدينة، وما أنزل بالمدينة ثمان وعشرون سورة، سوى سورة النحل، فإنّه أنزل بمكّة منها أربعون آيةً، وبقيتها بالمدينة⁵.

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 192.

² ينظر: أبو عبّيد، القاسم بن سلام الهروي، فضائل القرآن، ط1، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، (دمشق - بيروت)، دار ابن كثير، 1995، ص365.

³ ينظر: ابن الضريس، أبو عبد الله محمد بن أيوب الرازي، فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، ط1، تحقيق: غزوة بدير، دمشق، دار الفكر، 1987، ص33.

⁴ ينظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج1، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1964، ص62.

⁵ ينظر: أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد، البيان في عدّ آي القرآن، ط1، غانم قدوري الحمد، الكويت، مركز المخطوطات والتراث، 1994، ص135-136.

وخالف هؤلاء الصحابة والتابعين نفرًا من العلماء، فذكر أبو داود سليمان بن نجاح أن السور المدنية إحدى وعشرون سورة، والمختلف فيها تسع عشرة سورة، وما عداها مكي، وجملتها أربع وسبعون سورة، وعدّ أبو الحسن بن الحصار عشرين سورة مدنيّة¹، واثنى عشرة مختلفًا في وصفها بالمكي والمدني²، وسائر القرآن مكيًا.

ومجمل هذا أن المتفق على مدنيّه البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والنور، والأحزاب، والفتح، والحديد، والمجادلة، والممتحنة، والتحريم، والنصر، وأن المختلف في مكيّه ومدنيّه الفاتحة، والرعد، والحجر، والنحل، والحج، والنور، ومحمد، والحجرات، والرحمن، والحشر، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، والإنسان، و(المطففين)، والفجر، والليل، والقدر، والبيّنة، والزلزلة، والماعون، والإخلاص، والمعوذتان، وسائر القرآن مكي.

ورغم أن الروايات المرتبطة بأسباب النزول نصّ في تعيين المكي والمدني، إلا أن بعضها مدعاة للتوهم والخط، أو سبب في توسيع الخلاف، ذلك أن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر، فما يُذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقًا، والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها نزل جبريل فقرأها على النبي، ليُعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب، وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك³، وقد نصّ الزركشي على إمكان نزول الآية مرتين تعظيمًا لشأنه، وتذكيرًا به عند حدوث سببه خوف نسيانه⁴، وكثيرًا ما يُطلق القدماء مصطلح سبب النزول على أشباه حادثة ما ونظائرها⁵، فيريدون بقولهم: "نزلت الآية في كذا"، أن لفظ الآية مما يشمل ذلك، لا أنه كان سببًا لنزوله حقيقة⁶، أي أنهم يطلقون سبب

¹ ينظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ط1، ص36-37.

² ينظر: نفسه، ص37.

³ القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد، محاسن التأويل، ط1، ج9، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، 1418هـ، ص573.

⁴ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص29.

⁵ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، ج29، تونس، دار التونسية للنشر، 1984، ص370.

⁶ القاسمي، محاسن التأويل، ط1، ج6، ص473.

النزول على مناطِ الحكم الذي تصدق عليه الآية، لا على الآية عينها، وهذا يعني أن سبب النزول له غير مفهوم لدى القدماء، فتارة يراود به سبب النزول فعلاً، وتارة أخرى يراود به معنى الآية¹، وأحياناً يقرأ النبي بعض الآيات متذكراً لها، فتشتبه على بعض الصحابة التلاوة بالنزول، فيتوهم أحدهم أنها نزلت ساعتئذٍ، وربما يعلم بعض الصحابة أن آيات من سورة ما نزلت في مكة، فيعمم وصف المكي على السورة مطلقاً، وإذا كان هذا كذلك، فإنه يمكن إعادة النظر في دراسة مستقلة في روايات أسباب النزول، فتكون سياقات الأحوال هذه رافعة للخلاف الواقع، ومفسرة لعددٍ غير قليل من الروايات التي بدت متباينة في توصيف المكي والمدني، فليس ثم ما يمنع أن تكون كل الروايات المرتبطة بآية واحدة صحيحة، عند ربطها بسياق الحال الذي قيلت فيه، فينتفي ساعتئذٍ ما يتوهم من تعارض.

ومن جهة أخرى، فإن مما ضيق الخلاف أن نظر العلماء، من بعد، في هذه الروايات فرجحوا معيار الزمان على المكان وحال المخاطبين²، ذلك أن المعيار المكاني غير مطرد في ما نزل خارج مكة والمدينة؛ إذ إن الأماكن التي نزل فيها القرآن متعددة، فتتعدى قسماً إلى اثنين: مكّي ومدني، ومعيار حال المخاطبين غير مستغرق لسائر سور القرآن، فقد ورد في بعض المدني ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾³، وفي بعض المكي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾⁴، أمّا معيار الزمان، فصالح لأن يكون قسماً؛ لأن القرآن نزل في زمان واحد متصل غير منفصل ولا متعدد، هو زمن حياة النبي، فيمكن قسمته إلى زمانين باعتبار حادثة ما في يوم ما، ومن هنا كانت حادثة هجرة النبي في السابع والعشرين من شهر صفر من السنة الرابعة عشرة من البعثة، على الصحيح، هي الفاصل الزمني بين المكي والمدني، والمعيار المعتمد، فما نزل قبل الهجرة مكّي، وما نزل بعدها مدني.

¹ ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني، مجموع الفتاوى، ج13، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1995، ص339، 340.

² ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص187. وينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص47. وينظر: القاسمي، محاسن التأويل، ط1، ج3، ص3.

³ البقرة، 21، 168. النساء، 1، 133، 170، 174. الحجرات، 13.

⁴ الحج، 77.

1.1.3 اعتمادُ القياسِ

على نحوٍ مفارقٍ ذاكَ السماعَ والخلافَ الواقعَ فيه، استقرى العلماءُ آياتِ الكتابِ، فاستقصَوْا ضوابطَ ومميزاتٍ تطرَّدُ قياسًا في كلِّ من المكيِّ والمدنيِّ، كقولهم: "كلُّ سورةٍ فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقط، أو (كلًّا)، أو أولُها حرفُ تَهَجٍّ سِوَى الزَّهْرَاوَيْنِ وَالرَّعْدِ، أو فيها قصةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ سِوَى البقرةِ فهي مكيَّةٌ، وكلُّ سورةٍ فيها قِصصُ الأنبياءِ والأممِ الخاليةِ مكيَّةٌ، وكلُّ سورةٍ فيها فريضةٌ أو حدٌّ فهي مدنيَّةٌ، وكلُّ سورةٍ فيها ذِكرُ المنافقينِ فمدنيَّةٌ سِوَى العنكبوتِ، وكلُّ سورةٍ فيها سجدةٌ فهي مكيَّةٌ"¹.

وربَّما فصلَ بعضهم بينَ المكيِّ والمدنيِّ من حيثِ المضمونِ والأسلوبِ، فرأى أنَّ موضوعَ المكيِّ هو التوحيدُ والبعثُ والجنةُ والنارُ، وفضحُ المشركينَ، مع أسلوبِ قصرِ الفواصلِ وقوَّةِ الألفاظِ، وأنَّ موضوعَ المدنيِّ العباداتُ والمعاملاتُ ومخاطبةُ المنافقينَ وأهلِ الكتابِ، مع أسلوبِ طولِ الفواصلِ والآياتِ².

وعلى الرغمِ من أنَّ هذه الضوابطُ والمميزاتُ سائرةٌ مُتناقلةٌ، ويسهلُ تلمُّسُها، إلا أنَّ بعضها يشتملُ على استثناءاتٍ تعترضُ أطرافَها، كقولهم: "كلُّ سورةٍ فيها قصةُ آدَمَ وإِبْلِيسَ فهي مكيَّةٌ سِوَى البقرة"³، وقولهم: "كلُّ سورةٍ افتتحتُ بالحروفِ فهي مكيَّةٌ إلا البقرةَ وآلَ عمران"⁴، وقولهم: "كلُّ سورةٍ فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وليسَ فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مكيَّةٌ إلا سورةَ الحج"⁵، وقد انتبَهَ بعضُ القدماءِ إلى

¹ السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج1، ص69. وينظر: الكلبي الغرناطي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ط1، ج1، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1416هـ، ص14. وينظر: الياسري، يعقوب يوسف خلف، بشريَّة النصِّ القرآنيِّ في ضوء إشكاليَّة فهم المكيِّ والمدنيِّ، العراق، مجلة جامعة ذي قار، كليَّة الآداب، عدد خاص- المؤتمر العلمي الخامس، 2012، 491-492. وهذا قليل من كثير مما ورد في مؤلفات علوم القرآن.

² ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1999، ص86. وينظر: سلامة، محمد علي، منهج الفرقان في علوم القرآن، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2002، ص87-89. وينظر: عباس، فضل حسن، إتيان البرهان في علوم القرآن، الأردن، دار الفرقان، 1997، ص374.

³ حمد، عبد الله خضر، الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية، ط1، ج1، لبنان، دار القلم، 2017، ص71.

⁴ السخاوي، علي بن محمد، جمال القراء وكمال الإقراء، ط1، تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة، دمشق - بيروت، دار المأمون للتراث، 1997، ص337.

⁵ الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، بيروت، دار العلم للملايين، 2000، ص182.

كثرة هذه الاستثناءات وعدم الاطراد، فأسقطوا هذه الضوابط أو قيدوها، قال القرطبي: "وأما من قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي حيث وقع، فليس بصحيح، قال: البقرة مدنية، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في موضعين¹، وقال الزركشي: "وهذا القول، إن أخذ على إطلاقه، ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، وسورة النساء مدنية، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وفيها ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وسورة الحج مكية، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾²، وقال ابن تيمية في ضابط مخاطبة المنافقين وأهل الكتاب في سورة الحديد: "وقد قيل: إنها مكية، وهو ضعيف؛ لأن فيها ذكر المنافقين وذكر أهل الكتاب"³.

وقد يؤدي النظر في هذه الضوابط والمميزات بمعزل عن الرواية إلى الخلط والتوهم، فبعض الآيات المدنية ينطوي على مضمون الآيات المكية، كقوله (تعالى) في سورة الأنفال المدنية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾⁴، فموضوع مكر المشركين بالنبي يشير إلى أنها مكية، لذا حكم بعض الدارسين بمكيته واستثنوا من سائر الآيات المدنية، ولكن رواية ابن عباس تثبت أنها مدنية⁵، وعكس ذلك أن ذكر النفاق في سورة مكية، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

والذي يظهر أن وصف القرآن بالمكي والمدني ينبغي أن ينطلق من الرواية الصحيحة ابتداءً، ويضبط بها، ذلك أن مصدر الرواية الصحابة الذين نزل فيهم القرآن، فإن لم يكن ذلك فهذه الضوابط والمميزات، ولا ينبغي الأخذ بها إذا عارضت رواية ما، فالرواية الصحيحة حاسمة في إثبات هذا الوصف، والضوابط والمميزات يُستأنس بها؛ لأنها صادرة عن النظر والاجتهاد والرأي، ولا اجتهاد في

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 2، ج5، ص1.

² الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص190.

³ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد، مجموع الفتاوى، ج17، ص193.

⁴ الأنفال: 30

⁵ ينظر: أبو شهبه، محمد بن محمد بن سويلم، المدخل لدراسة القرآن الكريم، 2، القاهرة، مكتبة السنة، 2003، ص223.

مقابل نص¹، لذا؛ فليس بمستغرب أن تستثني رواية آية من سورة مكية، فنُتِبَت مدنيّتها، أو تستثني آية من سورة مدنيّة، فنُتِبَت مكّيّتها، رغم انسجام تلك الآية مع سائر آيات السورة من حيث المضمون والأسلوب، كما سيأتي بيانه في هذه الدراسة.

1.1.4 الاستثناء وتداخل الوصف

إنّ وصف سور القرآن بثنائيتي المكي والمدنيّ وصفٌ تغليبي²، فلا يلزم منه استغراق آيات السورة جميعاً، فتمّ سور مكيّة بعضها مدنيّ، وسور مدنيّة بعضها مكيّ، وقد صرح القدماء بذلك، فذكر البيهقي أنّ "في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها"³، وقال ابن الحصار: "كلُّ نوع من المكيّ والمدنيّ منه آياتٌ مستثناة"⁴، ورأى ابن حجر أنّ عناية الأئمة كانت بما نزل بالمدينة في سورة مكيّة، وعكسه نادر⁵، وامتدّت عنايتهم إلى إلحاق ذلك الوصف بالآيات مجزأة إضافة إلى مطلق السور، فجاء الوصف متبوعاً باستثناءات ذات بيانٍ شموليٍّ يستغرق آيات الكتاب جميعاً، كقول ابن عطية في سورة يونس: "هذه السورة هي مكيّة، قال مقاتل: إلا آيتين، وهما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ نزلت بالمدينة، وقال الكلبي: هي مكيّة إلا قوله: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ نزلت في اليهود بالمدينة"⁶، ومثله قول ابن الجوزي في سورة الأعراف: "رؤي عن ابن عباس وقتادة أنّها مكيّة إلا خمس آيات، أولها قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، وقال مقاتل: كلّها مكيّة، إلا قوله:

¹ ينظر: الختعي، سليمان بن سحمان، الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، ط5، تحقيق: عبد السلام بن برجس، الرياض، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، 1992، ص370.

² لعلّ منطلق تخلق ذلك الوصف كان لما غلب على آياتها، فالغالب عندهم له الحكم، أو تبعاً لفاتحة السورة. ينظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، ج1، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، دت، ص199. وينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص191. وينظر: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج2، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995، ص168.

³ البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، دلائل النبوة، ط1، ج7، تحقيق: عبد المعطي قلجعي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1988، ص143.

⁴ السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ج1، ص69.

⁵ ينظر: ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج9، أخرجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ، ص41.

⁶ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، ج3، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ، ص102.

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فَإِنَّهُنَّ مَدَنِيَّاتٌ¹، وكذلك قول السيوطي: "أخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس قال: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت في المدينة ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث"²، ولا يخفى أن هذه الاستثناءات التي ذكرت، وكثير مما لم يذكر، واقع فيها خلاف ظاهر، كقول السيوطي في سورة الأعراف: "أخرج أبو الشيخ بن حيان عن قتادة قال: الأعراف مكية إلا آية: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، وقال غيره من هنا إلى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ مدني"³، وقوله في سورة يونس: "استثنى منها: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ الآيتان، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، وقيل: من أولها إلى رأس الأربعين مكي، والباقي مدني، حكاه ابن الفرس والسخاوي في جمال القراء"⁴، وثم خلاف أظهر من هذا فيما استثنى من سورة الأنعام، فقد نقل السيوطي عن ابن عباس، كما مر سابقاً، أن ثلاث آيات منها نزلت في المدينة، في حين نقل ابن عاشور رواية أخرى عن ابن عباس تحكي أن ستاً منها نزلت في المدينة، ثلاثاً من قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى منتهى ثلاث آيات، وثلاثاً من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وفي رواية أبي جيفة، عند الشوكاني، أن سورة الأنعام جميعاً مكية سوى الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾، فإنها مدنية⁵، وقيل: المدني فيها آية ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾⁶، وذهب بعض المحدثين إلى ترجيح بعض تلكم الاستثناءات، أو إلى استبعادها أصلاً، فقد أثبت الطنطاوي مكية سورة الواقعة نافية استثناء أي آية منها؛

¹ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج2، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1422هـ، ص100.

² السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج3، بيروت، دار الفكر، د.ت، ص244.

³ ينظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج1، ص57.

⁴ نفسه، ج1، ص58.

⁵ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص121.

⁶ ينظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، فتح القدير، ط1، ج2، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، 1414هـ، ص111.

⁷ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص121.

لعدم صحة الدليل¹، وقال ابنُ عاشورٍ، تعقيباً على أقوالِ مَنْ استثنى بعضَ الآياتِ من سورةِ يونسَ المكيَّةِ: "وأحسبُ أنَّ هذهَ الأقوالَ ناشئةٌ عن ظنِّ أنَّ ما في القرآنِ من مجادلةٍ مع أهلِ الكتابِ لم ينزلْ إلا بالمدينة، فإنَّ كانَ كذلكَ فظنُّ هؤلاءِ مخطئٌ"²، أمَّا (فضلِ عباس)، فقد نفى وجودَ استثناءِ آياتِ من السورةِ المدنية، مستنداً إلى أنَّ الاستثناءَ لا يقبلُه العقلُ، وما وردَ من استثناءِ في السورِ المكيَّةِ فيه غلوٌ وتكلفٌ، وأسبابُهُ واهيةٌ، أو رواياتُهُ ضعيفةٌ³.

ولعلَّ مصدرَ هذا الاضطرابِ تباينُ جهةِ النظرِ في الآيةِ الواحدة، فتارةً تُحملُ على روايةِ سببِ النزولِ، أو تُعرضُ فيها مِيزةٌ من مميزاتِ المكيِّ أو المدنيِّ، فيلزمُ من ذلكِ استثناءُها من سائرِ الآياتِ، وتارةً أخرى تُحملُ على سياقِ النصِّ المتصلِ فينتفي الاستثناءُ.

وبناءً على ما سبق؛ فإنَّ هذهَ الدراسةَ تعالجُ الآياتِ المستثناةَ من السورِ المكيَّةِ والمدنيَّةِ، وفقَ درسِ لسانيِّ حديثٍ، يعتمدُ في وسيلتهِ ومنطقه على درسِ نحوِ النصِّ، بصرفِ النظرِ عن مدى ثبوتِ وصفِ الآياتِ، والمعياريِّ المعتمدِ في تعيينه، فكلُّ ما وردَ في مصنفاتِ الأولين، وكتبِ التفسيرِ من وصفٍ لهذه الآياتِ تصلحُ دراسته، سواءً أكانَ معيارُ الوصفِ المكانَ أم الزمانَ أم حالَ المخاطبين؛ ذلكَ أنَّ المستشرقينَ لم يلتفتوا إلى معيارِ الوصفِ، حينما وضعوا أنظارهم المرتبطةَ بالقرآنِ المكيِّ والمدنيِّ.

1.2 موجّهاتُ نحوِ النصِّ

تمهيدٌ

بمعزلٍ عن تداخلِ المصطلحاتِ في علمِ اللسانياتِ الحديثِ، واضطرابِ قسمٍ منها بفعلِ الترجمة، فإنَّ قداماءِ العربِ كالجرجانيِّ والزمخشريِّ والسكاكيِّ والزرکشيِّ قد أدركوا أهميةَ ترابطِ النصِّ وتلاحمِ أجزاءه واتصالِ سياقِه، ونظَّروا لذلكَ، كما سيأتي بيانهُ في الجانبِ الإجماليِّ من هذهِ الدراسة، وإذا كانتِ

¹ ينظر: طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، القاهرة، ط1، ج14، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص155.

² ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص78.

³ ينظر: عباس، فضل، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط1، ص380.

الدراسات اللسانية الحديثة تُعنى بالكشف عن تماسك النص، ومدى انسجام وحداته وترابط عناصره، فإنّ القدماء وقفوا على ذلك، وقدموا أصولاً فيه، سواءً أكان ذلك في درس القرآن أم في درس الشعر، فقد وقف غير واحد من المحدثين على صلة بعض المناهج الحديثة بما كان عند القدماء، كـ(بن عيسى بطاهر) الذي بيّن علاقة ما قدّمه حازم بالتماسك النصي¹، إذ سلط القرطاجني الضوء على ترابط أجزاء القصيدة، فربط بين فصولها، وميّز بين المطلع والمقطع، وسمّى اقتران المقطع بالذي قبله بالاطراد في تسويم رؤوس الفصول، ودرس قصيدة المتنبي: "أغالب فيك الشوق والشوق أغلب" وفق هذه الأصول، فألفى الكلام بذلك مرتباً أحسن ترتيباً، ومفصلاً أحسن تفصيلاً، وموضوعاً بعضه من بعض أحكم وضع².

ولا يعني هذا أنّ كلّ ما جاء في الدرس اللساني الحديث قد عرفه العرب القدماء، أو ذكروه بنصّه وفصّه، بل الحقيقة أنّ كلمة اللسانيات بمفهومها الحديث ليست غريبة في التراث العربي، فقد اهتم قسم من القدماء، كما سيأتي بيانه، بالوحدة البنويّة للنصّ، بالنظر في جانبه المعجمي والصرفي، والنحوي، والمعنوي، ووضعوا أصولاً في ذلك، وإن كانت مصطلحاتهم غير مصطلحات اللسانيين المحدثين، إلّا أنّ عدداً غير قليل منها جاء موافقاً للدرس اللساني الحديث، من حيث المضمون والمفهوم، فليس غريباً أن يكون مضمون مصطلح التركيب عند (دي سوسير) موافقاً لمقولات الجرجاني في نظرية النظم، ومصطلح التأليف كما بيّن (خالد بسندي)³، يقول (دي سوسير): "إنّ مفهوم التركيب لا ينطبق على الكلمات وحسب، بل على مجموع الكلمات والوحدات المعقدة من المقاييس والأصناف كافة، (الكلمات المركبة والمشترقة، أقسام الجملة، والجملة الكاملة) ولا يكفي العلامة الرابطة بين مختلف أجزاء التركيب،

¹ ينظر: بطاهر، بن عيسى، النقد التطبيقي عند حازم القرطاجني (شعر المتنبي أمونجاً)، الأردن، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (8)، العدد (1)، 2012، ص78.

² ينظر: القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الجيب بن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، دت، ص299.

³ ينظر: بسندي، خالد، نظرية القرائن في التحليل اللغوي، الأردن، مجلة اتحاد الجامعات العربية للأدب، المجلد 4، العدد 2، 2007، ص294، 295.

بل يجدرُ بنا أيضاً أن نعتبرَ العلاقةَ التي تربطُ الكلَّ بأجزائه¹، وغيرُ خافٍ أن هذا عينهُ مضمونُ قولِ الجرجاني: "والألفاظُ لا تُقيدُ حتى تُؤلفَ ضرباً خاصاً من التأليفِ، ويُعمَدَ بها إلى وجهٍ دونِ وجهٍ من التركيبِ والترتيبِ"²، وقولهِ: "معلومٌ أن ليسَ النَّظْمُ سوى تعليقِ الكلامِ بعضها ببعضٍ، وجعلِ بعضها بسببِ من بعضٍ"³، وليسَ في كلامِ القدماءِ كلامٌ أدلُّ على موضوعي السَّبكِ والحِكِّ من هذا الكلامِ، فقولُهُ: "تعليقِ الكلامِ بعضها ببعضٍ" مرادٌ به الروابطُ اللغويَّةُ، وهذا عبارةٌ عن السَّبكِ، وقولُهُ: "وجعلِ بعضها بسببِ من بعضٍ" مرادٌ به اتِّصالُ معاني الكلامِ، وهذا مضمونُ الحِكِّ، وكذلكَ قدَّمَ (مهدي عرار) بياناً عن نظريَّةِ (فيرث) السياقيَّةِ، وتجلياتِ بُعدها الدلاليِّ الوظيفيِّ عندَ الإمامِ الغزالي⁴، كما أثبتَ (محمد بصل وفاطمة بلة) أنَّ أساسَ تلكَ النظريَّةِ⁵ موافقٌ لمضمونِ نظريةِ سياقِ الحالِ عندَ ابنِ جني⁶، وقد تنبَّه (صبحي الصالح) إلى هذا فقال: لقد اهتدى القدماءُ "إلى أدقِّ جزئياتِ البحثِ اللسانيِّ، وهي تعلنُ نفسَها بنفسِها، وكلُّ إغفالٍ لها هوَ من ضعفِ الذاكرةِ الذي يصيبُ الأوساطَ العلميَّةَ اللغويَّةَ الحديثةَ؛ لأنَّها تبدي إعجابها بتعريفاتِ الدارسينَ المعاصرينَ للغة، وبالنتائجِ المترتبةِ على تعريفاتهم، في حينِ ننسى رداءً جمهرةً تلكَ التعريفاتِ إلى أصولِها الأولىِ عندَ أسلافنا العربِ الخالدين"⁷، وغيرُ هذا كثيرٌ ممَّا لم يُذكرَ من قضايا درسِ اللسانياتِ الحديثِ، أمَّا نحوُ النصِّ خاصَّةً، فقد نظرَ بعضُ المحدثينَ في مصنفاتِ القدماءِ، فوقفوا على أصولِ هذا العلمِ فيها، كـ(نصير زيتوني) الذي رأى أنَّ كلامَ الجرجانيِّ على

¹ دي سوسير، فردينان، محاضرات في الأسنوية العامة، ترجمة: يوسف غازي ومجيد النصر، بيروت، دار النعمان الثقافية، 1984م، ص150

² الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مصر، مطبعة المدني، د.ت، ص4.

³ الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001، ص7.

⁴ ينظر: عرار، مهدي، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفي: دراسة دلالية تواصلية، أمريكا، جامعة ينغ برنغهام، مجلة العربية، العدد 39، 2002، ص3، 14، 21.

⁵ يقول فيرث في نظريته: "المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة". عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ط5، مصر، عالم الكتاب، 1998، ص68.

⁶ ينظر: بصل، محمد، وفاطمة بلة، ملامح نظرية السياق عند ابن جني (الخصائص) أنموذجاً، سورية، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مجلد 36، عدد 3، 2014، ص455.

⁷ الصالح، صبحي، أصول الأسنوية عند النحاة العرب، بيروت، مجلة الفكر العربي، العدد 8 - 9، معهد الإنماء العربي، 1979، ص65.

النسيج المحكم الذي يتحقق بالروابط اللغوية كالتعريف والتكثير، وأسماء الإشارة، والإضمار والإظهار، والوصل والفصل، هو مضمون ما عُرف حديثاً بنحو النص¹، كذلك كشف (عبد القادر بوشيبية) عن علاقة الحك النصي بعلم المناسبات عند الزركشي، سواء أكانت بقرينة التنظير أم بقرينة المضادة، فهي توافق في مضمونها الحك النصي بمفهومي الحديث²، كما وقف (صبحي الفقي) على هذا، فرأى أن للبلاغة العربية سبقاً في علم النص، بالنظر في توجيهها العام المتمثل في وصف النصوص، وتحديد وظائفها المتعددة، وأورد إشارات وأمثلة واضحة من كلام القدماء في نحو النص، كانت بمنزلة لبنات في بناء التحليل النصي، بل بعضها اتصل بعلم النص اتصالاً وثيقاً، بصورة أوضح مما قاله الناصيون حديثاً³، وهذا وغيره مما لم يُذكر ينفي الشك بأن المناهج النقدية الحديثة في علوم العربية، بصرف النظر عن تنوعها أو تناقضها، تظل ممّا يمكن أن يُستثمر في إغناء مناهج القدماء وعلوم العربية.

لقد نحا الدرس اللغوي الحديث إلى دراسات لسانية نصية تتوافق والتطور العلمي في دراسة اللغة، وربطها بطرائق التفكير المؤلف، وواقع الحياة البشرية فعلياً لا نظرياً، متجاوزة القراءات النصية التقليدية الموروثة، ولم يك ذلك الانعطاف الحاد من دراسة مستوى الجملة إلى دراسة مستوى النص إلا لقصور الدرس البنيوي الجملي عن تفسير عديد من الظواهر اللغوية، فسلك درس اللسانيات مسلماً آخر، حتى اتخذ موضعاً جوهرياً في الدراسات اللغوية الحديثة، وليس بخاف أن موضوع تلك الدراسات هو التماسك النصي الذي يحققه السبك والحك ومعايير الترابط النصي، فللسانيات الفضل في ذلك التحول من المستوى الضيق للجملة إلى المستوى الرحب للنص، فبعد أن كانت الجملة هي محور الدراسات اللغوية التقليدية، ونقطة انطلاق الدارسين، حال هذا الأمر، من بعد، إلى الاهتمام بدراسة النص بوصفه

¹ ينظر: زيتوني، نصير، بعض ملامح نحو النص في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، فلسطين، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثالث والثلاثون (2)، 2014، ص216.

² ينظر: بوشيبية، عبد القادر، لسانيات النص وآفاق قراءة النص القرآني، الجزائر، مجلة الإشعاع في اللسانيات والترجمة، العدد الثامن، المجلد (6)، 2017، ص12-13.

³ ينظر: الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط1، ج1، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص83-87.

السياق الأوسع والأشمل، فلا يمكن دراسة المعنى منفصلاً عن سياقهِ اللساني المتمثل في النصّ، من حيث بنيته الداخلية، ووحداً الجزئية، وتفحص معايير النصية فيه.

1.2.1 مفهوم نحو النصّ

لاقى الكلام على النصّ صعوبةً في تحديد المفهوم لدى العرب، فلم تزل هناك مساعٍ متعددة لضبط مفهومه، ووضع حدّ جامع مانع له، ولعلّ سبب ذلك تعدّد تعريفاته الأجنبية، فقد ذهب (رولان بارت) إلى أنّ النصّ عملية إنتاج مستمرة، وهو بديل للعمل الأدبيّ، له قراءات متعددة، وعملية إنتاج متجددة باستمرار، وهو نتاج عملية تقاطع وتداخل تتم داخل عالم النصّ الداخليّ، أمّا مؤلف النصّ، فتنتهي مهمته بعد الانتهاء من كتابته، ويمكن القارئ المشاركة في إنتاج النصّ، فالنصّ مفتوح دائماً على قراءات جديدة، فيصبح القارئ شريكاً في إنتاجه¹، ورأى (هاليداي ورقية حسن) أنّه: "كلمة تستخدم في علم اللغويات؛ لتشير إلى أية فقرة مكتوبة أو منطوقة مهما كان طولها، شريطة أن تكون وحدة متكاملة دون تحديد حجمه قصراً أو طولاً"²، لذلك ليس غريباً أن يتعدّد مفهومه لدى العرب، فقد استنسخ (سعيد البحيري) قول (دي بوجراند) في بيان ماهية النصّ، وعدّ التماسك أحد الأركان التي تحقق صفة النصية للنصّ³، ورأى (محمد عناني) أنّه "عبارة عن التوصليل اللغويّ، سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً، باعتباره رسالة فحسب، تتخذ صورة شفرات محددة في صورتها المسموعة أو المرئية"⁴. وخالف (منذر عياشي) هذين، فرأى أنّ وضع تعريف للنصّ يعدّ تحديداً يلغي الصيرورة فيه، ويثبت إنتاجيته على هيئة نمطية، لا يكون فيها زماناً للمتغيرات الأسلوبية والقرائية أثر، ويلغي قابليته التوليدية زماناً ومكاناً، ويعطل في النهاية فاعليته النصية⁵.

¹ ينظر: الزهرة، يعقوب، نحو النص بين النظرية والإجراء، الجزائر، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 3، العدد 2، 2019، ص224.

² عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط1، ص 22.

³ ينظر: بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص146.

⁴ عناني، محمد، المصطلحات الأدبية الحديثة، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 1997، ص116.

⁵ عياشي، منذر، مقالات في الأسلوبية - دراسة، ط1، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1990، ص208.

أمّا نحوُ النصِّ، فقد بدأ، في الظاهر، بديلاً عن درسِ نحوِ الجملة؛ إذ لم يشأ اللسانيون أن يألّفوا بين الدرسين، بل قدّموا دراساتٍ تكشفُ في مضمونها عن قصورِ نحوِ الجملة عن تقديم وصفٍ متكاملٍ للخطاب؛ لأنّه يهملُ ما يتضمّنه من دورِ اجتماعيٍ لظرفِ المرسلِ والمستقبلِ، وهذا ما استدرّكه اللسانيون في نحوِ النصِّ، لينتهوا إلى القولِ بمحدوديّةِ نحوِ الجملة، وشموليّةِ نحوِ النصِّ، وكان هذا ناتجاً عن تضافرِ جهودٍ لغويّةٍ عديدةٍ، وغيرِ لغويّةٍ، انبعثَ منها إرهاباتُ درسِ نحوِ النصِّ على يدِ (هاريس) في بدايةِ النصفِ الثاني من القرنِ الماضي، ثم طوّرَ (فان ديك) تلكمَ الإرهاباتِ في السبعيناتِ، إلى أن ترسخت، من بعدُ، ملامحُ هذا الدرسِ على يدِ (روبرت دي بوجراند)¹، ولم يكُ هذا الانتقالُ من نحوِ الجملة إلى نحوِ النصِّ سريعاً أو يسيراً، بل تخلّقَ سيرُهُ عبرَ ممارساتٍ لغويّةٍ عديدةٍ، متمثلةٍ في دراساتٍ وصفيةٍ، تتوسلُ بمؤثراتِ الدرسِ اللسانيِّ الحديثِ، ورغمَ أن ما نتجَ عنها موصولٌ باستدلالاتٍ علميّةٍ، إلا أنّ هناكَ اختلافاً في مصطلحيهِ، فقد تُرجمَ هذا العلمُ إلى علمِ النصِّ، ونحوِ النصِّ، ولسانياتِ النصِّ، وعلمِ اللغةِ النصّيِّ، وذهبَ (دي بوجراند) إلى أنّه: "حدثُ اتصاليُّ تتحقّقُ نصيُّهُ إذا اجتمعتْ له معاييرُ سبعةٌ، هي: السبْكُ والحبْكُ والقصديّةُ والمقبوليّةُ والإخباريّةُ والموقفيّةُ والتناصُّ"²، ولا يوصفُ النصُّ بالنصيّةِ أو التماسكِ إلا بمقدارِ تضافرِ هذهِ المعاييرِ بينَ عناصرِ النصِّ الظاهرةِ والباطنةِ، وقد تركّزَ عندهُ على الجانبِ الإجرائيِّ والاتصاليِّ بالكشفِ عن جوانبِ الترابطِ الرصفيِّ (النحويِّ)، والترابطِ المفهوميِّ (المعنويِّ)، والجانبِ التداوليِّ، غيرَ أنّ هذهِ الجوانبَ غيرُ كافيةٍ، بل لا بدَّ من تفعيلها في المواقفِ الاتصاليّةِ المختلفةِ³.

ورأى (عفيفي) "أنَّ مصطلحَ علمِ النصِّ واحدٌ من المصطلحاتِ التي حدّدتْ لنفسِها هدفاً واحداً، هو الوصفُ والدراسةُ اللغويّةُ للبنى النصّيّةِ، وتحليلُ المظاهرِ المتنوعةِ لأشكالِ التواصلِ

¹ ينظر: عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط1، دار العلوم، مكتبة الزهراء، القاهرة، 2001، ص 11.
² ينظر: بوجراند، ودريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، ط1، ترجمة: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص 11-12. وينظر: بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط11، مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، 1997، ص 146.

³ ينظر: الزهرة، يعقوب، نحو النص بين النظرية والإجراء، ص 227.

النصي¹، وذهب (محمد الصبيحي) إلى أن نحو النص بمفهومه القريب عملية انتقال من الاهتمام بالجملة إلى إطار أوسع وأشمل وهو النص، وضمن هذه الدراسة الجديدة ستواجه اللسانيات قضايا وأبعادًا جديدة، إلا أن هذا كله لن ينتهيها عن الاهتمام بدراسة الجملة، بل الواقع عكس ذلك، إذ درست من منطلقات جديدة².

لقد تقرر أن التحول الطارئ في علم اللسانيات الذي اعتنى بمعايير الربط النصية هو المنطلق الذي يجعل النص نصًا، فقد انبعت عن الدراسات اللسانية أبحاث عديدة، تدرس كل ما يتعلق بأدوات الربط التي تحقق تماسك النص بنيويًا، ذلك التماسك القائم على "مجموعة العلاقات أو الأدوات الشكلية والمعنوية، التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية والنص من ناحية، والبيئة المحيطة من ناحية أخرى"³، وبمفهوم أوسع، هو: "مجموعة من العلاقات اللفظية أو الدلالية بين أجزاء النص، إذ تلتمح هذه الأجزاء، ويتماسك بعضها مع بعض، فإذا غاب هذا الالتحام، ظهر النص كأنه أشلاء ممزقة لا رابط بينها، وللتماسك أهمية كبرى في العمل الأدبي، بل في عمليات الاتصال اللغوية كلها"⁴.

ومن البدهي أن علم النص يراعي في وصفه وتحليلاته عناصر أخرى لم يُنظر إليها من قبل، ويلجأ في تفسيراته إلى قواعد معنوية ومنطقية إلى جوار القواعد التركيبية، ويحاول أن يقدم سياقات كلية دقيقة للأبنية النصية، مع قواعد ترابطها، وبعبارة موجزة، حدّد علم النص مهام معيّنة، لا يمكن أن ينجزها الدرس اللغوي بدقة إذا التزم حدّ الجملة⁵.

وإذا كان هذا المضمارة يُعنى بوصف النصوص وصفًا مستندًا إلى موجّهات الدرس اللساني، فإن من أبرز مهماته إحصاء الأدوات والروابط التي تسهم في التحليل عن طريق إبراز دور تلك الأدوات

¹ عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط1، ص31.

² ينظر: الصبيحي، محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2008، ص79.

³ ينظر: الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكية، ج1، ص96.

⁴ استيتية، سمير، منازل الرؤية (منهج تكاملي في قراءة النص)، ط(1)، دار وائل، عمان، 2002، ص20.

⁵ ينظر: بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط1، دار تويار، القاهرة، 1997، ص134-135.

والروابط في تحقيق التماسك النصي، بالنظر في السياق وأنظمة التواصل المختلفة، غير أن لسانيات النص تتخذ النحو والصرف والأصوات والبلاغة والنقد منطلقاً أساسياً لها، إضافة إلى علوم أخرى كعلم الاجتماع، وعلم النفس اللغوي، وعلم النفس الاجتماعي، والفلسفة، والمنطق.

وانطلاقاً من هذا وذلك يمكن القول: إن نحو النص اعتنى بالمستويات المهمة في نحو الجملة بفحص العلاقات المتشابهة ابتداءً من الجملة، وانتهاءً بالنص بوصفه خطاباً لغوياً بين مرسلٍ ومستقبلٍ.

1.2.2 معايير نحو النص

رتب (دي بوجراند) معايير نحو النص السبعة، فجعل المعيار الأول هو السبك الذي يُعنى بكيفية ربط مكونات النص السطحية، أي الربط التركيبي، والثاني هو الحبك الذي يُعنى بالوظائف التي تتشكل بها مكونات عالم النص، أي الربط المعنوي، أما المعيار الأخرى، فالقصدية ترتبط بالهدف من النص، والمقبولية بموقف المتلقي من المنطوقات اللغوية، والإخبارية ترتبط بتحديد نوع المعلومة في النص، متوقعة أو غير متوقعة، والموقفية ترتبط بمناسبة النص للموقف، والتناص يرتبط بعلاقة النص بنصوص أخرى، أو تداخله معها¹.

ثم قسم اللسانيون هذه المعايير السبعة إلى أقسام ثلاثة:

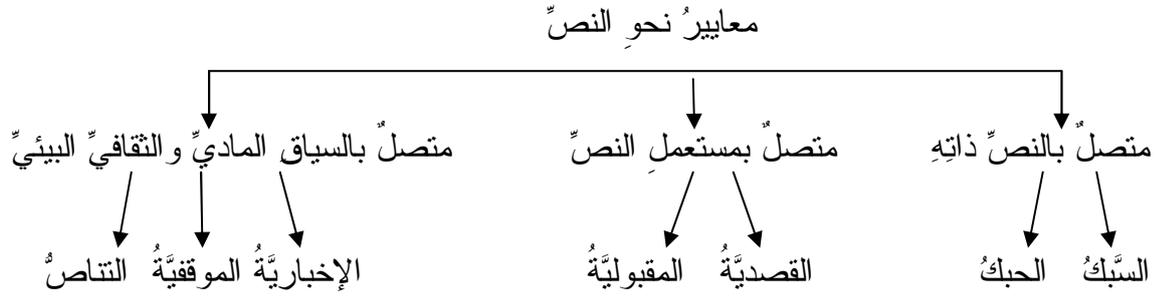
- 1- ما يتصل بالنص ذاته، وهما معيارا السبك والحبك.
- 2- ما يتصل بمستعمل النص، سواء أكان منتجاً أم متلقياً، وهما معيارا القصدية والمقبولية.
- 3- ما يتصل بالسياق المادي والثقافي البيئي المحيط بالنص، وهي معيارا الإخبارية والموقفية والتناص².

¹ ينظر: بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص 169.

² ينظر: نفسه، ص 169.

شكل (1)

أقسام المعايير السبعة



2.2 معيار السبك

ورد مصطلح السبك في غير موضع في مصنفات القدماء، في سياق الحديث عن نظم الكلام وترابط أجزائه، وقد وقف عدد من المحدثين على ذلك¹، كقول العسكري: "وقد يجوز مع هذا أن يُسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك"²، كما أقرّ باباً في البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك³، وقال الزمخشري: "ومن المجاز: هذا كلام لا يثبت على السبك، وهو سبائك للكلام"⁴، وكذلك قال الأمدى في شعر البحرني: "صحيح السبك، حسن الديباجة، وليس فيه سفاسف ولا ردي ولا مطروح، ولهذا صار مستويًا يشبه بعضه بعضاً"⁵، ومثل ذلك أيضاً قول ابن الأثير: "وأما

¹ ينظر: إمبيّة، عبد الوهاب خلف الله، ثنائية السبك والحبك في اللغة والأدب، ليبيا، مجلة جامعة سبها (العلوم الإنسانية) المجلد الثامن، العدد الأول، 2009، ص50 وينظر: الثوابية، هيثم حماد، السبك النصي في سورة الملك، المجلة الأدبية جامعة عين شمس، العدد الثاني، مجلد 18، 2012، ص4. وينظر: أبو شريف، علي سلامة عبد الحليم، وسائل السبك النصي في التراث اللغوي والدرس اللساني المعاصر، القاهرة، مجلة كلية دار العلوم، 2016، ص132. وينظر: بلا، يمينة وفاطمة عقباوي، السبك النصي في كتاب المثل السائر، الجزائر، جامعة أدرار، كلية الآداب واللغات، 2018، ص32. وينظر: قواوة، الطيب العزالي، الانسجام النصي وأدواته، الجزائر، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خضير، العدد الثامن، 2012، ص62.

² العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين الكتابية والشعر، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العنصرية، 1419 هـ، ص8..

³ ينظر: نفسه، ص161.

⁴ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، أساس البلاغة، ط1، ج1، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، ص435.

⁵ الأمدى، أبو القاسم الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، ج1، ط4، تحقيق: السيد أحمد صقر، لبنان، دار المعارف، د.ت، ص3.

أبو عبادة البحتريُّ، فإنَّه أحسنُ في سبكِ اللفظِ على المعنى¹، وحدَّ أبو الإصبعِ المصريُّ الانسجامَ قائلاً: "وهو أن يأتيَ الكلامُ متحدراً كتحدُّرِ الماءِ المنسجمِ، سهولةً سبكِ وعذوبةً ألفاظٍ"²، وكذلك قولُ الصبانِ: "فينبغي عندَ السبكِ أن يُضَافَ المصدرُ إلى هذا الضميرِ، كما تقولُ في (أعجبي ما صنعتَ) المعنى: أعجبي صنعك"³.

وبالرغم من تخلُّق مصطلحِ السبكِ قديماً في سياقِ درسِ لغويٍّ موصولٍ بأصولِ العربيَّةِ، إلا أنَّه لم يحملُ في طياته دلالةَ المصطلحِ الحديثةِ، الذي تضمَّنَ مستوياتٍ إجرائيةً عدةً، كالإحالةِ والاستبدالِ والحذفِ والوصلِ وغيرها، والسبُّكُ بمفهوميهِ الحديثِ "مصطلحٌ يدلُّ على تعلقِ كلماتِ النصِّ بعضها ببعضٍ، من أولِهِ إلى آخرِهِ، أي: المكوناتِ التي تجعلُ النصَّ كلًّا موحدًا متماسكًا دالًّا، لا محضَ سلسلةٍ من الكلماتِ والجملِ غيرِ المترابطة"⁴، ورأى (دي بوجراند) أنه "يترتَّبُ على إجراءاتِ تبدو بها العناصرُ السطحيَّةُ على صورةٍ وقائعٍ، يؤدي السابقُ منها إلى اللاحقِ، بحيثُ يتحقَّقُ هذا الترابطُ الرصفيُّ، وبحيثُ يمكنُ استعادةُ هذا الترابطِ، ووسائلُ التضمُّنِ تشتملُ على هيئَةٍ نحويةٍ للمركباتِ، والتراكيبِ والجملِ، وعلى أمورٍ مثلِ التكرارِ والألفاظِ الكنائيَّةِ والأدواتِ والإحالةِ المشتركةِ والحذفِ والروابطِ"⁵، وكذلك حدَّه (تمام حسان) بقوله: "السبُّكُ إحكامُ علاقاتِ الأجزاءِ، ووسيلةٌ ذلكَ إحسانُ استعمالِ المناسبةِ المعجميَّةِ من جهةٍ، وقرينةِ الربطِ النحويِّ من جهةٍ أخرى، واستصحابِ الرتبِ النحويَّةِ، إلا حينَ تدعو دواعي الاختيارِ الأسلوبيِّ، ورعايةِ الاختصاصِ، والافتقارِ في تركيبِ جمليٍّ"⁶.

¹ ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1420هـ، ص348.

² ابن أبي الإصبعِ العدواني، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، مصر، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ت، ص429.

³ الصبان، أبو العرفان محمد بن علي الشافعي، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ط1، ج3، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، ص73.

⁴ العبد، محمد، حبك النص، مجلة فصول، العدد 59، ربيع 2002م، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص54.

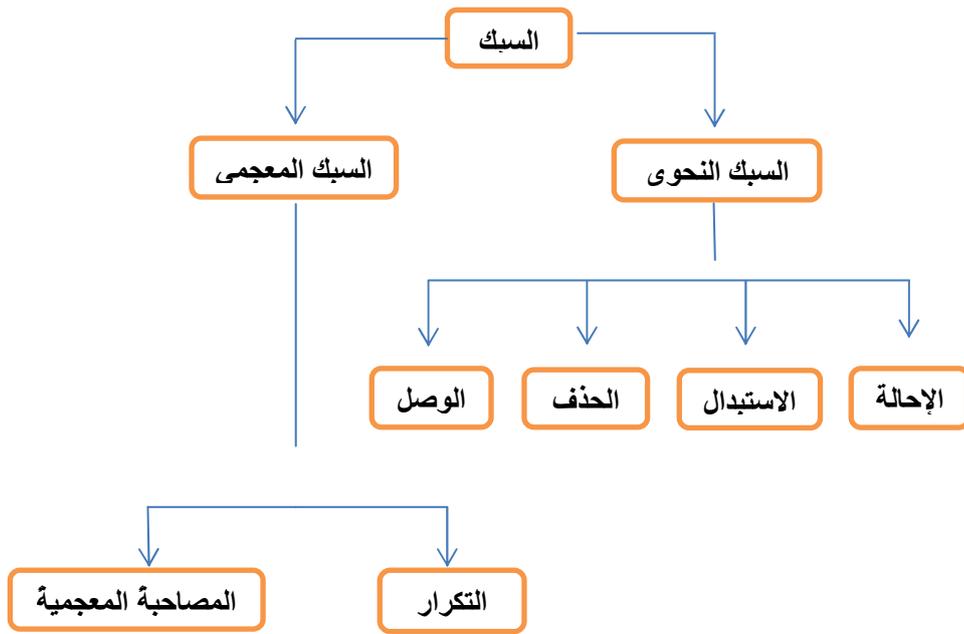
⁵ دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ط1، ترجمة حسان تمام، القاهرة، دار عالم الكتب، 1998، ص103.

⁶ حسان، تمام، مقالات في اللغة والأدب، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2006، ص256.

و"هو المعيارُ الذي يهتمُّ بظاهرةِ النصِّ، ودراسةِ الوسائلِ التي تتحقَّقُ بها خاصيَّةُ الاستمرارِ اللفظيِّ"¹، بالكشفِ عن العلاقاتِ القائمةِ بين أجزاءِ النصِّ مستخدماً عناصرَ اللغةِ، وآلياتها المختلفةَ، كالضمائرِ، وأسماءِ الإشارةِ، وأدواتِ التعريفِ، والأسماءِ الموصولةِ، وأدواتِ العطفِ، والمناسبةِ المعجميَّةِ، وغيرها ممَّا يكوِّنُ في مجموعِهِ ملمحَ التماسكِ النصِّيِّ، وتنقسمُ تلكم الوسائلُ السبكيَّةُ إلى قسمينِ: وسائلَ نحويَّةِ، تشملُ: الإحالةَ والاستبدالَ، والحذفَ والوصلَ، ووسائلَ معجميَّةِ، وتشملُ: التكرارَ والمصاحبةَ المعجميَّةَ (التضامَّ).

شكل (2)

أقسام السبك



1.2.3 معيارُ السبكِ ووسائلُهُ النحويَّةُ

1.2.3.1 الإحالةُ

للإحالةِ أثرٌ في الكشفِ عن مدى تماسكِ النصِّ واتساقِهِ، كما سيأتي بيانهُ، وليسَ لها إطارٌ إلا النصُّ، وقد تعددتُ ترجمتها، ويمكنُ إيضاحُها بأنَّها العلاقةُ المعنويَّةُ القائمةُ بين عناصرِ النصِّ، بوساطةِ ألفاظِ

¹ عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط1، ص 90.

مخصوصة، وروابط معلومة كالضمائر، وأسماء الإشارة، والموصولة¹؛ لتربط كل عنصرٍ بآخرٍ في داخل النصِّ أو خارجِهِ، محكومةً بحالِ السِّياقِ أو المقامِ²، وقد كثرَ الكلامُ في مصنفاتِ القدماءِ عن هذه الروابطِ بصورةٍ مستقلةٍ³.

أمَّا أنواعها من حيثُ المرجعُ، فخارجيَّةٌ (مقاميَّةٌ)، وداخليةٌ (نصيَّةٌ)، ومن حيثُ الجهةُ، فقَبليَّةٌ وبعديَّةٌ⁴، وسواءٌ أكانتُ قريبةً أم بعيدةً في داخلِ البناءِ النصِّيِّ، فإنها تحققُ الربطَ بينَ أجزاءِ النصِّ، وتقرنُ بينَ التَّرابِطِ الوصفيِّ والتَّرابِطِ المفهوميِّ، أي بينَ ما هوَ لفظيٌّ وما هوَ معنويٌّ، فتصنعُ تماسكًا دلاليًّا ملحوظًا، وتحفِّزُ المتلقيَّ، وتنبِّهُهُ للعلاقاتِ المعنويَّةِ، وتُعملُ ذهنهً بينَ السَّابِقِ واللاحقِ منها⁵.

ويمكنُ إجمالُ الأغراضِ التي تسعى الإحالةُ لتحقيقها بالتَّلاحمِ النصِّيِّ (السَّباكِ)، والتَّماسكِ النصِّيِّ (الحبكِ)، والتَّشكيلِ النصِّيِّ (الوحدةِ الكليَّةِ)، والانسجامِ النصِّيِّ (التواؤمِ)، والنصيَّةِ بشكلٍ عامٍّ⁶، ما يعني أنَّ لها أثرًا كبيرًا في إخراجِ النصِّ على أفضلِ هيئَةٍ، من حيثُ التَّرابِطِ والتَّماسكِ، وجعلهً جسدًا موحدًا؛ ليؤدِّيَ وظيفتَهُ في الإفهامِ، وإيصالِ الرسالةِ للمتلقيِّ كما يجبُ، أي أنَّ الإحالةَ تقومُ بوظيفةٍ جماليَّةِ ودلاليَّةِ وإفهاميَّةِ، وتتحقِّقُ هذهَ الوظيفةَ من خلالِ ما تمنحُه عمليَّةُ الإحالةِ من اقتصادٍ في الكلامِ، وتجنبِ للتكرارِ، إذ تختصرُ الوحداتُ الإحاليَّةُ العناصرَ الإشاريَّةَ، وتجنبُ المتكلمَ إعادتها في النصِّ.

1.2.3.2 الاستبدالُ

ربطَ (عرفة عبد المقصود) بينَ الأصالةِ والمعاصرةِ، فوقفَ على ظاهرةِ الاستبدالِ عندَ القدماءِ، الذين أشاروا إلى القدرةِ الاستبداليَّةِ للعناصرِ اللغويَّةِ، مستعملينَ مصطلحاتٍ رديفةً، كالحذفِ والتعويضِ والبدلِ

¹ ينظر: عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، ص22، 23، 27.

² ينظر: دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ص172.

³ ينظر: بقرني، نورة، الإحالة في الدراسات العربية القديمة، الجزائر، جامعة غليزان، المركز الجامعي، مخبر اللغة والتواصل، مجلة (لغة-كلام)، المجلد 7، العدد 3، 2021، ص94-99.

⁴ ينظر: عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، القاهرة، دار العلوم، دت، ص41-47.

⁵ ينظر: نفسه، ص9.

⁶ ينظر: بحيري، سعيد، دراسات تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، (دت)، ص91.

والإبدال والنيابة والمعاقبة¹، وذلك لأنَّ دأبهم إطلاقُ غير لفظٍ على الظاهرة الواحدة، إلا أنَّ ثمَّ فارقاً بين كلامِ القدماءِ والنصيينِ المحدثينَ على الاستبدالِ، فقد جاءَ لدى القدماءِ في سياقِ قدرةِ اللغةِ على استبدالِ عنصرٍ بآخر، وتناثرَ في دروسٍ مختلفةٍ، كالتقديرِ وتناوبِ الحروفِ والحذفِ والتعويضِ والتوابعِ وغيرها، في حينِ عدَّةِ النصيونَ المحدثونَ أداةً من أدواتِ تحقيقِ الاتساقِ النَّصيِّ.

يرى النصيونَ أنَّ الاستبدالَ مرادفُ التعويضِ، ويقعُ بإحلالِ عنصرٍ في موضعٍ آخر، لعلاقةٍ بينهما²، وتقومُ ظاهرةُ الاستبدالِ، عندهم، على إنشاءِ علاقةٍ بينِ عنصرَيِ المستبدلِ والمستبدلِ به، فيتحققُ اتساقُ النصِّ واستمراريتُهُ بإحلالِ العنصرِ المستبدلِ في موضعِ العنصرِ المستبدلِ به، بصورةٍ ما في النصِّ، أي أنَّ الاتساقَ النَّصيَّ يتخلَّقُ بربطِ عنصرٍ استبداليٍّ بآخر، سواءً أكانَ اسماً أم فعلاً أم جملةً³، بالحفاظِ على دلالةِ العنصرِ السابقِ؛ لتحقيقِ قيمةٍ اتساقيةٍ⁴، ويجمعُ هذه العلاقةَ السياقُ التركيبيُّ نفسه، إمَّا باتِّحادِ الوظيفةِ، وإمَّا باتِّحادِ الموقعِ والوظيفةِ معاً؛ إذ يحتلُّ العنصرُ المستبدلُ موقعَ المستبدلِ منه، ويكتسبُ بعضَ ملامحهِ وسماته⁵، وهو ما يُعرَفُ في النحوِّ بالتضمينِ⁶، وبذلك يُختصرُ الكلامُ، ويُستغنى عن ذكرِ ما سبق، وهذا ما يجعلُ الألفاظَ والعباراتِ مترابطةً بعلاقاتٍ نحويَّةٍ ومعجميَّةٍ، قادرةً على تحقيقِ الاتساقِ في داخلِ النصِّ، أمَّا أنواعُه، فقد قسَّم (هاليداي ورقية حسن) الاستبدالَ إلى استبدالِ اسميٍّ، واستبدالِ فعليٍّ، واستبدالِ قوليٍّ⁷.

¹ ينظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، ط3، ج3، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1988، ص329، ص362. وينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط3، ج1، ص146. وينظر: عامر، عرفة عبد المقصود، ظاهرة الاستبدال في نحو الجملة ونحو النص، الإمارات، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، المجلد/ العدد 44، 2012، ص11.

² ينظر: بوقرة، نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ط1، الأردن، جدار للكتاب العالمي، 2015، ص89. وينظر: دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ص300. وينظر: النجار، نادية، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، مجلة علوم اللغة، المجلد التاسع، العدد الثاني، 2006، ص19.

³ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 1991، ص20-21. وينظر: النجار، نادية، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص19.

⁴ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، ص20-21. وينظر: دي سوسير، فردىناند، علم اللغة العام، ط1، ترجمة: يوثيل يوسف عزيز، بغداد، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، 1985، ص27.

⁵ أبو زينيد، عثمان، نحو النص (إطار نظري ودراسات تطبيقية)، ط1، الأردن، عالم الكتاب، 2010، ص123.

⁶ ينظر: حسن، عباس، النحو الوافي، ط15، ج2، مصر، دار المعارف، دت، ص169-170.

⁷ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، ص20.

1.2.3.3 الحذف

تعدُّ ظاهرة الحذف من الخصائص التي تشترك فيها سائر اللغات الإنسانية، حيثُ يميلُ الناطقون إلى حذف العناصر اللغوية المتكررة، ممَّا يفهمه السامع اعتمادًا على القرائن المصاحبة، سواءً أكانت مقاليةً أم مقاميةً تُفهم بسياق الحال¹، وقد ربطَ (طاهر حمودة) كلامَ اللسانيين على الحذف بأنظارِ القدماء، فليس كلامهم عليه مبتدعًا أو مستحدثًا، بل تبدو عنايتهم به موصولةً بعنايةِ القدماء، الذين اشترطوا له شرائطَ، منها أن يدلَّ على المحذوف دليلٌ مقاليٌّ أو مقاميٌّ، فالعربُ لا تحذفُ الجملةَ والمفردَ والحرفَ والحركةَ إلا عن دليلٍ دالٍّ على ذلك المحذوف، ولولاهُ لكانت معرفتُهُ من رجم الغيب²، ولا يخفى أنَّ السامعَ يستغني بهذا الدليلِ عن ذكرِ المحذوفِ، فيكونُ المحذوفُ معدومًا لفظًا، معلومًا عقلاً³، ومن شرائطهم أيضًا أمنُ اللبسِ؛ كي لا تختلطَ المعاني، ويلتبسَ الفهمُ، وقد عقدَ المبردُ بابًا أسماه: "باب ما يُحذفُ استخفافًا؛ لأنَّ اللبسَ فيه مأمون"⁴، وذكرُوا غيرَ هذه الشرائط⁵.

أمَّا اللسانيون المحدثون، فرأوا الحذفَ من أدواتِ الترابطِ النصِّيِّ في نحوِ الجملةِ، وحذفَ بعضِ الجملِ يربطُ بينَ أجزاءِ النصِّ، ببدايلَ لغويةٍ تُغني عن العنصرِ المحذوفِ، فتكونُ تلكم البدائلُ مغنيةً في الدلالةِ، كافيةً في أداءِ المعنى، ويمكنُ حدُّه بأنَّه الاستغناء عن العناصرِ السطحيَّةِ التي تكونُ حاضرةً في الذهنِ، أو دلَّتْ عليها عناصرُ مذكورة⁶، فيستطيعُ المتلقي أن يدركه ويقدره بإمعانِ نظره في بنيةِ النصِّ العميقة،

¹ ينظر: حمودة، طاهر سليمان، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ط1، مصر، الدار الجامعية، 1998، ص4.

² ينظر: ابن جني، الخصائص، ج2، تحقيق: محمد علي النجار، مصر، المكتبة العلمية، دت، ص360. وينظر: حمودة، طاهر سليمان، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ط1، مصر، الدار الجامعية، 1998، ص19-27.

³ ينظر: ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار التراث - دار مصر للطباعة، 1980، ص243.

⁴ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، ج1، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، بيروت، عالم الكتب، دت، ص248.

⁵ ينظر: ابن هشام، معني اللبيب عن كتب الأعراب، ط6، ص786-1030.

⁶ ينظر: حماسة، محمد، بناء الجملة العربية، ط1، القاهرة، دار الشروق، 1996، ص208. وينظر: دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ص99، ص34-35. ينظر: عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط1، ص125-126.

وغالبًا ما يكونُ ذِكرُ المحذوفِ حشوًا، لا فائدةَ منه، بل عدمُ ذِكرِهِ لا يُحدِثُ خللاً في بنيةِ النصِّ، وهوَ عندهم نوعٌ من أنواعِ الاستبدالِ، ولكنَّهُ استبدالٌ يساوي صفرًا¹.

وإعمالُ الحذفِ للسببِ النصِّيِّ واقعٌ باعتمادهِ على عنصرٍ لغويٍّ سابقٍ، إذ يتركُ المحذوفُ فراغًا لغويًّا على مستوى البنيةِ التركيبيةِ²، ليملأها المتلقي ذهنياً، بإشاراتٍ من العناصرِ اللغويةِ السابقة، ويرى (فاسولد ولينتون) الحذفَ تغييراً دلاليًّا، إذ إنَّ العنصرَ المحذوفَ يوجبُ النظرَ في الكلامِ السابقِ؛ بغيةَ إدراكِهِ، فهوَ مرتبطٌ ارتباطاً معنوياً ببنيةِ النصِّ³، أي أنَّ بينةِ النصِّ السطحيةِ عندَ اللسانيينَ غيرُ مكتملةٍ، ولا تكتملُ إلا في ذهنِ المتلقي، الذي يقومُ بملءِ الفراغاتِ الواقعةِ في النصِّ، وهذا ما يجعلُ المتلقيَ أكثرَ إيجابيةً تجاهَ النصِّ، وتفاعلاً معه، ومن جهةٍ أخرى، فإنَّهُ يكشفُ عن علاقةٍ اتساقيةٍ بينَ المستويينِ النَّحويِّ والدلاليِّ، تربطُها مجموعةٌ من القرائنِ المقاليَّةِ والمقاميةِ، وبذلكَ تكونُ تلكمِ العناصرُ اللغويةُ المحذوفةُ، سواءً أكانتُ داخليةً أم خارجيةً، قد ربطتُ أجزاءَ الكلامِ بعضها ببعضِ، وأفضى ذلكَ إلى استمراريةِ النصِّ وتماسكِه.

وقسمَ اللسانيونَ الحذفَ إلى حذفِ اسميٍّ وفعلِيٍّ وحذفِ شبهِ جملةٍ⁴، وينضافُ إلى هذا حذفُ الجملةِ والحرفِ⁵، وبصرفِ النظرِ عن أقسامِهِ، فإنَّ أحوالَهُ تكونُ منسجمةً معَ السِّياقِ النصِّيِّ، والموقفِ الكلاميِّ، بقصدِ الاختصارِ والإيجازِ، والابتعادِ عن تكرارِ الجملِ، وهذا من شأنِهِ أنْ يعززَ قضيةَ السببِ والاتساقِ في بنيةِ النصِّ بعامةٍ⁶.

¹ ينظر: الصبيحي، محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص93. ينظر: عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط1، ص125-126.

² ينظر: دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ص342.

³ ينظر: مصدق، محمد أمين، حذف الفعل ودوره في تحقيق التماسك النصي، الجزائر، جامعة محمد خضير، كلية الآداب واللغات، مخبر اللسانيات واللغة العربية، 2018، ص415.

⁴ ينظر: عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط1، ص127.

⁵ ينظر: ابن جني، الخصائص، ط4، ج2، ص383. وينظر: حسن، عباس، النحو الوافي، ط15، ج1، ص40.

⁶ ينظر: ابن جني، الخصائص، ط4، ج2، ص509.

1.2.3.4 الوصلُ

حاول غيرُ واحدٍ من المحدثين ربطَ ظاهرةِ الوصلِ في الدرسِ اللسانيِّ بكلامِ القدماءِ، فرأى (عشري محمد) أنَّ درسَ القدماءِ للوصلِ مرتبطٌ بالعلاقاتِ الدلاليةِ بينَ معانيِ الجملِ، ومعرفةِ مناسباتِها، وصلاتها التي تُكوِّنُ نسيجَ الكلامِ، ولمَلِّمَ مقولاتهمِ الدالَّةَ على ذلك، وأردفها بأنظارِ اللسانيينَ المحدثينَ، إشارةً إلى توافقِ المضامينِ بينهم¹.

وبصرفِ النظرِ عن تباينِ مصطلحاتهمِ، فإنَّ للوصلِ عندَ القدماءِ وظيفةً تركيبيةً، ودورًا في ترابطِ الكلامِ، واتِّصالِه، وقد تركَّزَ على العطفِ بالواوِ كما أشارَ سيويوه²، ولم يزلْ النحاةُ يروْنَ الوصلَ عطفَ بعضِ الجملِ على بعضٍ³ لعلاقةِ بينهما في المعنى، وهذا يبيِّنُ أنَّ الوصلَ عندهمِ ربطُ جملةٍ بأخرى بالعطفِ خاصةً، ويقومُ على أساسِ نحويٍّ، يمثِّلهُ بابُ العطفِ، هذا، وإذا كانَ البلاغيونَ يتفقونَ معَ النحاةِ في مفهومِ الوصلِ⁴، إلا أنَّ عنايتهمُ بهِ أظهرُ منَ عنايةِ النحاةِ، فقد خَرَجَ البلاغيونَ بحروفِ العطفِ عنَ وظيفتهاِ النحويَّةِ، إلى النظرِ في قدرتها على الربطِ بينَ الجملِ والمفرداتِ⁵، وقد تجلَّتْ عنايتهمُ بالوصلِ في إفرادهمِ أبوابًا خاصةً، عنوانها (الفصلُ والوصلُ)⁶.

¹ ينظر: محمد، عشري محمد علي، الفصل والوصل: دراسة لسانية نصية، السعودية، مجلة جامعة الطائف (الآداب والتربية)، العدد التاسع، المجلد الثاني، 2013، ص 413-417.

² سيويوه، الكتاب، ط3، ج1، ص399.

³ ينظر: المرشد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، ط2، ج3، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي وزارة الأوقاف، 1994. ص279.

⁴ ينظر: الفزويني، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، ط3، ج3، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الجيل، د.ت، ص97. وينظر: نور، حسن هادي، الفصل والوصل في خطب نهج البلاغة، العراق، مجلة الآداب جامعة بغداد، المجلد/العدد 101، 2012، ص227.

⁵ ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط3، ج1، ص222. وينظر: السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، ط2، ج1، لبنان، دار الكتب العلمية، 1987، ص249. وينظر: عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1984، ص211.

⁶ ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط3، ج1، ص222. وينظر: الحسيني، يحيى بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط1، ج2، بيروت، المكتبة العنصرية، 1423هـ، ص20.

أما اللسانيون المحدثون، فقد نظروا إلى الطريقة التي يرتبط بها الكلام السابق باللاحق بصورة منظمة¹، فأروا أن الوصل مرتبط بجوهر صياغة الجملة²، وفق متتاليات متعاقبة تتصل ببعضها بأدوات مخصوصة³، ورأى آخرون أن الوصل يتميز عن سائر وسائل التماسك النصي؛ لكونه عملية ربط مباشرة وواضحة⁴، وقد عرّض (هاليداي ورقية حسن) تصنيفاً لأدوات الترابط النصي التي يمكن أن تحقق وصل الكلام في بنية النص، وهي:

1. العطف بالواو، وأو، وبالإضافة إلى ذلك، وكذلك، وإضافة.
2. المقابلة: لكن، إلا أن، من جهة أخرى، ومع ذلك.
3. السببية: هكذا، وكنيجة لذلك، لهذا السبب، ويترتب على هذا.
4. زمانية: ثم، بعد ذلك، بعد ساعة، أخيراً، في آخر المطاف⁵، واستعمال هذه الروابط منوطاً بالضرورة، بالسياقات النصية، والعلاقات التركيبية بين وحدات النص؛ لكي يتحقق بها انسجامه، وتماسك بنيته.

ذهب اللسانيون إلى أن للوصل أقساماً أربعة: هي الوصل الإضافي والعكسي والسببي والزمني⁶، والوصل بالنعته، وقد ذهب بعض اللسانيين إلى أن النعت من الروابط المعنوية؛ ذلك أن سيبويه عدّ النعت من الروابط اللغوية، بقوله: "فأما النعت الذي جرى على المنعوت، فقولك: مررت برجل ظريف قبل، فصار النعت مجروراً، مثل المنعوت؛ لأنهما كالاسم الواحد"⁷، فدل كلامه على أن النعت موصول

¹ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص23.

² ينظر: جومسكي، نوم، البنى النحوية، ط1، ترجمة: يوثيل يوسف عزيز، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987، ص52.

³ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص23.

⁴ ينظر: الصبيحي، محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص94-95.

⁵ ينظر: راون، ج.ب براون وج. يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي، السعودية، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، 1997، ص229.

⁶ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص23، 24.

⁷ سيبويه، الكتاب، ط3، ج1، ص421.

بالمنعوتِ منْ جهةِ الإعرابِ والمعنى، ويقومُ الوصلُ بينَ النعتِ والمنعوتِ على علاقةٍ معنويّةٍ تجمعُ بينهما، مفتقرةً إلى رابطٍ لفظيٍّ.

1.2.4 معيارُ السَّبكِ ووسائلُهُ المعجميّةُ

ينبغي لدرسِ السَّبكِ في علمِ اللسانياتِ أنْ يسيرَ في مسلكينِ متوازيينِ، كانَ الأولُ منهما السَّبكِ النحويُّ، وقد سبقَ بيانهُ مفصلاً، أمّا الثاني فهوَ السَّبكِ المعجميُّ، وهوَ من أبرزِ الروابطِ اللغويّةِ التي يتحقّقُ بها وصفُ نصيّةِ النصِّ، فإذا كانَ السَّبكِ النحويُّ مرتبطاً بالتتابعِ الخطيِّ الأفقيِّ داخلَ الجُمْلِ على امتدادِ النصِّ¹، فإنَّ السَّبكِ المعجميَّ له أثرٌ واضحٌ في تماسكِ النصِّ في الاتجاهِ الرأسيِّ (المعنويِّ)، حينما يسهمُ في إنشاءِ علاقاتٍ تجاورٍ، أو اقترانٍ بينَ المفرداتِ المعجميّةِ، فيتفاعلُ كلُّ عنصرٍ معجميٍّ مع عنصرٍ آخرَ، ساعةَ افتقارهِ إليه، بإحالةٍ أحدهما إلى الآخرِ بصورةٍ منتظمةٍ؛ لتستمرَّ هذه المتتالياتُ، محققةً وصفَ النصيّةِ.

وعلى الرغمِ من أنَّ السَّبكِ المعجميَّ "مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ الاتّساقِ النصّيِّ، إلا أنَّه مختلفٌ عنها جميعاً، فلا يُمكنُ الحديثُ في هذا المظهرِ عنَ العنصرِ المفترضِ، كما هوَ الأمرُ سابقاً، ولا عنَ وسيلةٍ شكليةٍ نحويّةٍ؛ للربطِ بينَ عناصرٍ في النصِّ"²، وإنّما يهتمُّ بالعلاقةِ التي تجمعُ بينَ كلمتينِ أو أكثرَ داخلَ المتتابعاتِ النصيّةِ، وهذه العلاقةُ معجميّةٌ خالصةٌ، لا تحتاجُ إلى عنصرٍ نحويٍّ يُظهره³، وتقدّمُ تلكمُ العناصرُ على نحوٍ متكررٍ دلالاتٍ معجميّةٍ تتصلُّ بتفسيرِ كلِّ منها للآخرِ، وفقَ سياقٍ معنويٍّ متّصلٍ، وهذا يسهمُ بدوره في الفهمِ المتواصلِ للنصِّ عندَ سماعه أو قراءته⁴، ويتحقّقُ هذا السَّبكِ المعجميُّ بوسيلتينِ، هما: التكرارُ، والمصاحبةُ المعجميّةُ (التضامُ).

¹ ينظر: الغانمي، فهد بن درهم، النصّ القضائي القيم والمعايير النصيّة، الأردن، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2019، ص 173.

² خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص 24.

³ فرج، حسام أحمد، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2007، ص 106.

⁴ ينظر: عبد القوي، غادة محمد، من آليات السبك والحبك في الحكاية الخرافية الفارسية، مصر، جامعة القاهرة، مجلة رسالة المشرق

- مركز الدراسات الشرقية، العدد 1، 2، المجلد 32، 2017، ص 222.

1.2.4.1 التكرار

قدّم (باقر فرج) مقابلاتٍ ومقارباتٍ بين مفهوم التكرار في الدرس اللساني، وكلام القدماء عليه، فرأى أنه عند القدماء مرتبطٌ بالتوكيد اللفظي، سواءً أكانوا نحويين أم بلاغيين، وأوردَ مقولاتهم في ذلك¹، كسيبويه الذي ذكّر التكرار في سياق التوكيد²، وابن هشام الذي أوردَه في روابط الجملة بما هي خبرٌ عنه³، أمّا الجرجاني، فحدّده بأنّه: "الإتيانُ بشيءٍ مرةً بعدَ أخرى"⁴، وراه الزركشي وجهاً من وجوه التوكيد⁵، وذهب السجلماسي إلى أنّهُ "إعادةُ اللفظِ بالعددِ، أو بالنوعِ مرتينِ فصاعداً، خشيةً تناسي المعنى الأول؛ لطولِ العهدِ به في القول"⁶.

أمّا التكرارُ عندَ علماءِ النصِّ، فهو ظاهرةٌ لغويّةٌ تسهمُ في ترابطِ العناصرِ، وتماسكِ النصِّ، عن طريقِ حُسنِ اختيارِ المفرداتِ، بوصفه عنصرًا لغويًّا يعملُ على إعادةِ العنصرِ المعجميِّ نفسه، بصورةٍ مباشرةٍ⁷ داخلَ البنيةِ اللغويّةِ لغرضٍ ما، أو مرادفيه، أو شبه مرادفيه، أو عنصرٍ مطلقاً، أو اسمٍ عامٍ⁸، وأطلقَ عليه بعضهم الإحالة التكراريّة⁹؛ لأنّه يُحيلُ على لفظٍ سابقٍ، أو مرادفٍ له، بداعي علاقةٍ الاشتراكِ، أو المطابقةِ بينَ اللفظينِ، فيستمرُّ حضورُ العنصرِ المُحالِ عليه في عالمِ النصِّ؛ ليركزَ على القضيةِ الأساسيّةِ، بالتأكيدِ على معنىٍ معينٍ مرادٍ، كما يكشفُ عن آلياتِ البناءِ المعنويِّ، بإبرازِ التوازنِ بينَ المعلوماتِ الجديدةِ والقديمةِ في النصِّ¹⁰، ومن هذا المنطلقِ فسّرَ (دي بوجراند) شيوعَ التكرارِ في

¹ ينظر: فرج، باقر محيسن، السبك والحبك في جزء المجادلة، العراق، جامعة المتنى، كلية التربية للعلوم الإنسانية، دراسة جامعيّة، 2018، ص85-91.

² ينظر: سيبويه، الكتاب، ط3، ج2، ص360.

³ ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ط6، ص647، 650.

⁴ الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، بيروت، ط1، دار الكتب العلميّة، 1983، ص65.

⁵ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص8.

⁶ السجلماسي، أبو محمد القاسم الأنصاري، المنزل البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، الرباط، مكتبة المعارف، 1980، ص476، 477، 478.

⁷ ينظر: دي بوجراند، روبرت، مدخل إلى علم لغة النص، ط1، ص81.

⁸ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص24.

⁹ ينظر: الأهر، الزناد، نسيج النص (بحث فيما يكون به المنفوظ نصاً)، ص119.

¹⁰ ينظر: الغانمي، فهد بن درهم، النص القضائي القيم والمعايير النصيّة، ص174.

الكلام التلقائي، بإعادة الكلام إلى قصر زمن التخطيط، وسرعة فقدان مكونات سطح النص¹، وقسمه النصيون إلى التكرار المحض أو التام، والجزئي أو الاشتقائي، والتكرار بالترادف وبالتوازي².

1.2.4.2 المصاحبة المعجمية

لم يغفل القدماء درس المصاحبة المعجمية، بل اعتنوا بمضمون هذا الدرس ومحتواه عنايةً فائقةً، وقد وقف غير واحد من الدارسين المحدثين على جهود القدماء في هذا الدرس، كـ(حمادة الحسيني) الذي درس المصاحبة المعجمية عند القدماء والمحدثين، وكشف عن علاقتها بالظواهر اللغوية، واستقرى مقولات تدل في مضمونها على مفهوم المصاحبة، كاشتراط سيبويه لصحة الكلام أن تتناسب الكلمة مع الأخرى تناسباً دلاليًا، إضافةً لصحة التركيب، فإن لم يكن للكلام كذب، وهو ما سمّاه بالمستقيم الكذب³، وكذلك إشارة الجاحظ إلى العلاقة القائمة بين كلمات مخصوصة على السنة العامة، فبعضها يصحب ذكر بعض، ولا تصحبها كلمات أخرى، قد تكون بمعناها⁴، وذهب أبو هلال العسكري إلى أن اختلاف الألفاظ يلزم منه اختلاف المعاني، فينبغي اختيار الألفاظ المناسبة لمعنى دون آخر⁵، وفي هذا إشارة واضحة لمضمون درس المصاحبة المعجمية، أمّا الجرجاني، فقد وقف على مثل هذه المصاحبات المعجمية عند كلامه على نظم الكلام، فقال: "وهل يقع في وهم، وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان

¹ ينظر: دي بوجراند، روبرت، مدخل إلى علم لغة النص، ط1، ص81.

² ينظر: البطاشي، خليل بن ياسر، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ط1، الأردن، دار جريب للنشر، 2009، ص66-68. وينظر: الكبيسي، طراد، جماليات النثر العربي، بغداد، دار شؤون الثقافة العامة، الموسوعة الصغيرة، 2000، ص23.

³ قال: "أمّا المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل"، أراد بالمستقيم الاستقامة النحوية، وبالكذب الخطأ الدلالي. سيبويه، الكتاب، ط3، ج1، ص26. وينظر، الحسيني، حمادة محمد عبد الفتاح، المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن، مصر، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية - الدراسات العليا والبحوث، 2007، ص33.

⁴ ينظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، البيان والتبيين، ج1، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1423هـ، ص42. وينظر: عبد العزيز، محمد حسن، المصاحبة في التعبير اللغوي، القاهرة، دار الفكر، 1990، ص61. وينظر، الحسيني، حمادة، المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن، ص32.

⁵ قال إنه ألف كتابه: في الفرق بين معان تقاربت حتى أشكل القرب بينها... وما شاكل ذلك فاني ما رأيت في الفرق بين هذه المعاني وأشباهها كتابا يكفي الطالب ويقنع الراغب مع كثرة منافعه في ما يؤدي إلى المعرفة بوجه الكلام والوقوف على حقائق معانيه". العسكري، أبو هلال الحسن، الفروق اللغوية، ج1، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ت، ص21. وينظر، الحسيني، حمادة، المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن، ص34.

المفردتان، من غير أن ينظرَ إلى مكانِ تقعانِ فيه من التأليفِ والنظم¹، وأوضح من هذا قوله: "وهل تجدُ أحدًا يقولُ: هذه اللفظةُ فصيحَةٌ، إلَّا وهوَ يعتبرُ مكانها من النظم، وحسنَ ملائمةِ معناها لمعاني جاراتها، وفضلَ مؤانستها لخواتمها؟"²، وهذا يكشفُ، بصورةٍ جليَّةٍ، عن وعي الجرجانيِّ بعلاقةِ الكلمةِ بالكلمةِ، ومناسبةِ كلِّ منهما للأخرى، وهذا أسُّ مضمارِ درسِ المصاحبةِ المعجميَّةِ.

وبصرفِ النظرِ عن مدى اتصالِ كلامِ القدماءِ بكلامِ المحدثينَ، فإنَّ المصاحبةَ المعجميَّةَ لاقتْ عنايةً بالغةً في الدرسِ اللسانيِّ الحديثِ، لكونها معيارًا أصليًا من معاييرِ التماسكِ النصِّيِّ، وقد بدتْ تلکُمُ العنايةُ بصورةٍ مركَّزةٍ لدى (فيرث)، الذي اهتمَّ بموضوعِ السياقيَّةِ في اللغةِ؛ إذ رأى أنَّ معنى الكلمةِ مستمدٌّ من سياقها اللغويِّ، والرافدُ الحقيقيُّ لمعنى الكلمةِ السياقيُّ هوَ مصاحبتهَا لكلمةٍ أخرى³، ووضَعَ لهذه المصاحباتِ قيودًا، منها ما يتركزُ على المادةِ، كأنْ يُقالَ: بقرةٌ صفراءُ، فالمعنى مقبولٌ، بخلافِ القولِ: بقرةٌ خضراءُ، ومنها ما يتركزُ على الحقلِ الذي يجمعُ الكلماتِ ذاتِ الملامحِ الدلاليَّةِ المشتركةِ، مثلِ الإبلِ والهودجِ، وقيودٌ أخرى مشدَّدةٌ، ذاتُ تضامٍّ محدودٍ، كأنْ يُقالَ: شعرٌ أشقرٌ، ولا يُقالَ: بيتٌ أشقرٌ⁴، ورأى (محمد خطابي) أنَّ المصاحبةَ تردُّ بصورةٍ زوجٍ من الكلماتِ بالفعلِ أو بالقوَّةِ مرتبطةً بعلاقةٍ ما⁵، وهذا التواردُ في سياقِ هذه العلاقةِ يؤدي إلى تماسكِ النصِّ، ويعطيه صفةَ النصِّيَّةِ؛ لأنَّ له أثرًا في تقريبِ المعنى المرادِ، عندما يكونُ لبعضِ الكلماتِ أكثرُ من معنى، وبذلك يُقدِّمُ ما يحتاجُه النصُّ من قرائنَ أدائيَّةٍ ومقاليَّةٍ وعقليَّةٍ وحاليَّةٍ⁶.

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط3، ج1 ص44.

² نفسه، ص44.

³ ينظر: التميمي، عواطف كنوش، الدلالة السياقية عند اللغويين، ط1، لندن، دار السياب للطباعة والنشر، 2007، ص196.

⁴ ينظر: لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987، ص102.

⁵ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص25.

⁶ ينظر: حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ط6، القاهرة، عالم الكتب، 2009، ص192.

1.2.4.3 علاقاتُ المصاحبةِ المعجميةِ

ذهب اللسانيون إلى أنّ المصاحبةَ المعجميةَ محكومةٌ بجملةٍ من العلاقاتِ التي تربطُ بينَ أزواجِ المفرداتِ، لا على قاعدةٍ أصوليةٍ محكمةٍ، وليسَ ثمَّ مقياسٌ صارمٌ لتصنيفِ الكلماتِ في هذهِ المجموعةِ أو تلكِ¹، أي أنّ النظرَ في كلِّ سياقٍ على حدةٍ هوَ الذي يعينُ هويةَ ذَيْتِكَ الزوجينِ، إلى أيِّ مجموعةٍ ينتميانِ، وتحتَ أيِّ علاقةٍ يندرجانِ.

وانقسمتْ هذهِ العلاقاتُ إلى علاقةٍ التَّضادِ، والتلازمِ الذكريِّ، وهوَ قديمًا، مراعاةُ النّظيرِ، وسُميَ التناسبَ والائتلافَ والتوفيقَ أيضًا، وعلاقةُ الكلِّ بالجزءِ، والجزءِ بالجزءِ، والاندرجِ في صنفِ عامٍّ، والانتماءِ إلى مجموعةٍ غيرِ منتظمةٍ، أو الارتباطِ بموضوعٍ معينٍ².

ولا يخفى ممّا سبقَ أنّ وسائلَ السَّبكِ كانتْ حاضرةً في درسِ القدماءِ، بصورةٍ تقاربُ درسَ المحدثينِ، ولمّا كانتْ لدى القدماءِ مرتبطةً بنحوِ الجملةِ، تناثرتْ في مصنفايهم، وفقَ ارتباطِها الموضوعيِّ بالقضيةِ النحويةِ المتصلةِ بها، أمّا الدرسُ اللسانيُّ الحديثُ الذي يجمعُ هذهِ الوسائلَ، فإنّه يوظفُها مرةً واحدةً؛ لارتباطِها بتكوينِ الوحدةِ النصّيةِ من جهةٍ، ولكونها معيارًا كاشفًا عن مظاهرِ التماسكِ النصّيِّ من جهةٍ أخرى، لذا؛ ستوظفُ هذهِ الدراسةُ تلكَ الوسائلَ في درسٍ تطبيقيٍّ؛ لبيانِ مظاهرِ التماسكِ النصّيِّ، فيما تدخلُ من الآياتِ المكيّةِ والمدنيّةِ في السورةِ الواحدةِ، مُعالِجَةً وسائلَ الربطِ في الآيةِ، مع ما قبلها وما بعدها، دونَ النظرِ في تلكَ الروابطِ في الآيةِ نفسها؛ لأنَّ منطلقَ الدراسةِ كشفُ التماسكِ النصّيِّ في السورةِ، لا في الآيةِ، لذا؛ لن تُعنى هذهِ الدراسةُ بوصفِ التماسكِ في الآيةِ وحدها، بمعزلٍ عن سائرِ الآياتِ؛ لأنّه غيرُ مُجدٍ في مُنتهى قصدِ الدراسةِ.

¹ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص25.

² ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص25. وينظر: فرج، حسام أحمد، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ط2، ص111-116. ينظر: مفتاح، إبراهيم، محمد عبد الله، التماسك النصي للاستخدام اللغوي في شعر الخنساء، ط1، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2015.

1.2.5 معيارُ الحَبْكِ وعلاقتهُ

لقد مضى حديثٌ سابقٌ عن السَّبْكِ النصِّيِّ، مضمونهُ أَنَّ السَّبْكَ يعتمدُ على وسائلٍ لغويَّةٍ؛ لتحقيقِ وصفِ التَّماسكِ النصِّيِّ على مستوى النَّصِّ، غيرَ أَنَّ هذا الوصفَ لا يقتصرُ على تلكمِ الوسائلِ اللغويَّةِ، وإنَّما يتعداها إلى مستوياتٍ دلاليَّةٍ أو معنويَّةٍ أخرى، تُسمَّى الحَبْكُ، وتستندُ إلى علاقاتٍ عقليَّةٍ مفهوميَّةٍ، وتُحيلُ على رصدِ تلكِ العلاقاتِ، التي تتجلَّى بها الاستمراريَّةُ المعنويَّةُ في منظومةِ المفاهيم¹ الرابطةِ بينَ أجزاءِ النَّصِّ موضوعيًّا، دونَ الاعتمادِ على وسائلٍ شكليَّةٍ ظاهرةٍ².

والحَبْكُ بلفظهٍ واردٌ لدى بعضِ القدماءِ العربِ، كقولِ أسامةَ بنِ منقذٍ: "خيرُ الكلامِ المحبوكُ الذي يأخذُ بعضُهُ برقابِ بعضٍ"³، وقولِ أبي هلالِ العسكريِّ: "وينبغي أنْ تجعلَ كلامَكَ مشتبهاً أولُهُ بأخْرِهِ، ومطابقاً هاديه لعجزِهِ، ولا تتخالفُ أطرافُهُ، ولا تنتافرُ أطرافُهُ، وتكونُ الكلمةُ منه موضوعاً معَ أختِها، ومقرونةً بلفقها"⁴.

أمَّا الدرسُ اللسانيُّ الحديثُ، فإنَّه يدرسُ العناصرَ الدلاليَّةَ الرابطةَ بينَ أجزاءِ النَّصِّ⁵، وينطلقُ من العلاقاتِ القائمةِ بينَ المعاني والأفكارِ في عمقِ النَّصِّ؛ للكشفِ عن إسهامها في ترابطِ النَّصِّ واتِّصالِ أجزائه، وهذا يعني أنَّ النَّصَّ صورةٌ عن تلكِ العلاقاتِ الدلاليَّةِ المتداخلةِ، التي تفضي إلى انسجامِهِ وتماسكِهِ على مستوى بنيتهِ العميقةِ، وقد وقفَ (هاليدي و رقيه حسن) على أهميَّةِ الوحدةِ الدلاليَّةِ مقارنةً بوحدةِ الشَّكْلِ⁶، أمَّا (فان دايك)، فرأى أنَّ الحَبْكَ محكومٌ بشرطِ زوجيَّةِ العلاقاتِ، أي أنَّها تقعُ في إطارِ

¹ ينظر: خطابي، محمد، لسانياتِ النَّصِّ مدخلٌ إلى انسجامِ النَّصِّ، ط2، ص556.

² ينظر: قِيَّاس، ليندة، لسانياتِ النَّصِّ بينَ النظريَّةِ والتطبيقِ، القاهرة، ط1، مكتبة الآداب، 2009، ص139.

³ ابن منقذ، أبو المظفر أسامة بن مرشد، البديع في نقد الشعر، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة، دت، ص163.

⁴ العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، ص141، 142.

⁵ ينظر: المرتجى، أنور، سيميائية النَّصِّ الأدبي، الدار البيضاء، دار أفريقيا الشرق، 2010، ص88.

⁶ ينظر: هاينه مان، فولفجانج، ديتر فيهفجر، مدخل إلى علم لغة النَّصِّ، ترجمة: سعيد بحيري، ط1، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2004، ص33.

التعلق والتبعية بين الأحداث¹، وذهب (محمد خطابي) إلى أن علاقات الحبكة المنتظمة في النص أعمق من السبب، فهي خفية غير ظاهرة في سطح النص، لذا؛ تتطلب جهداً من المتلقي للوقوف عليها².

وإن كان الأصل في معاني النص ودلالاته، أن تتوالى في جمل مترابطة بوصلات لغوية شكلية، فإن قوة الحبكة (الربط المعنوي) قد تُغني عن إيراد تلكم الوصلات، فيغدو الكلام في غاية الترابط، رغم افتقاره لروابط لغوية، وقد أشار الجرجاني إلى استغناء الكلام عن الروابط اللفظية؛ لأن معناه متصل بذاته، كاتصال الصفة بالموصوف، والتوكيد بالمؤكد³.

وكذلك، فإن للعلاقات المعنوية القائمة على مبدأ الاستمرارية المعنوية أثراً كبيراً في تحقيق التماسك النصي؛ ذلك أنها ترد تكاملية متآزرة فيما بينها، فتجمع أطراف النص، أو تربط بين متوالياته، أو بعضها، دون الاعتماد على وسائل شكلية عادة؛ ليكون الكلام متصلاً ببعضه ببعض⁴، وهذا ما يحيل على جملة منها مرتبطة في بؤرة هذه الدراسة، كعلاقة الإجابة بالسؤال، وعلاقة الإلزام، وعلاقة البيان والتفسير، وعلاقة التأكيد، وعلاقة التدرج، وعلاقة التعليل، وعلاقة التفصيل بعد الإجمال، وعلاقة التنظير، وعلاقة الحجاجية، وعلاقة السبب بالنتيجة، وعلاقة المقارنة، وعلاقة الملاسة، وعلاقة النقص والإبطال⁵.

1.3 نحو النص والقرآن

تجّه الدرس اللغوي الحديث إلى النصّ متخذاً منه موضوعاً قائماً بنفسه، بقصد وصف المعايير والشروط والعلائق، التي تُقيم بناء النصّ، وتُشكّله وتُحقّق نصيّه، وقد كشف هذا التوجّه عن مفارقات

¹ ينظر: فان دايك، النص والسياق، ترجمة: عبد القادر فنيبي، المغرب، دار أفريقيا الشرق، 2000، ص 179.

² ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص 6، 5.

³ ينظر: الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط3، ج1، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، القاهرة، مطبعة المدني، 1992، ص 227.

⁴ ينظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، ص 268.

⁵ ينظر: النوري، محمد جواد، لسانيات النص وتحليل الخطاب، تقديم: سعد مصلوح، بيروت، دار الكتب العلمية، 2020، ص 568-592.

ومقارباتٍ جديدةٍ في تعامله مع النصِّ، تتفقُ كثيرًا مع بنية النصِّ القرآنيِّ، الذي يتَّسمُ بسماتٍ وظيفيَّةٍ قادرةٍ على التفاعلِ مع ما يستجدُّ من علومٍ، وأنظارٍ لغويَّةٍ، وهذا ما يجعلُ تحديثَ الدرسِ القرآنيِّ، وإعادةَ توصيفه وفقَ الأنظارِ الحدائِثِ ضرورةً عصريَّةً ملحَّةً، مبرَّرةً بمرورِ بِناءِ النصِّ القرآنيِّ، واتساعِ آفاقه، وقدرتهِ الذاتيَّةِ على التفاعلِ الوظيفيِّ، مع ما يستجدُّ من علومٍ، ومعارفٍ حديثةٍ، وذلكَ من شأنه أن ينفِى أيَّ قصورٍ منهجيِّ في درسِ النصِّ القرآنيِّ، من ناحيةِ النظرياتِ الحديثةِ وإعمالها، ومن جهةٍ أخرى، فإنَّه يستدركُ على ما في كتبِ التفسيرِ من تداخلِ المنهجياتِ وتعددِها؛ لِيُعَادَ ضبطُها وتنسيقُها وبنائها بناءً نظريًّا، وفقَ أسسٍ علميَّةٍ حدائِثِ، فالدعوةُ الآنَ متجهَةٌ نحوَ بناءِ نظرياتٍ نصيَّةٍ لغويَّةٍ متكاملةٍ في كلياتها وجزئياتها؛ لتكونَ، من بعدُ، ممثلةً للإطارِ النظريِّ الذي يُعينُ المفسِّرَ على تناولِ النصِّ القرآنيِّ، فيتجاوزُ تجزيئاتِ علمِ التفسيرِ، وتفككَ قضاياها، وقصوره في وصفِ نصيَّةِ النصِّ، فعلى الرغمِ من قناعةِ المفسرينَ بأنَّ النصِّ القرآنيِّ مترابطُ الأجزاءِ، ومتماسكُ البناءِ، إلا أنَّ هذه القناعةَ، لدى كثيرٍ منهم، لم ترتقِ إلى المستوى الذي ينبغي أن تكونَ عليه من جهةِ الإعمالِ والتطبيقِ، إذْ كانَ الحظُّ الأوفرُ في مصنفاتهم لبنيَّةِ النصِّ الجزئيَّةِ، وليسَ للنصِّ بوصفه وحدةً نصيَّةً متكاملةً، فتمَّ درسٌ في لغويَّةِ النصِّ وبلاغتهِ، وثانٍ في أسبابِ النزولِ، وثالثٌ في المكيِّ والمدنيِّ، ورابعٌ في الناسخِ والمنسوخِ وغيرها، وكلُّ درسٍ من هذه الدروسِ جاءَ، فيما غلبَ، معزولًا عن غيره، ذا استقلالٍ تامَّةٍ، دونَ اهتمامٍ بصلَّةِ كلِّ منها بغيره، وبالسياقاتِ النصيَّةِ العامَّةِ.

وإذا كانَ هذا كذلكَ؛ فإنَّ اختيارَ درسِ اللسانياتِ الحديثِ خليقٌ بأنَّ يُحقِّقَ وصفَ التماسكِ النصيِّ في بؤرةِ هذه الدراسةِ، التي تتضمنُ معالجاتٍ تطبيقيَّةً لما تداخلَ من المكيِّ والمدنيِّ في السورةِ الواحدةِ، وفقَ منهجِ درسِ نحوِ النصِّ الحديثِ، وما يتضمَّنُهُ من مبادئٍ عامَّةٍ، كالنظرِ في السياقِ البنيويِّ وسياقِ الحالِ، وحالِ مَنْ كانَ مضمارًا للخطابِ، والأنظارِ الخارجيَّةِ، والمحدوفِ، وذلكَ باستثمارِ معياريِّ السبكِ والحبكِ، وما تفرَّعَ عنهُما من وسائلٍ نحويَّةٍ ومعجميَّةٍ، وعلاقاتٍ معنويَّةٍ من شأنها أن تكشفَ عن تماسكِ النصِّ وانسجامه، وتثبتَ وصفَ النصيَّةِ له، مع إمكانِ إجراءِ تعديلاتٍ تقتضيها خصوصيَّةُ النظامِ

اللغويّ للعربيّة، فإنّ كان هذا؛ فإنّه سيُخرجُ الدرسَ القرآنيّ من إطارِ الجزئيّة إلى إطارِ الكلياتِ العامّة التي تنتظمه، فيتبيحُ للقارئِ الوقوفَ على ملامح التماسكِ النصّيّ؛ ليكونَ، من بعدُ، منطلقاً لإدراك إعجازِهِ من جهةٍ، ورافداً أصيلاً لسائرِ علومِ القرآنِ، ومرجعاً مُحتمكاً لعلمِ التفسيرِ من جهةٍ أخرى.

وينضافُ إلى خصوصيّةِ النظامِ اللغويّ للعربيّةِ خصوصيّةُ النصِّ القرآنيّ، تلكَ الخصوصيّةُ التي اقتضتْ صلاحيةَ بعضِ معاييرِ نحوِ النصّ في بؤرةِ هذه الدراسة، وعدمِ صلاحيةِ معاييرِ أخرى، فقد رأى غيرُ واحدٍ من اللسانيينَ العربِ، كـ(تمام حسّان وأحمد عبد الراضي)، أنّ أشدَّ المعاييرِ اتصالاً بالنصّ هما معيارا السبكِ والحبكِ؛ لأنّهما غيرُ مختصينِ بنحوِ النصّ، بل يرتبطانِ بنحوِ الجملة، أمّا المعاييرُ الخمسةُ الأخرى فهيَ خاصّةُ بنحوِ النصّ¹، ولعلَّ ما يُعزّزُ مذهبَ هؤلاء أنّ موضوعاتِ معيارِي السبكِ والحبكِ ترتبطُ بجوهرِ نظامِ اللغَةِ العربيّةِ، فقد تناثرتْ تلكمِ الموضوعاتُ في كتبِ التراثِ، كاللغةِ والبلاغةِ والأدبِ والنقدِ والتفسيرِ وعلومِ القرآنِ²، وتناولها القدماءُ دراسةً تأصيليّةً.

ومن جهةٍ أخرى، فإنّ خصوصيّةِ النصِّ القرآنيّ، من حيثُ منشؤه ووصفه بالقدسيّة، وعدمُ حصرِهِ في ثقافةٍ قوميّةٍ، أو بيئةٍ جغرافيّةٍ ما، تقتضي اقتصارَ هذه الدراسة على معيارِي السبكِ والحبكِ؛ لارتباطهما بالنصّ ذاتيه، وإهمالِ المعاييرِ الأخرى؛ لضعفِ ارتباطها بالنصِّ القرآنيّ؛ ذلكَ أنّه نصٌّ غيرُ متأثرٍ بثقافةٍ أو بيئةٍ، ولا يعتمدُ على نصوصٍ سابقةٍ، وليسَ له ارتباطٌ بتوقعِ المتلقي من حيثُ القبولُ أو الرفضُ، ولا يمكنُ البحثُ في نيّةِ مُنشئه وقصده، من حيثُ أثره في تكوينِ شكلِ النصّ ومضمونه، وإنّ كانَ القصدُ بهذا معيارِ التناصِ والمقبوليّةِ والإخباريّةِ والقصديّةِ، فإنّ معيارَ الموقفيّةِ يمكنُ إعماله في النصِّ القرآنيّ؛ لارتباطِهِ بعلمِ المناسباتِ وأسبابِ النزولِ، وقد تناولتْ هذه الدراسةُ هذا المعيارَ في جانبها النظريّ، كما ستقفُ عليه عندَ النظرِ في مناسباتِ النصوصِ في جانبها الإجماليّ، دونَ إفرادِ عنوانٍ مستقلٍّ لهذا المعيارِ؛ لأنّ درسه، ها هنا، خادمٌ لمعيارِي السبكِ والحبكِ، وغيرُ مستقلٍّ عنهما.

¹ ينظر: عبد الراضي، أحمد محمد، نحو النص بين الأصالة والحداثة، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008، ص86.

² ينظر: تاج، مير فوزية، التحليل النصي في التفاسير القرآنية البيانية والموضوعية (دراسة تحليلية في ضوء منهج نحو النص)، باكستان، الجامعة الإسلامية العالمية، 2013، ص15.

وبناءً على ذلك؛ فإنَّ هذه الدراسة تُعنى باستثمارِ قدرةِ معيارِي السَّبكِ والحَبكِ على تحقيقِ صفةِ النصِّيَّةِ؛
لتحريرِ دعوىِ ثبوتِ التَّماسكِ النصِّيِّ، فيما تداخلَ من القرآنِ المكيِّ والمدنيِّ في السورةِ الواحدةِ، ثُمَّ
ثبوتِ نصِّيَّتِهِ.

ولن تتناولَ هذه الدراسةُ كلَّ ما وردَ من آياتٍ مستثناةٍ في كتبِ التراثِ؛ لكثرتها، بل ستعالجُ نماذجَ
محدودةً، من شأنها أنْ تحققَ غايةَ الدراسةِ الموصولةَ بفكرتها العامَّةِ، وكذلك لا ينبغي لهذه الدراسةِ
النظرُ في أسانيدِ تلكمِ الاستثناءاتِ؛ لأنَّ غايةَ الرواياتِ الواردةِ في الآياتِ المستثناةِ إثباتُ وصفِ المكيِّ
والمدنيِّ، أو نفيُّه عنه، وليسَ غايتهاُ فصلَ تلكَ الآياتِ عن مواضعها في السُّورِ، فالاستثناءُ المقصودُ
ها هنا استثناءً للوصفِ، وليسَ للذاتِ، ولما ثبتَ ترتيبُ آياتِ السُّورِ بالدليلِ القطعيِّ المتواترِ، كانَ البحثُ
في سَنَدِ وصفِ بعضها بالمكيِّ والمدنيِّ غيرَ مؤثِّرٍ، في الحكمِ على ترتيبها في هذا الموضعِ أو ذاكِ،
وإنْ كانَ ذلكَ الوصفُ بالمكيِّ والمدنيِّ مرتبطاً بدرسِ التَّماسكِ النصِّيِّ من جهةِ سياقِ الحالِ أو المقامِ،
إلا أنَّ إثباتَهُ أو نفيُّه غيرُ مفيدٍ في دحضِ أنظارِ المستشرقينَ؛ ذلكَ أنَّهم لمَ ينظروا في صحَّةِ الرواياتِ
وضعفها، بل علمَ الروايةِ والسندِ ليسَ بشيءٍ عندهم، فكلُّ ما هوَ مكتوبٌ في تراثنا صحيحٌ في نظرهم،
ولما كانتَ هذه الدراسةُ مضادَّةً لأنظارهم وأوهامهم في هذا الموضوعِ، كانَ الأولى والأجدرُ تركَ تحقيقِ
الرواياتِ والنظرِ في أسانيدِها، والتركيزَ على نصِّيَّةِ السورةِ القرآنيَّةِ، بكشفِ تماسكها وترابطِ أجزائها،
رغمَ تشتُّتِ وصفِ بعضِ آياتها بينَ مكيٍّ ومدنيٍّ، وساعتنذِ يكونُ الجمعُ بينَ مظهرِ التَّماسكِ النصِّيِّ،
وتشتُّتِ الوصفِ بالمكيِّ والمدنيِّ ملمحاً من ملامحِ إعجازِ النصِّ القرآنيِّ.

وترى هذه الدراسةُ أنَّ الأنفعَ أنْ تُعالجَ أدواتِ ربطِ الآيَةِ بما قبلها وما بعدها، دونَ النظرِ في أدواتِ
الربطِ في الآيَةِ نفسها؛ لأنَّ مُنطلقَ الدراسةِ كشفُ التماسكِ النصِّيِّ في السورةِ، لا في الآيَةِ، لذا؛ لن تُعنى
هذه الدراسةُ بوصفِ التَّماسكِ في الآيَةِ وحدها، بمعزلٍ عن سائرِ الآياتِ؛ لأنَّهُ غيرُ مُجدِّ في منتهى قصدِ
الدراسةِ، وإنَّما آثرتُ هذا المنحى؛ لأنَّهُ يُغني عن تطويلِ، لا تستدعيه غاياتها الكليَّةُ.

الفصلُ الثاني

السَّبْكُ والحَبْكُ في المكيِّ المدمجِ في المدنيِّ

يَتَّخِذُ هذا الدرسُ من علم اللسانيَّاتِ الحديثِ مضمراً لدراسة الآياتِ المستثناة من عمومِ وصفِ السورة بالمكيِّ والمدنيِّ؛ فالقصدُ، هاهنا، إعمالُ معيارَي السَّبْكِ والحَبْكِ في الآيِ المدمجِ، باستثمارِ وسائلِهما الفاعلةِ في خلقِ وصفِ النصِّيَّةِ، وذلكَ باستشراقٍ مُثَلِّ يصدِّقُ عليها هذا الإعمالُ؛ لتكونَ بؤرةً دالةً على الغايةِ المتعيَّنة من الكشفِ عن مظاهرِ التماسكِ النَّصِّيِّ فيها، رغمَ تداخلِ وصفِها، وهذا من شأنِهِ أَنْ يُقابَلَ بأنظارِ المستشرقينِ، الذين استثمروا كلامَ القدماءِ على خصائصِ المكيِّ والمدنيِّ، والفوارقِ الأسلوبيةِ بينهما، وصيروها وصفاً لنمطينِ قرآنيينِ متباينينِ، لا صلةَ بينهما البتَّة؛ لإثباتِ تشتُّتِ أسلوبِ القرآنِ، والتشكيكِ في إلهيته.

2.1 سورة البقرة

انْفَقَ على مدنيَّةِ سورة البقرة، غيرَ أَنْ السيوطيَّ استنتى منها آيتين¹، وعدَّهما من المكيِّ، هما: قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾²، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾³، "وذكرَ الماورديُّ أَنَّ البقرةَ مدنيَّةٌ في قولِ الجميعِ، إلا آيةً، وهي: ﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ النَّحْرِ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ بِمَنَى﴾⁴، وذكرَ هذا أيضاً غيره من العلماء⁵.

¹ ينظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج1، ص56.

² البقرة، 109.

³ البقرة، 272.

⁴ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص187.

⁵ أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، زهرة التفاسير، ج1، مصر، دار الفكر العربي، دت، ص75.

وفي قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾¹ وقع استبدال اسمي مع آية تالية، هي: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾²، فقد استُبدِلَ لفظ (هودًا أو نصارى) في الآية التالية، بلفظ (أهل الكتاب) في الآية السابقة، وهما لمسمي واحد، ورغم ما بين اللفظين من عموم وخصوص، فإنَّ لفظ (أهل الكتاب) جاء في القرآن لقبًا لليهود والنصارى، ولمَّا كان هذا اللفظ خاصًا بالاستعمال القرآني³، ولم يستعمله اليهود والنصارى من قبل، جاء الكلام في الآية الأولى مُسنَدًا إلى الله بلفظ (أهل الكتاب)، وجاءت الآية التالية حكايةً على لسان اليهود والنصارى، بما جرى استعمالهم، بلفظ (هودًا أو نصارى).

وفي هذه الآية أيضًا حذف اسمي، وهو (الذين كفروا) من أهل الكتاب، بدليل قرينة مقالية في آية سابقة، وهي قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ...﴾⁴، فلما تخصص الموصوف بقوله: "من أهل الكتاب"⁵، وتقرر من قبل أن (أهل الكتاب) من (الذين كفروا) حسن، هاهنا، حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، ومرجعية هذا الحذف قبليَّة ذات علاقة داخلية، أسهمت في ربط أجزاء النص، رغم اختلاف وصف الآيتين.

كما وردت مصاحبة معجمية بعلاقة الجزء بالكل بين هذه الآية وآية سابقة، فـ(أهل الكتاب) جزء من الكل (الَّذِينَ كَفَرُوا)⁶، الوارد في الكلام السابق من السورة، ووجه ذلك أن الجزء لا بُدَّ له من كل مستغنى عن ذكره، يكون حاضرًا في ذهن المتلقي، وإنما ذكر، هاهنا، الجزء (أهل الكتاب) دون الكل (الَّذِينَ كَفَرُوا)؛ إشارة إلى علم الكتاب الذي أنزل عليهم، وأنهم يعلمون الحق، وحقيقة القرآن، إلا أنهم لم

¹ البقرة، 109.

² البقرة، 111.

³ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص 429-430.

⁴ البقرة، 105.

⁵ ينظر: عزيمة، محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج 10، تصدير: محمود محمد شاكر، القاهرة، دار الحديث، د.ت، ص 390.

⁶ ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، البقرة، 105.

يُؤْمِنُوا، فَكَانَ فِي ذِكْرِ لَفْظِ (الْكِتَابِ) تَتْبِيهًا لَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمَا عَلِمُوا، أَمَّا لَفْظُ الْكَلِّ (الَّذِينَ كَفَرُوا) فَجَاءَ لُضْمِيمَةً أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مَعًا، ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اتَّفَقُوا فِي الْوَصْفِ.

وَتَمَّ مَصَاحِبُهُ أُخْرَى بِعِلَاقَةِ الْجُزْءِ بِالْكَلِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ قَوْلِهِ (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا)، وَقَوْلِهِ (وَهُوَ مُحْسِنٌ) فِي آيَةٍ لِاحْتِقَاقِ، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾¹، فَالْإِحْسَانُ كُلُّهُ، وَالْعَفْوُ وَالصَّفْحُ جُزْءٌ مِنْهُ، وَالْمَرَادُ بِذِكْرِ الْجُزْءِ، هَاهُنَا، مَقَابَلَةُ جَهْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعِدَاوَتِهِمْ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ²، وَالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ، وَهَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ بِذِكْرِ لَفْظِ الْإِحْسَانِ الْمَطْلُوقِ؛ لِأَنَّهُ يَصْدُقُ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنْ حَيْثُ وَصَفُهُ، وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَجَاوِزِ عَنِ الْكَافِرِ الْمَسِيءِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي الْمَائِدَةِ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾³، إِذْ مَوْضِعُ الْآيَةِ كِفَارُ الْيَهُودِ، فَجَعَلَ الْعَفْوَ وَالصَّفْحَ عَنْهُمْ مِنْ لُؤْزَامِ الْوَصْفِ بِالْإِحْسَانِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ ذِكْرُ الْكَلِّ فِي مَوْضِعِ الْجُزْءِ، فَلَا تُقَابِلُ إِسَاءَةَ الْكَافِرِ بِالْإِحْسَانِ الْمَطْلُوقِ، بَلْ تُقَابِلُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، كَمَا فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ، أَوْ بِالْإِحْسَانِ الْمُقَيَّدِ بِهِمَا، كَمَا فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ، وَلِذَلِكَ؛ عَدَلَ عَنْ ذِكْرِ الْكَلِّ إِلَى الْجُزْءِ، أَمَّا لَفْظُ الْكَلِّ (وَهُوَ مُحْسِنٌ)، فَقَدْ جَاءَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ (مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)، فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾؛ لِتَقْيِيدِ إِسْلَامِ مَنْ أَسْلَمَ بِفِعْلِ الْإِحْسَانِ، الَّذِي يَشْمَلُ فِعْلَ الطَّاعَاتِ، وَاجْتِنَابَ الْمَعَاصِي، وَالْعَفْوَ وَالصَّفْحَ، وَغَيْرَهَا، وَهَذَا يَكْشِفُ عَنِ ارْتِبَاطِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ.

أَمَّا الْحَبْكُ الْمَعْنَوِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَدْ وَقَعَ بِعِلَاقَةِ السَّبَبِ بِالنَّتِيجَةِ مَعَ آيَةٍ تَالِيَةٍ، هِيَ ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى...﴾ وَوَجْهُهُ أَنَّ الْحَسَدَ كَانَ سَبَبًا فِي قَوْلِهِمْ "لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى"، فَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَحْسَدُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى اخْتِصَاصِهِمْ

¹ البقرة، 112.

² ينظر: النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ط1، ج1، تحقيق: يوسف علي بديوي، بيروت، دار الكلم الطيب، 1998، ص120.

³ المائدة، 13.

بالوحي المنزل على نبيهم، كما يحسدونهم على ما يقتضيه الإيمان بذلك الوحي من دخول الجنة¹، ومما يؤكد هذه العلاقة والتماسك النصي بين الآيتين، أن الضمير في الفعل (قالوا) في الآية الثانية، عائد على (أهل الكتاب) في الآية الأولى²، وقد أدى هذا الترابط المعنوي إلى تماسك النص واتصاله بين آية مكية وآيات مدنيّة.

أمّا الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾، ففيها إحالة مقامية؛ ذلك أن ضمير المخاطب الكاف في (عليك) جاء راجعاً إلى محالٍ عليه خارجي، هو الرسول، وهذا ما أسهم في خلق تماسك النص، بالنظر في سياق المقام؛ ذلك أن هذه الآية نزلت حينما كان المسلمون يتصدقون على الفقراء من غير المسلمين، فلما كثرت فقرات المسلمين قال الرسول: لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام³، وجاء هذا العنصر الإحالي؛ ليربط النص بهذا المقام الخارجي، وكذلك جاء الضمير المتصل (هم)، في (هداهم)، ليحيل، بسياق المقام، على محالٍ عليه خارجي هو (المشركين)⁴؛ ليربط النص بالمقام نفسه، وهذا ما أفضى إلى تماسك وتلاحم بين سياق المقام الخارجي (سبب النزول)، وسياق النص الداخلي.

وجاء ضمير الواو في (تتفقوا)، وفي (تتفقون) وفي (لا تظلمون)، وضمير الكاف في (أنفسكم) وفي (إيكم)، والضمير المنفصل (أنتم)؛ لتحيل على مرجع سابق، هو (الذين آمنوا) في الآية السابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾⁵، إحالة نصية قبلية، وتُطابق هذه الضمائر المحال عليه (الذين آمنوا) في الجنس والعدد، ويدلُّ سياق المقال على أن هذا العنصر الإحالي هو مضمارة الخطاب؛ إذ تكرر ذكره في هذا المقطع من السورة (254-282) سبع مرات.

¹ ينظر: بدران، عبد القادر بن أحمد واهر، الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار، تحقيق: زهير الشاويش، لبنان، المكتب الإسلامي، 1991، ص314.

² ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج1، ص365.

³ ينظر: الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، ط1، ج1، القاهرة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، 1997، ص156.

⁴ الأزدي، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي، تفسير مقاتل بن سليمان، ط1، ج1، تحقيق عبد الله محمود شحاته، بيروت، دار إحياء التراث، 1423، ص224.

⁵ البقرة، 267.

أما الاسمُ الموصولُ (مَنْ)، فقد أحوالَ على العبادِ إحالةً مقاميةً، في قوله (مَنْ يَشَاءُ)، فربطَ الصلَّةَ، وهي جملةٌ (يَشَاءُ)، بسياقِ المقالِ، في قوله (الَّذِينَ آمَنُوا)، وربطَ النصَّ بسياقِ المقامِ، الذي نزلتْ فيه، كما مرَّ آنفاً.

وكذلك الاسمُ الموصولُ (مَا) الذي وردَ مكرراً ثلاثَ مراتٍ في هذه الآيةِ، في قوله: ﴿مَا تَتَّقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾، وقوله: ﴿مَا تَتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿مَا تَتَّقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾؛ ليحيلَ على أموالِ الصدقاتِ، في الآيةِ السابقة: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾¹، إحالةً نصيةً قبليةً، بقرينةِ جملةِ الصلَّةِ؛ ليربطَ هذه الآيةَ بسياقِ المقالِ الذي دلَّ على هذه الإحالة؛ ذلك أنَّ مضمَرَ الخطابِ في هذا المقطعِ من السورةِ (261)- (274) هو الصدقاتُ.

وفي هذه الآيةِ، أيضاً، استبدالُ شبهِ جملةٍ مع آيةٍ سابقةٍ، هي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾²، إذ استبدلَ لفظُ (من خيرٍ) بلفظِ (من نفقةٍ)، ووجهُ ذلك أنه قالَ في الآيةِ الوسطى بينَ هاتينِ الآيتينِ ﴿وَإِنْ تَخَفُوا وَتَوْتُواهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾³، فأخبرَ عن النفقةِ أنها خيرٌ، فجاءتِ الآيةُ (272) مؤكدةً هذه الخيريةَ، باستبدالِ لفظِ (من خيرٍ) بلفظِ (من نفقةٍ).

وتمَّ تكرارُ محضٍ قريبٍ على مستوى الجملةِ في هذه الآيةِ مع الآيةِ التاليةِ، وهي قوله: ﴿... تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْافًا وَمَا تَتَّقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾⁴، إذ تكررتُ جملةُ (وَمَا تَتَّقُوا مِنْ خَيْرٍ) مرتينِ في الآيةِ الأولى، ومرةً في الآيةِ الثانيةِ، وكذلك تكررَ في هذا الفصلِ من السورةِ (261)- (274)⁵ الأصلُ اللغويُّ (نفق) اثنتي عشرةً مرةً، تكراراً اشتقاقياً جزئياً، مراداً به الإنفاقُ في سبيلِ الله،

¹ البقرة، 271.

² البقرة: 270.

³ البقرة: 271.

⁴ البقرة، 273.

⁵ البقرة، 261، 262، 264، 265، 266، 267، 270، 272، 273، 274.

وجاءَ هذا التكرارُ منسجماً مع السياقاتِ المقاليَّةِ، التي مضمارُها الإنفاقُ في سبيلِ الله، وأجرُ المنفقين، وفضلُ الصدقاتِ.

ووردَ فيها مصاحبةٌ معجميَّةٌ بعلاقةِ التلازمِ الذكريِّ مع الآيةِ السابقة: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُوتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾¹، وذلكَ بينَ الألفاظِ: (تتفقوا، والصدقات، والفقراء)، ووجهُ ذلكَ أنَّ الإنفاقَ فعلٌ يلزمُ من ذاتِ منقولةٍ، هي الصدقاتُ، إلى مفعولٍ محتاجٍ هو الفقراءُ، وقد ربطتْ علاقةُ التلازمِ بينَ أجزاءِ هذه العمليةِ في هاتينِ الآيتينِ، فبدأ فعلُ الإنفاقِ في فاعلهِ ومفعوليَّه في صورةٍ واحدةٍ متكاملةٍ الأجزاءِ.

أمَّا الحبكُ، فقد وردَ في هذه الآيةِ بعلاقةِ التلازمِ المعنويِّ، إذ تضمنتْ هذه الآيةُ الحثَّ على الإنفاقِ ابتغاءَ وجهِ الله، ولا يخفى أنَّه يلزمُ من عمليَّةِ فعلِ الإنفاقِ وجودُ فاعلٍ ومفعولينِ بالنَّصبِ أو بالجرِّ للمعنى²، وقد وردَ في هذه الآيةِ فاعلُ الإنفاقِ، وهو ضميرُ الواوِ في (تتفقوا وتتفقون)، العائدُ على المؤمنينَ، ومفعولُ الإنفاقِ الأولُ، وهو الخيرُ (من خيرٍ)، ويلزمُ من هذا وجودُ المفعولِ الثاني بالضرورة، وهو المنفقُ عليهم (الفقراءُ)، وقد جاءَ ذكرُهُ في الآيةِ التاليةِ مباشرةً في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ...﴾³؛ لينعقدَ بينَ الآيتينِ تماسكٌ نصيٌّ بعلاقةِ التلازمِ بينهما، رغمَ اختلافِ وصفهما.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁴، جاءَ الكلامُ موصولاً بالواوِ العاطفةِ وصلًا إضافيًّا قبليًّا مع الآيةِ السابقة: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى

¹ البقرة، 271.

² يكثر في عبارات النحاة القدماء تسمية المجرور مفعولاً به، يقول ابن جني: "الفعل في التعدّي إلى المفعول به على ضربين فعل مُتَعَدٍّ بنفسه وفعل مُتَعَدٍّ بحرف جر فالمتعدي بحرف الجر نحو قولك مررت بزيد ونظرت إلى عمرو وعجبت من بكر ولو قلت مررت زيدا وعجبت بكرًا فحذفت حرف الجر لم يجز ذلك إلا في ضرورة شعر غير أن الجار والمجرور جميعًا في موضع نصب بالفعل السذي قبلهما". ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، الكويت، دار الكتب الثقافية، دت، ص 51.

³ البقرة، 273.

⁴ البقرة، 281.

مَيْسِرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ¹، وقد ترابطت الآيتان ترابطاً معنويّاً، ذلك أنّ الجملة الأولى (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ) طلبية معنّى، والجملة الثانية (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) طلبية لفظاً ومعنّى، فنضمت الآية الأولى خصوص الصدقة، والثانية عموم الانتقاء؛ ذلك أنّ انتقاء اليوم الآخر يلزم منه جملة من الأعمال، الصدقة منها، وقد جاءت الواو؛ لتجمع بين المعنيين، لما بينهما من خصوص وعموم، فهو عطف عمل صالح عام على عمل صالح خاص، وقد ساغ ذلك؛ لما بينهما من مغايرة.

وورد في هذه الآية جملة مكررة، وهي (وَاتَّقُوا يَوْمًا)، إذ تكررت في هذه السورة ثلاث مرات تكراراً محضاً تاماً على مستوى الجملة، مرة في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾²، وأخرى في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾³، ولعل سرّ التكرار في هذه الآيات الواردة في مواضع مختلفة، أنّ كلا منها جاء تلو معصية؛ لإرادة التنبيه والوعظ⁴، وكذلك تكرّر الفعل الطلبي (اتقوا)⁵ تكراراً محضاً ثلاث عشرة مرة في سائر آيات السورة، وتكرّر الأصل اللغوي (وقي) أربع عشرة مرة⁶، تكراراً اشتقاقياً جزئياً من غير صيغة (افعل) الطلبية، وهذا التكرار متعلق بالسياقات الواردة فيها، فأسهّم في ربط أجزاء النص وتلاحمها.

¹ البقرة، 280.

² البقرة، 48.

³ البقرة، 123.

⁴ ينظر: الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج1، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1996، ص147. وينظر: الكرمانلي، أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مصر، دار الفضيلة، د.ت، ص78.

⁵ البقرة، 24، 48، 123، 189، 194، 196، 203، 223، 231، 233، 278، 281، 282.

⁶ البقرة، 21، 41، 63، 103، 177، 179، 183، 187، 197، 199، 224، 237، 282.

وفيها مصاحبةٌ معجميةٌ بعلاقةِ التلازمِ الذكريِّ مع آيةٍ سابقةٍ، وهي قوله: ﴿... وَإِنْ نُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾¹، وجاءتُ بينَ الفعلينِ (تبتُم) و(اتقوا)، ووجهُ ذلكَ أنهُ يلزمُ من التوبةِ الاتقاءُ، فالمعنى الثاني مُنبثٌ عن الأولِ بالضرورة؛ ذلكَ أنَّ التائبَ عن معصيةِ الربِّ لا يتوبُ إلا اتقاءً لذلكَ اليومِ الذي يرجعُ فيه إلى الله.

2.2 سورة النساء

مدنيَّةً، واستثنى بعضهم² آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾³، وذهبوا إلى أنها ممَّا نزلَ في مكة. وفي هذه الآيةِ إحالةٌ مقاميةٌ، إذ جاءتِ الضمائرُ: الكافُ في (يَأْمُرُكُمْ، يَعِظُكُمْ)، والواوُ في (تُؤَدُّوا، تَحْكُمُوا)، والتاءُ في (حَكَمْتُمْ)؛ لتحيلَ، بسياقِ المقامِ، على مرجعٍ خارجيٍّ، هوَ ولاةُ الأمرِ، الذين نزلتْ فيهمِ هذه الآيةُ⁴، وقد دلَّ سياقُ المقالِ، في الآيةِ التاليةِ، على هذه الإحالةِ الخارجيةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾⁵، فنصتِ الآيةُ على هذا المحالِ عليه (ولاةُ الأمرِ)، ويعززُ هذا أنَّ موضوعَ الحاكميةِ وردَ مرتينِ في هذا المقطعِ من السورةِ (58 - 68)، في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُنَحِّكُمُوهَا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾⁶، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾⁷.

¹ البقرة، 279.

² ينظر: السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي التميمي، تفسير السمعاني، ط1، ج1، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، السعودية، دار الوطن، 1997، ص392. وينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، ج2، ص3. وينظر: الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج1، ص366.

³ النساء، 58.

⁴ ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج8، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2000، ص490. وينظر: النيسابوري، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، كتاب تفسير القرآن، ط1، ج2، تحقيق: سعد بن محمد السعد، المدينة النبوية، دار المآثر، 2002، ص762.

⁵ النساء، 59.

⁶ النساء، 60.

⁷ النساء، 65.

كما حُبِكَتْ هذه الآيةُ بعلاقةِ البيانِ والتفسيرِ مع الآيةِ التاليةِ لها: ﴿... فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾¹، والوجهُ في ذلك أن الآيةَ الأولى أمرتُ بالعدلِ حالَ الحُكْمِ بينَ الناسِ، وجاءَ العدلُ مُبهماً، فلم تبيِّنِ الآيةُ حدَّ العدلِ ولا تفسيره²، حتى جاءتِ الآيةُ الثانيةُ؛ لتبيِّنَ ماهيتها، وتفسِّرَ المقصودَ منه، عندَ قوله " فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ"، فاتَّضحَ بذلك أن المرادَ بالعدلِ هوَ الحُكْمُ بالقرآنِ والسنة³، وهذا ما جعلَ الآيتينِ محبوبتينِ بعلاقةِ البيانِ والتفسيرِ.

2.3 سورة المائدة

انتفقوا على مدنيَّتها، واستثنى الجرجاني⁴، وفخر الدين الرازي⁵ آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخُزْيِرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ لِلْيَوْمِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁶، وعداها مما نزلَ في مكة.

وقع في هذه الآيةِ جملةٌ من الإحالات، فالضمانُ الواردةُ فيها: الكافُ في (عَلَيْكُمْ، لَكُمْ، دِينَكُمْ، عَلَيْكُمْ)، والتاءُ في (ذَكَّيْتُمْ)، والواوُ في (تَسْتَقْسِمُوا، تَخْشَوْهُمْ، اخْشَوْنَ) تحيلُ على (الذين آمنوا) في الآيةِ السابقة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾⁷، وقد دلَّ سياقُ المقامِ على هذه الإحالة؛ ذلك أنَّها نزلتُ في

¹ النساء، 59.

² ينظر: القلموني، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج5، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ص139.

³ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج8، ص505.

⁴ ينظر: الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، درج الدرر في تفسير الآي والسور، ط1، ج2، تحقيق وليد بن أحمد بن صالح الحسين، وإياد عبد اللطيف القيسي، بريطانيا، مجلة الحكمة، 2008، ص647.

⁵ ينظر حاشية: الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور، ط1، ج2، ص647.

⁶ المائدة، 3.

⁷ المائدة، 2.

يوم عرفة، في حجة الوداع سنة عشر، والنبى واقف بعرفات على ناقته¹، ليدل ذلك على أن من كان مضماراً للخطاب في هذا الآيات (1-11) هو المؤمنون؛ إذ تكرر هذا العنصر (الذين آمنوا) في هذه الآيات ست مرات، وفي سائر السورة اثنتين وعشرين مرة.

وجاء ضميرُ التاء في (أَكْمَلْتُ، أَتَمَمْتُ، رَضِيتُ)، وضميرُ الياء في (أَخْشَوْنِ، نِعْمَتِي) محيلاً، بسياق المقام، على محالٍ عليه خارجي، وهو المتكلم (الله)، إحالةً خارجيةً مقاميةً، وقد دلَّ سياقُ المقالِ على هذا العنصر، بإحالة سائرِ ضمائرِ المتكلمِ في المقطعِ الأولِ من السورة (1-12)، كضميرِ الياءِ في (إني، رسلي)، والضميرِ (أنا) المستترِ في (لَأَكْفِرَنَّ، لَأُدْخِلَنَّكُمْ) على المرجعِ نفسه (الله).

أمَّا اسمُ الإشارةِ (ذلكم)، فإنه يحيلُ على حُكْمِ التحريمِ السابقِ في الآيةِ نفسها، إحالةً نصيةً قبليةً، وقد أغنى هذا العنصرُ الإحاليُّ، عن تكرارِ مجموعةٍ من الجملِ والأسماءِ، بتحقيقِ أركانِ الإشارةِ التالية:

- المشيرُ: اللهُ سبحانه وتعالى.
- المشارُ له: (الذين آمنوا) في الآيةِ السابقة.
- المشارُ إليه: حُكْمُ التحريمِ الشرعيُّ.
- المشارُ به: ذلكم.

وكذلك تكرر الاسمُ الموصولُ (ما) ثلاثَ مراتٍ في هذه الآيةِ، في قوله: ﴿مَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وقوله: ﴿مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ وقوله: ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾؛ ليحيلَ على الأنعامِ، في الآيةِ السابقة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةٌ الْأَنْعَامِ﴾² إحالةً نصيةً قبليةً، بقرينةِ جملةِ الصلَّةِ، فيربطُ هذه الآيةَ مع آياتِ المقطعِ الأولِ من السورة (1-4)، إذ جاءَ مضمارُ الخطابِ في هذا المقطعِ دالاً على هذه الإحالة، بقرينةِ أنَّ محورَ سياقِ المقالِ هو الأنعامُ التي يجوزُ أكلُها، والتي لا يجوزُ.

¹ ينظر: النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، أسباب نزول القرآن، ط2، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الدمام، دار الإصلاح، 1992، 190.

² المائدة، 1.

وفيها استبدالٌ جُمليٌّ مع الآيةِ التاليةِ، وهي قوله (تعالى): ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾¹، إذ استبدلت جملة (وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ) بجملة (وَمَا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)، والمرادُ مِمَّا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ: ما ذُكِرَ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ عِنْدَ الذَّبْحِ²، وإن كانت الجملة الأولى تنفي الإهلالَ (رفع الصوت) عن اسمِ الله، والثانية تثبتُ ذِكْرَ اسمِ الله، إلا أنه لم يقل في الأولى (ما لم يُذكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ)، ولا في الثانية (أهَلُّوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ)؛ وذلك لتحقيق الاستبدالِ الجُمليِّ، بمطابقة الكلامِ لمقتضى الحالِ، فقد كان المشركونَ في الجاهليَّةِ يهَلُّونَ (يرفعون أصواتهم) عندَ الذَّبْحِ، فيقولون: باسمِ اللاتِ والعزى³، فأصبحَ المسلمونَ، من بعدُ، يذكرونَ اسمَ اللَّهِ عِنْدَ الذَّبْحِ، فجاءَ هذا الاستبدالُ رابطاً الكلامَ بسياقِ الحالِ من جهةٍ، ومُحَقِّقاً لِلتَّماسكِ النَّصِيِّ من جهةٍ أُخرى.

ووقع في هذه الآيةِ حذفٌ لشبهه الجملة (من بهيمة الأنعام) مرتين، الأولى تعلقتُ بالفعلِ (ذَكَيْتُمْ)، والتقديرُ: "إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ"، والثانية تعلقتُ بالفعلِ (ذَبَحَ)، والتقديرُ: "وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصْبِ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ"، ودليلُ هذا الحذفِ مقالِي قَبْلِي، بقريئة قولِهِ ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾⁴، في الآيةِ الأولى من السورة، ووجهُ ذلك الحذفِ أنَّ محورَ الكلامِ في هذا المقطعِ من السورةِ هوَ (بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ)، فلمَّا صرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى حَذَفَهُ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَاتِ؛ لِحُضُورِهِ فِي الذَّهْنِ، وَدَفْعًا لِلتَّكْرَارِ، الَّذِي يُوَدِّي إِلَى طَوْلِ الْكَلَامِ.

وكذلك وقعَ فيها حذفٌ اسميٌّ لِلْفَاعِلِ (اللَّهُ)، ببناءِ الفعلِ (حَرَّمَ) لِلْمَفْعُولِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، وتقديرُ الكلامِ: (حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)، ودليلُ هذا الحذفِ القريئةُ المقاميَّةُ، ذلك أنَّ الفاعلَ معلومٌ في ذهنِ المتلقي، فقد قررتِ العقيدةُ الإسلاميَّةُ أَنَّ الْمُحَرَّمَ هُوَ اللَّهُ، وَيُوكِّدُ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ

¹ المائدة، 4.

² ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص90.

³ ينظر: الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، ج1، القاهرة، مطبعة بولاق (الأميرية)، 1285هـ، ص352.

⁴ المائدة، 1.

الفعل (حُرِّمَ) معطوفٌ على الفعلِ (أُحِلَّ)¹ في الآية الأولى من السورة، فمن المعلوم، أيضاً، أنَّ المُحَلَّلَ هوَ اللهُ، وربَّما يكونُ دليلُ الحذفِ قرينةً مقاليَّةً قبليَّةً، في الآية السابقة، وهي قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾²، فلما أضاف تلكَ الشعائرَ اللهُ، حَسُنَ بعدها حذفُ الفاعلِ (الله) من الفعلِ (حُرِّمَ)؛ لأنَّه باتَ معلوماً أنَّ تلكمَ الشعائرَ المحرَّمةَ خاصةً بالله، ولولا هذا الحذفُ لذكرَ الفاعلُ غيرَ مرةٍ في هذه السورة، وتكرَّرَ تكراراً مُخِلًّا.

وتكرَّرَ فيها الأصلُ اللغويُّ (حرم) تكراراً اشتقاقياً جزئياً، إذ وردَ في سائرِ آياتِ السورة سبَعِ مراتٍ³ في مواضعٍ متفرقةٍ من السورة، وسرُّ هذا التكرارِ أنَّ هذه السورة اشتملتْ على جملةٍ من الأحكامِ الشرعيةِ المُحرَّمةِ، كالخمرِ والميسرِ، والأنصابِ، والأزلامِ، والصيدِ في حالةِ الإحرامِ، وأطعمةٍ من الذبائحِ، وبعضِ الجرائمِ⁴.

وفي هذه الآيةِ المكيَّةِ ثلاثُ مصاحباتٍ معجميَّةٍ، مع آياتٍ أُخرى مدنيَّةٍ:

أ. علاقةُ التضادِّ أو المقابلةِ: وردَ التضادُّ بينَ قوله: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ"، وقوله في الآيةِ التاليةِ: "أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ"⁵، فلما بيَّنتِ الآيةُ الأولى المحرَّمة، استدعى ذلكَ ذِكْرَ المُحَلَّلَاتِ، فربطتْ بينَ الشيءِ وُضدِّهِ، وتتابعَ الحُكْمَانِ الشرعيَّانِ على نَسَقٍ واحدٍ؛ ليؤكدَ كلُّ منهما الآخرَ، باعتبارِ علاقةِ التضادِّ، فبدا الحُكْمَانِ، بمفهوماهما الشرعيَّ، أكثرَ تفصيلاً ووضوحاً ورسوخاً في ذهنِ المتلقي.

¹ ينظر: النعماني، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، الباب في علوم الكتاب، ط1، ج6، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، ص301.

² المائدة، 2.

³ المائدة، 1، 3، 26، 72، 87، 95، 96.

⁴ ينظر: أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، زهرة التفاسير، ج4، ص2003.

⁵ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، المائدة، 4.

وكذلك جاء التضاد بين قوله في هذه الآية: "فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، وقوله في آية سابقة: "إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"¹، وقد جاء هذا التضاد منسجماً مع السياق المقالي في هذا الفصل من السورة، فإن كان لأفعال الإنسان وصفان متضادان: حلالٌ وحرامٌ، فإن ذات الله لها وصفان متضادان: شديد العقاب، وغفورٌ رحيمٌ، يقابلان وصفي الإنسان، وهذا ما يدعُو المتلقي إلى الوقوف على ترتيب هذه المتقابلات في ذهنه، فيشعرُ بترابط النصِّ وتماسكه.

ب. علاقة التلازم الذكري: جاءت هذه المصاحبة في هذه الآية في قوله: "مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ"، وفي آية سابقة عند قوله: "وَلَا الْهَدْيَ"²، ووجه ذلك أنه يلزم من التذكية والذبح على النصب ذاتٌ مذبوحة، وهي الهدى، ويؤكد هذا التلازم بينهما قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ...﴾، "وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِجُّونَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَيَهْدُونَ الْهَدَايَا، وَيَعْظُمُونَ حُرْمَةَ الْمَشَاعِرِ، وَيَنْحَرُونَ فِي حِجِّهِمْ، فَأَرَادَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، وَفِي قَوْلِهِ ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يَعْنِي لَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالًا فِيهِ"³، ولا الهدى ولا القلائد، أمّا الآية الثانية، فقد جاءت لتبيح ذبح الهدى في غير هذه الحال.

ج. علاقة الانتماء إلى مجموعة غير منتظمة، أو الارتباط بموضوع معين: جاءت هذه المصاحبة في هذه الآية عند قوله: "وَالْمُنْحَنَفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ"، فهذه الألفاظ الخمسة جاءت منتمية إلى مجموعة الدهائم الواردة في الآية الأولى من السورة "أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةٌ

¹ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبُرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، المائدة، 2.

² ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبُرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، المائدة، 2.

³ السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، ج3، ص7.

الأَنْعَامِ¹، وقد اجتمعت هذه الأصناف من بهيمة الأنعام؛ لتدلّ على ما حُرِّمَ منها، فبدت مترابطةً فيما بينها مع لفظ الموضوع، أو المجموعة (البهائم)، بنسقٍ سياقيٍّ واحدٍ.

2.4 سورة الأنفال

مدنيةٌ إجماعاً، واستنتى بعضهم سبع آياتٍ²: (30-36)، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾³، إلى آخر الآيات السبع⁴، واستنتى آخرون آيةً واحدةً⁵، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁶.

وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾⁷، جاء ضميرُ الجمع المتصلُّ (هم)، في قوله (لِيُعَذِّبَهُمْ، فِيهِمْ)، محيلاً على مرجع سابق، هو (الَّذِينَ كَفَرُوا) من أهل مكة⁸، في آيةٍ سابقةٍ، هي: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ إحالةً نصيةً داخليةً، ومما يدلُّ على هذه الإحالة أنَّ مضمارةَ الخطابِ هو مرجعُ ضمائرِ الجمعِ في هذا المقطع من السورة (30-38)، كالواوِ في (لِيُثْبِتُوكَ، يَقْتُلُوكَ، يَمْكُرُونَ، فَذُقُوا، تَكْفُرُونَ، يَنْفِقُونَ، لِيَصِدُّوا، يَنْتَهُوا، يَعُودُوا...)، والهاءِ (هم) في (عَلَيْهِمْ، أَكْثَرَهُمْ، صَلَاتُهُمْ، لَهُمْ...) وغيرهما، كما تكررَ هذا العنصرُ الإحاليُّ (الَّذِينَ كَفَرُوا) مرتينِ في هذا المقطع، وإحدى عشرة مرةً في سائرِ آياتِ السورة.

¹ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، المائدة، 1.

² عن ابن عباس وقتادة: مدنية إلا سبع آيات نزلت بمكة قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقيل: نزلت آية واحدة بمكة وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾. الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور، ط1، ج2، ص825.

³ الأنفال، 30.

⁴ ينظر: الناصري، محمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير، ط1، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص309. وينظر: أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، زهرة التفاسير، ج6، ص305.

⁵ ينظر: الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور، ط1، ج2، ص825.

⁶ الأنفال، 65.

⁷ الأنفال، 33.

⁸ ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج13، ص510.

غيرَ أنَّ ضميرَ الجمعِ (هم)، في قوله (مُعَذِّبُهُمْ، هُمْ)، وضميرَ الجمعِ الواوِ، في قوله (يَسْتَغْفِرُونَ) جاء محيلاً على مرجعٍ سابقٍ، هوَ (المؤمنون)¹ في آيةٍ سابقةٍ هي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾² إحالةً نصيَّةً داخليةً، ذاتَ مدىٍ بعيدٍ، وقد جاءَ هذا العنصرُ الإحاليُّ (المؤمنون) مضماراً للخطابِ في المقطعِ السابقِ (15-29) لهذه الآية، وجاءتْ ضمائرُ الجمعِ الواردةُ محيلةً عليه، كالواوِ في (تَسْتَقْتِحُوا، آمَنُوا، تَسْمَعُونَ، لَا تَكُونُوا، اسْتَجِيبُوا، تَحْسَرُونَ، اتَّقُوا، اذْكُرُوا، اعْلَمُوا...)، والكافِ (كم) في (يُحْيِيكُمْ، مِنْكُمْ، يَخْطِفُكُمْ، فَأَوَاكُمُ، وَأَيِّدُكُمْ، وَرَزَقَكُمْ، أَمْوَالَكُمْ، وَأَوْلَادَكُمْ...) وغيرها.

أما ضميرُ المخاطبِ المنفصلُ (أنتَ)، فإنه يحيلُ على الرسولِ³ إحالةً خارجيةً مقاميةً، وقد دلَّ سياقُ المقالِ في السورةِ على هذا المحالِ عليه، إذ جاءتْ ضمائرُ الخطابِ للمفردِ محيلةً على مَنْ كَانَ مضماراً للخطابِ (الرسولِ)، في سائرِ آياتِ السورة، كقوله (بِسْأَلِنَاكَ، أَخْرَجَكَ، رَبُّكَ، يَجَادِلُونَكَ...) وغيرها؛ لتكشفَ عن تماسكِ هذه الآيةِ المكيَّةِ مع آياتِ مدنيَّة.

أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁴، ففيه تكرارٌ على مستوى الجملة، إذ كررتُ جملةُ (حَسْبُكَ اللَّهُ) تكراراً محضاً قبلتاً قريباً، بعدَ أنْ وردتْ في آيةٍ سابقةٍ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾⁵، والرابطُ بينَ الموضعينِ ما بينهما مِنْ خصوصٍ وعمومٍ، فالمعنى في قوله: (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ...) خاصٌّ: إنْ أَرَادُوا خِدَاعَكَ كَفَاكَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ، والمعنى في قوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...) عامٌّ في كلِّ كفايةٍ تحتاجُ إليها⁶.

¹ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج13، ص510.

² الأنفال، 2.

³ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج13، ص517.

⁴ الأنفال، 64.

⁵ الأنفال، 62.

⁶ ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، التفسير البسيط، ط1، ج10، تحقيق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، 1430هـ، ص230.

وكذلك كررت جملة (يا أيها النبي) في هذا المقطع من السورة ثلاث مرات، تكراراً محضاً قبلتاً بعدتاً، فقد وردت الجملة نفسها في آيتين تاليتين، هما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾¹، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى...﴾²، وسرُّ هذا التكرار هو أن مضمارة هذا الفصل من السورة (61-71) هو النبي، فقد جاء الخطاب موجهاً لشخصه، ودلَّ على ذلك قرائنٌ مقاليةٌ عدة، منها قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾³، وقوله: ﴿...لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ...﴾⁴، وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ...﴾⁵.

2.5 سورة التوبة

مدنيةٌ إجماعاً، واستنتى بعضهم آخر آيتين منها⁶، وهما قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾⁷، واستنتى آخرون آيةً واحدةً، وهي قوله تعالى⁸: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾⁹.

وقد ورد في هذه الآية مصاحبةٌ معجميةٌ بعلاقة الكل بالجزء: جاء الكل في هذه الآية بلفظ (أولي قربي)، والجزء في الآية التالية بلفظ (أبيه) عند قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ...﴾¹⁰؛ فتقدم لفظ الكل؛ ليفيد منع الاستغفار لعموم أولي القربي من المشركين، ثم بيّنت الآيات أن

¹ الأنفال، 65.

² الأنفال، 70.

³ الأنفال، 61.

⁴ الأنفال، 63.

⁵ الأنفال، 71.

⁶ ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج2، 230.

⁷ التوبة، 128، 129.

⁸ ينظر: ابن منلا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج10، ص131.

⁹ التوبة، 113.

¹⁰ التوبة، 114.

استغفار إبراهيم لأبيه كان خاصاً؛ رجاء أن يؤمن، ولما ظهرت عداوته لله ترك إبراهيم الاستغفار¹، وقد أفادت هذه العلاقة إظهار الغرض من العموم، مع العناية بالشأن الخاص، فجاء السياق المقالي في هاتين الآيتين مترابطاً.

ووقع في هذه الآية حبك معنوي بعلاقة الإجابة بالسؤال بينها وبين الآية التالية: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾²، فلما كان الحكم الشرعي في الآية الأولى تحريم استغفار المؤمنين للمشركين، ولو كانوا أولي قربي، وقع في خاطر سؤال مقدر³، حق له أن يقع، "كيف استغفر إبراهيم لأبيه، وقد كان أبوه من المشركين؟"⁴، فجاء الجواب في الآية التالية؛ ليبيّن أن ثمّ فارقاً في القياس بين الاستغفارين، ووجهه أن أبا إبراهيم وعده أن يؤمن، فاستغفر له إبراهيم؛ طمعا في ذلك، فلما أصرّ على كفره تبرأ منه، وترك استغفاره له⁵، وقد حققت هذه العلاقة فاعليّة في ربط الآيتين، والاستمرار النصي؛ إذ إنّ السؤال يثير حاجة عقليّة إلى جوابه بصورة ملحّة.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾⁶ أحوال ضمير الجمع المتصل (الواو) في قوله (تَوَلَّوْا) على مرجع سابق، وهو الكفار المذكورون في آية سابقة⁷، والموصوفون بقوله "الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ" من كفار العرب⁸، في الآية السابقة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ

¹ ينظر: السمعاني، تفسير السمعاني، ط1، ج2، ص353.

² التوبة، 114.

³ ينظر: ابن عرفة، محمد بن محمد الورغمي التونسي، تفسير ابن عرفة، ط1، ج2، تحقيق: جلال الأسيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008، ص330.

⁴ الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، ج6، القاهرة، دار الفكر العربي، دت، ص905. وينظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، ط1، ج11، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1946، ص37.

⁵ "وقد يقال: إن إبراهيم لم يرد باستغفاره لأبيه حقيقة الاستغفار، إنما دعا له بما هو لازم المغفرة، وهو الإيمان، كأنه قال: اهد أبي ليصير أهلاً للمغفرة، يدل على هذا قوله: ﴿وَإِغْفِرْ لِي﴾ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) [الشعراء: 86] فلما علل بضلاله دل على أنه إنما دعا له بضد الضلال، وهو الهدى والإيمان". الطوفي، أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الصرصري، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ط1، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005، ص321.

⁶ التوبة، 129.

⁷ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْجِدُوا فِيكُمْ غُلظَةً﴾. التوبة، 123.

⁸ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج14، ص588.

في قلوبهم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ¹، إحالة نصيَّةً قَبْلِيَّةً، تطابقُ المحالِ عليه، وذاتَ مدَى قَرِيبٍ؛ لتقومَ بدورِ تماسُكِ هذه الآيةِ مع ما قَبْلَها، ذلكَ أنَّ مضمَارَ خطابِ ضمائرِ الجمعِ في آخرِ مقطعٍ من السورةِ (123-129)، هوَ المرجعُ نفسُه (كفارُ العربِ)، كالكافِ (كم) في (يَلُونَكُمْ، أَيُّكُمْ، يَرَاكُمْ، جَاءَكُمْ، عَلَيَّكُمْ)، والواوِ في (وَلَيَجِدُوا، مَاتُوا، يَرَوْنَ، يُفْتَنُونَ، لَا يَتُوبُونَ، يَذَكَّرُونَ، انصَرَ قَوًّا، لَا يَفْقَهُونَ)، والهاءِ (هم) في (فَمِنْهُمْ، قُلُوبِهِمْ، فَزَادَتْهُمْ، رِجْسِهِمْ، وَهُمْ، بَعْضُهُمْ) وغيرها.

أمَّا الضميرُ المفردُ الذي جاءَ مرةً للمخاطبِ (أنتَ)، في قوله (فقلْ)، ومرتينِ للمتكلِّمِ، (الياءِ) في قوله (حسبي)، وضميرُ الرفعِ (التاءِ) في قوله (توكلتُ)، فإنه يُحيلُ على الرسولِ الكريمِ، إحالةً مقاميةً قَبْلِيَّةً، وقد دلَّ سياقُ المقالِ على مضمَارِ خطابِ الضمائرِ المفردة²، بإحالتها في سائرِ آياتِ السورةِ إلى الرسولِ، إذ وردَ الفعلُ (قُلْ) اثنتي عشرةَ مرةً، محيلًا الضميرَ المستترَ (أنتَ) على الرسولِ، كما وردتْ جملةٌ أخرى من الضمائرِ المفردة، تحيلُ على المرجعِ نفسه، كضميرِ الهاءِ المفردِ في (تَنصُرُوهُ، نَصْرَهُ، أَخْرَجَهُ، صَاحِبِهِ، عَلَيْهِ، وَأَيْدِيَهُ)، وضميرِ الكافِ المفردِ في (عَنكَ، لَكَ، يَسْتَأْذِنُكَ، تُصِيبُكَ، تُعْجِبُكَ، يَلْمِزُكَ)، وغيرها.

يَتَضَحُّ، ممَّا سبقَ من دراسةِ وسائلِ السبكِ والحبكِ في هذه السُورِ المدنيَّةِ الطَّوَالِ، انسجامُ سائرِ الآياتِ المكيَّةِ المستنثاةِ مع ما قَبْلَها وما بعدها من مدنيِّ السُورِ، وهذا يكشفُ عن ملحظِ تماسُكِ السُورةِ، واتصالِ أجزائها، وثبوتِ نصيَّتها الكليةِ، وسيُستفَعُ هذا الدرسُ بدرسٍ آخرٍ مماثلٍ في الآياتِ المدنيَّةِ المستنثاةِ في الفصلِ التالي.

¹ التوبة، 125.

² أحال ضمير الهاء المفرد في قوله "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ" إحالة صريحة على الرسول، بسياق المقام (المناسبة) الدال على قصة الغار. ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق، دار القلم، 1415هـ، ص464.

الفصل الثالث

السبك والحبك في المدني المدمج في المكي

يجيء هذا الدرس موصولاً بالدرس السابق، ومبنيًا عليه، بانتخاب مثل آياتٍ مدنيّةٍ مستثناةٍ من سورٍ مكيّةٍ، وذلك بإعمال وسائل السبك والحبك في هذه البؤرة؛ لاختبار وصف التماسك النصي فيها؛ بغية استثمار نتيجة ذلك في إحكام توصيف ما تداخل من الآي المكي والمدني، للغاية السابقة نفسها.

3.1 سورة الأنعام

مكيّةٌ إلبا الآيات: (20 و 23 و 91 و 93 و 114 و 141 و 151 و 152 و 153) فمدنيّةٌ¹، وقيل: سورة الأنعام مكيّةٌ، إلبا سبب آياتٍ نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر ثلاث آيات: (91 و 92 و 93)، و: ﴿وَقُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر ثلاث آيات²: (151 و 152 و 153).

ووقع في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾³، استبدال اسمي مع الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ...﴾⁴، إذ استبدل لفظ (الكتاب) بلفظ (القرآن)، ووجه ذلك أنّ الكلام في الآية "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ..." عن اليهود والنصارى⁵، ومضمار الكلام في آية "قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً..." هو الرسول، ومعلوم أنّ النصّ القرآني يستعمل لفظ الكتاب استعمالًا عامًا، إمّا مرادًا به التوراة والإنجيل، وإمّا مرادًا به القرآن، ولا يستعمل لليهود والنصارى لفظ القرآن، وإنما جعله

¹ ينظر: الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، ج12، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ، ص471.

² ينظر: الشوكاني، فتح القدير، ط1، ج2، ص111. وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج6، ص382.

³ الأنعام، 20.

⁴ الأنعام، 19.

⁵ ينظر: ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم، ط1، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المملكة العربية السعودية، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1419هـ، ص255.

علماً على الكتاب المنزل على المسلمين خاصة، لذا؛ جاء هذا الاستبدال؛ ليربط الكلام بسباق الحال الذي نزل فيه.

وجاءت هذه الآية موصولة بالواو وصلًا إضافيًا بعددًا مع الآية التالية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾¹، ورغم أن جملة "الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" خبرية، وأن جملة "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ" إنشائية، إلا أن الآيتين مترابطتان معنويًا، فالمراد بـ(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ)، والذين افتروا على الله كذبًا هم اليهود والنصارى، فقد "رُويَ أَنَّ الكفارَ، سألوا اليهودَ والنصارى، عنَ صفةِ محمدٍ، فأنكروا أَنَّ في التوراة والإنجيل شيئاً يدلُّ على نُبوتِهِ، فبيَّنَ اللهُ، هاهنا، أَنَّ شهادةَ اللهِ على صحةِ نُبوتِهِ، كافيةٌ في ثبوتها وتحققها، ثم بيَّنَ في هذه الآية كذبَهُم في ادعائِهِم أَنَّهُم لا يعرفونَ محمدًا، فَهُم يعرفونَهُ بالنبوة والرسالة كما يعرفونَ أبناءَهُم"²، "وقَدْ جَعَلَ الآتيَ بواحدةٍ من هاتينِ الخصلتينِ أَظلمَ النَّاسِ؛ فكيفَ يَمَنُ جمعوا بينهما؟"³، لذا؛ ناسبَ وصلُ الجملتينِ، وعطفُ الثانيةِ على الأولى بالواو؛ ليكونَ افتراءُ الكذبِ موصولًا بخسرانِ أنفسهم.

وفيها تكرارٌ محضٌ قبليٌّ على مستوى الجملة، مع آيةٍ سابقةٍ، وهي قوله: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁴، فقد تكررت جملة "الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" مرتينٍ لفظًا ومعنى، وإن كان المعنى واحدًا، فإنَّ السِّياقَ مختلفًا، فالأولى لأهل الكتاب، والثانية للمشركين⁵، ويجمعُ بين الآيتين أَنَّهُمَا تنبيهٌ بالخسرانِ فالوعيد، للمشركين بصورةٍ عامَّةٍ، سواءً أكانوا من أهل الكتاب، أم من غيرِهِم.

¹ الأنعام، 21.

² ينظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، ج7، ص94.

³ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص172.

⁴ الأنعام، 12.

⁵ ينظر: ابن جماعة، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناي، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ط1، تحقيق: عبد الجواد خلف، مصر، دار الوفاء، 1990، ص156.

وقد حُبكت هذه الآية بعلاقة التعليل مع الآية التالية لها، وهي قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، ووجه ذلك أن علة خسرتهم أنفسهم بإهلاكها¹ أنهم "افتروا على الله الكذب، فحرفوا كلماته، وبدلوا آياته، وقالوا في محمد، وفي كتابه، غير ما عرفوه من كتاب الله عندهم"²، إذن؛ فالآيتان مترابطتان ترابطاً علة، أدت إلى استمرارية المعنى، وانسجامه.

وفي قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾³، جاء ضمير المفرد المستتر (أنا) في قوله (أبغى)، والضمير (أنت) المستتر في (تكونن)، والضمير المتصل (الكاف) في قوله (ربك) محيلاً على محال عليه خارجي، هو الرسول، وقد تماسكت هذه الآية مع هذا المحور من السورة (144-119)، بإحالة سائر الضمائر المفردة إلى المرجع نفسه (الرسول)، كالكاف في (ربك)، الواردة أربع مرات، هاهنا، وفي (يضلوك)، والضمير (أنت) المستتر في (تطع)، كما يتجلى تماسك هذه الآية، مع سائر آيات السورة، بتكرار المحال عليه بالكلمة نفسها (ربك) سبع عشرة مرة في السورة كلها.

وجاء ضمير الكاف في قوله (إليكم) محيلاً على محال عليه داخلي، وهو (الذين لا يؤمنون بالآخرة)⁴، إحالةً قبليةً نصيةً، في الآية السابقة: ﴿وَلْتَصْنَعِ إِلَيْهِ أَفئِدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾⁵.

أمّا الاسم الموصول (الذين) في قوله ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، فقد أحال على علماء اليهود والنصارى، إحالةً مقاميةً خارجيةً، بقرينة جملة الصلة (آتيناهم الكتاب)، وإن كان هؤلاء العلماء لم يُذكرُوا في السياق المقالي في هذه السورة، إلا أن سياق المقام دلّ على هذه الإحالة؛ ذلك "أن مشركي قريش قالوا

¹ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج11، ص294.

² الخطيب، عبد الكريم بونس، التفسير القرآني للقرآن، ج4، ص147.

³ الأنعام، 114.

⁴ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج4، ص299.

⁵ الأنعام، 113.

للنبي: اجعل بيننا وبينك حكماً، إن شئت من أحوار اليهود، وإن شئت من أحوار النصارى؛ ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرِك، فنزلت هذه الآية¹.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٌ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾²، وقع استبدال فعلي مع الآية السابقة، وهي قوله: ﴿قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾³؛ إذ استبدل الفعل (تعالوا) باسم الفعل (هلم)، وهما بمعنى واحد، غير أن بينهما اختلافاً من جهة التعدي واللزوم، ولعل هذا الاختلاف هو الذي دعا إلى الاستبدال، مراعاةً لسياق المقال؛ ذلك أن سياق الآية مع الفعل اللازم (تعالوا) لم يحتج إلى نصب مفعول، إذ المقصود معنى الفعل لذاته، بتحقيق الحضور مطلقاً، أما سياق الآية مع اسم الفعل المتعدي (هلم)⁴، فكان المقصود إيقاع معنى الفعل على مفعوله، بإحضار الشهداء، وجاء الاستبدال، هاهنا، مناسباً لهذا الاختلاف السياقي.

وتم استبدال ثانٍ في هاتين الآيتين بين قوله: "مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ" وقوله: "أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا"، إذ استبدل الاسم الكريم (الله) بلفظ (ربكم)، وهو استبدال اسمي، ولعل هذا الاستبدال جاء مناسباً لسياق المقال؛ ذلك أن سياق آية "مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ"، هو طلب ترك جملة من الأفعال المحرمة، كالشرك والقتل والفواحش، وطلب فعل الإحسان للوالدين، وهذا مناسبٌ لمعنى الربوبية، الذي يقتضي أمر العباد

¹ الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج2، ص69.

² الأنعام، 151.

³ الأنعام، 150.

⁴ ينظر: السمين الحلبي، أبو العباس، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج5، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، 1986، ص211.

ونهيهم¹، فجاء، هاهنا، بلفظ الجلالة (رَبُّ)، مضافاً إلى ضمير أولئك المخاطبين (كم)، تذكيراً لهم بأن تلك الأحكام مصدرها (رَبُّكُمْ)، الذي يديرُ أمركم، ويرعى شؤونكم، وذلك أخرى بالالتزام بها، أمّا الآية الأخرى، فجاءت بلفظ (الله): "أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا"، ذلك أن سياقها الإخبار عن وصف أولئك الشهداء، الذين يشهدون أن الله حرم هذا، وجاء، هاهنا، لفظ (الله) إشارة إلى أن موضوع الشهادة مرتبط بتوحيد الإلهية لا الربوبية، فقد ثبت أن الكفار يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله يخلق ويرزق ويدبر الأمر²، ولا يقرون بتوحيد الإلهية، توحيد الله بأفعال العباد³، ومضمون الآية، هاهنا، وصف الشهداء بما لم يؤمنوا به، من أن الرب ألزمهم بترك الحرام، وهذا هو توحيد الإلهية، لذا؛ جاء بلفظ الرب مضافاً إليهم في ختام الآية "وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ"، فالمراد يعدلون بالله في الإلهية⁴، وبذلك يكون استبدال لفظ (الله) مناسباً لسياق المقال.

وهناك استبدال ثالث بين قوله: "ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، وقوله: "ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"، إذ استبدل الفعل (تَذَكَّرُونَ) بالفعل (تَعْقِلُونَ) استبدالاً فعلياً، ولعل هذا الاستبدال جاء أيضاً مراعاة لسياق المقال في الآيتين، إذ المراد: "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" عن الله كل ما أرشدكم إليه، وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، وقد جاء الفعل (تَعْقِلُونَ) مناسباً لموضوع الآية، ووجه ذلك أن اجتناب الشرك وتوحيد الله بالعبادة، وعدم قتل الأولاد؛ لأن الرزاق هو الله، من مقتضيات العقل؛ فعبادة التوحيد، ومفهوم الرزق بصورته الشرعية لا يتمثلها إلا من ملك آلة العقل، أمّا قوله "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" في الآية الأخرى، فقد ناسب موضوع الآية، ووجه ذلك أن التذكّر جاء بعد طلب الوفاء بالعهد لما سبق في الآية من أحكام، "وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"، وإذا كان، بالضرورة، ثم فاصل زمني

¹ ينظر: الحماوي، عمر العرياي، كتاب التوحيد المسمى بالتخلي عن التقليد والتخلي بالأصل المفيد، مصر، مطبعة الوراقية العصرية،

1984، ص117.

² ينظر: النجدي، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، الجواهر المضية، السعودية، دار العاصمة، 1412هـ، ص38.

³ ينظر: الجبرين، عبد الله بن عبد العزيز بن حمادة، تسهيل العقيدة الإسلامية، ط2، السعودية، دار العصيمي للنشر والتوزيع، د.ت، ص53.

⁴ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص128.

بين انعقاد العهد والوفاء به، فإنَّ الفعلَ (تذكرون) جاءَ مناسبًا، هاهنا، لدفع ما قد يتخللُ ذلكَ الزمانَ من نسيانٍ، فكأنه قال: فلا تنسوا الوفاءَ بالعهد، ولا تغفلوا عنه، وكونوا دائمًا متيقظين، متذكرين مصالحكم الدينية والدنيوية¹.

وحذف من هذه الآية جملة النداء (يا محمد)، وتقدير الكلام: "قُلْ يَا مُحَمَّدُ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ"، وقد وقع هذا الحذفُ بدليل قرينة سياق المقام، ذلك أنَّ فعلَ الطلبِ (قُلْ) موجهٌ لمخاطبٍ معلومٍ في ذهن المتلقي، وقد جرت عادة النحاة والمفسرين على تقدير المنادى بعد فعل الطلب، حيثما ورد في القرآن؛ لأنَّ سياقَ المقامِ يقتضي ذلك، وفي هذا قال ابنُ خالويه: "إنَّ سألَ سائلٌ فقال... ما وجهُ ثبات الأمرِ في (قُلْ) في جميع القرآن؟ فالجوابُ في ذلك أنَّ التقديرَ (قُلْ) يا محمد: "هو الله أحد"، وقُلْ يا محمد: "أعوذُ بربِّ الناسِ"²، وقد دلَّ سياقُ المقامِ على هذا المحذوف، إذ تكررَ فعلُ الطلبِ (قُلْ) في هذه السورة أربعًا وأربعين مرة؛ ليدلَّ على أنَّ السورة مبنيةٌ على توجيه الخطابِ لمحمد، وهذا يكشفُ عن انسجام سياق المقام مع سياق المقال في سائر آيات السورة.

وتكرر، في هذا المقطع من السورة، قوله (ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ) ثلاثَ مراتٍ، تكررًا محضًا بعددًا قريبًا على مستوى الجملة، إذ وردت الجملة نفسها في الآيتين التاليتين، وهما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْفُفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾³، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁴، ولعلَّ

¹ الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم، الإكسير في علم التفسير (في أصول وقواعد تفسير القرآن الكريم)، تحقيق، محمد عثمان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1971، ص13.

² ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ج1، مصر، مطبعة دار الكتب المصرية، 1941، ص228.

³ الأنعام، 152.

⁴ الأنعام، 153.

هذا التكرار مسوغٌ ومفسرٌ بسياق المقال؛ ذلك أن الآيات الثلاث تضمنت جملةً من الأوامر¹، كاتباع الحق، والإحسان للوالدين، وإيفاء الكيل، والعدل، وقابلها بجملة من النواهي، كترك الشرك والقتل، واجتناب الفواحش، ومال اليتيم، واتباع السبل، وختم كلًا منها بقوله (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ)؛ لمزيد التوكيد والاهتمام بها، وتعظيم شأنها، وتقوية برهانها²، وقد حقق التكرار ترابطاً في هذا المقطع من السورة، فبدت الآيات الثلاث متصلةً، كأنها كلام واحد.

3.2 سورة الأعراف

مكية³ إجمالاً، واستنتى بعضهم الآيات: (163 إلى 172)⁴، وهي من قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾⁵، إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁶.

وفي قوله: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ...﴾⁷ جاء ضمير الخطاب المستتر (أنت)، في الفعل (اسألهم)، وكاف الخطاب في (كذلك)، محيلاً على مرجع خارجي، هو الرسول⁸، إحالةً مقاميةً، وقد دل سياق المقال على

¹ قال في الآية الأولى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الثالثة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأن الآية الأولى مُشتملة على خمسة أشياء كلها عظام جسام فكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا فختم الآية الأولى بما في الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذي امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان. والآية الثانية مُشتملة على خمسة أشياء يقبح تعاطي ضدها وارتكابها وكانَت الوصية بها تجرِي مجرى الزجر والوعظ فختم الآية بقوله ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون بمواعظ الله. والآية الثالثة مُشتملة على ذكر الصراط المُستقيم والتحريض على اتبَاعه واجتناب مناهيه فختم الآية بالتقوى التي هي ملاك العمل وخير الزاد. الكرمانى، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، ص115.

² ينظر: الزهراني، مرزوق بن هياس، أطيب النشر في تفسير الوصايا العشر، المدينة المنورة، مجلة الجامعة الإسلامية، دت، ص78.

³ اختلف فيها، فقيل هي مكية كلها قاله الضحاك وغيره، وقيل هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فإنها مدنية. ابن الفرس، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، أحكام القرآن، ط1، ج3، تحقيق: صلاح الدين بو عفيف، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص40.

⁴ ينظر: السمعاني، تفسير السمعاني، ط1، ج2، ص163.

⁵ الأعراف، 163.

⁶ الأعراف، 172.

⁷ الأعراف، 163.

⁸ ينظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ط2، ج1، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، السعودية، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999، ص290.

هذه الإحالة، إذ أُحيلَ ضميرُ الخطابِ للمفردِ في آياتِ السورةِ جميعًا على الرسولِ، فقد وردَ الفعلُ (قُلْ) اثنتي عشرةَ مرةً محيلًا عليه، بالضميرِ المستترِ (أنتَ)، كما جاءتِ الضمائرُ الظاهرةُ والمستترةُ، في غيرِ موضعٍ، محيلةً عليه أيضًا، كما في قوله (صدركَ، لتتنرَ، ربُّكَ، اتلْ، يسألونكَ، تدعوهم، ينزعنكَ)، وغيرها.

أمَّا ضميرُ الجمعِ (هم) في (اسألهم، تأتيهم، حيثانهم، سببتهم، تأتيهم، نبلوهم)، وضميرُ الجمعِ الواوِ في (يعدون، يسببون، كانوا، يفسقون)، فإنه يحيلُ على مرجعِ سابقٍ، هو قومُ موسى (بنو إسرائيل)، في الآية: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾¹ إحالةً نصيَّةً داخليةً، ويؤكدُ هذه الإحالةَ أنَّ ضمائرَ خطابِ ضمائرِ الجمعِ في هذا المقطعِ من السورةِ (137-168)، هو المرجعُ نفسه، كالواوِ في (يستضعفون، ظلموا، نسوا، عتوا، نهوا)، والكافِ في (أنجيناكم، يسومونكم، أبناءكم، خطيئاتكم)، والهاءِ (هم) في (أنهم، أعمالهم، يكلمهم، يهديهم، أيديهم)، وغيرها، كما وردَ هذا العنصرُ الإحاليُّ (إسرائيل) صريحًا في هذا المقطعِ مرتين، وأربعَ مراتٍ في سائرِ آياتِ السورةِ، ووردَ ذكرُ نبيِّهم (موسى) اثنتي عشرةَ مرةً في هذا المقطعِ، وإحدى وعشرينَ مرةً في السورةِ كلِّها.

وجاءتْ هذه الآيةُ محبوكةً مع الآياتِ التي قبلها بعلاقةٍ التدرجِ، إذ ذكرتِ الآياتُ السابقةُ قصةَ بني إسرائيلَ، وما ارتبطَ بها من أحداثٍ متدرجةٍ بالانتقالِ من حالٍ إلى حالٍ، فالحالُ الأولى عندَ قوله تعالى: ﴿وَإِذ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾²، إذ أمرهم اللهُ أنْ يسكنوا القريةَ التي كانتِ حاضرةَ البحرِ، وأنْ يأكلوا منها، وأنْ يطلبوا المغفرةَ بقولهم: (حِطَّةً)، والحالُ الثانيةُ ساعةً أنْ بدّلوا القولَ، فأرسلَ اللهُ عليهمَ عذابًا، وذلكَ عندَ قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا

¹ الأعراف، 159.

² الأعراف، 161.

يَظْلِمُونَ¹، والحالُ الثالثةُ عندَ قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ...﴾²، ذلكَ أنَّ اللهَ طلبَ منَ محمدٍ أنْ يسألَ اليهودَ "عن حالِهِم، في الوقتِ الذي كانوا يعتدونَ في السَّبْتِ، ويتجاوزونَ حُكْمَ اللهِ بالصيْدِ المُحرَّمِ عليهمِ فيه، إذْ تأتيهِم... يومَ سبتِهِم، أيْ تعظيمِهِم للسَّبْتِ"³؛ ليكونوا عبرةً لغيرِهِم، وقد أضافَ تدرجُ هذهِ الأحوالِ، وتتابعُها، صفةَ الاستمراريَّةِ النصيَّةِ لهذهِ الآياتِ، فجاءَ الكلامُ منسجماً من جهةِ المعنى.

أمَّا قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ...﴾⁴، فقدَ وقعَ فيه وصلٌ مع الآيةِ التالية: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾⁵، وهوَ وصلٌ إضافيٌّ بعدِيٌّ بـ(أو)، فجملةُ (أو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ) "عطفٌ على أنْ تَقُولُوا، أي: وكراهةً أنْ تَقُولُوا"⁶، "والتقديرُ: لئلا تَقُولُوا"⁷، وقد أفادتْ (أو) التفصيلَ بينَ صنفينِ مِنَ الإِشْهَادِ: إِشْهَادٍ مضمونُهُ الغفلةُ، وآخرَ مضمونُهُ تقليدُ الآباءِ، فجاءتِ الجملةُ الثانيةُ موصولةً بالأولى بواسطةِ الواوِ، وبدا الكلامُ متصلاً.

3.3 سورة يونس

مكيةٌ، واستثنوا منها الآيات: (40 و 94 و 95 و 96)، قال ابنُ عباسٍ: مكيةٌ، إلا ثلاثَ آياتٍ من قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شكٍّ﴾⁸، إلى آخرِهِنَّ... وقال الكلبيُّ: مكيةٌ، إلا قوله: ﴿وَمَنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ

¹ الأعراف، 162.

² الأعراف، 163.

³ ابن منلا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج9، ص317.

⁴ الأعراف، 172.

⁵ الأعراف، 173.

⁶ درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى، إعراب القرآن وبيانه، ط4، ج3، سورية، دار الإرشاد للشئون الجامعية، بيروت، دار ابن كثير، 1415هـ، ص492.

⁷ حميدان، أحمد محمد، والدعاس، أحمد عبيد، والقاسم، إسماعيل محمود، إعراب القرآن الكريم، ط1، ج1، دمشق، دار المنير ودار الفارابي، 1425هـ، ص407.

⁸ يونس، 94.

مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ¹، نزلت بالمدينة في اليهود، وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة، وباقيها بالمدينة².

وفي قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾³، جاء ضمير الجمع (هم) مكرراً مرتين، ومحلياً على مرجع سابق، هو (الذين فسقوا) من الكفار، في آية سابقة: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁴، إحالة نصية قبلية، ذات مدى قريب، وقد دلّ سياقُ المقالِ على هذا العنصرِ الإحاليِّ، بإحالةِ سائرِ ضمائرِ الجمعِ في هذا المقطعِ من السورة (27-56) على المرجعِ نفسه، كالواوِ في (كَسَبُوا، يَفْتَرُونَ، فَسَيَقُولُونَ، لَا يُؤْمِنُونَ، تُؤَفِّكُونَ، لَا يُبْصِرُونَ)، والهاءِ (هم) في (تَرَهَّقَهُمْ، وَجُوهَهُمْ، نَحَسْرُهُمْ، أَكْثَرُهُمْ، نَعِدُهُمْ)، والكافِ (كم) في (شُرَكَاءُكُمْ، يَرْزُقُكُمْ، رَبُّكُمْ، فَمَا لَكُمْ، أَتَاكُمْ)، وغيرها من ضمائرِ الجمعِ.

كما جاء ضميرُ المفردِ (الهاءِ) مكرراً مرتين، أيضاً، في هذه الآية، ومحلياً على مرجعِ سابقِ محددٍ صريحٍ، هو (القرآنُ)، في الآية: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾⁵، إحالة نصية قبلية، ذات مدى قريب، وقد دلّ سياقُ المقالِ على المرجعِ نفسه (القرآنُ)، بإحالةِ ضميرِ المفردِ الغائبِ (الهاءِ) إليه غيرَ مرةٍ في آياتِ المقطعِ السابقِ من السورة، كقوله (بِيدِهِ⁶، افْتَرَاهُ، مِثْلَهُ، تَأْوِيلُهُ).

أمّا ضميرُ (الكافِ) للمخاطبِ المفردِ في قوله (رَبُّكَ)، فإنه يحيلُ على الرسولِ إحالةً مقاميةً خارجيةً، وقد دلّ سياقُ المقالِ على هذه الإحالة، بإحالةِ الضمائرِ المفردةِ في سائرِ آياتِ السورةِ على المرجعِ نفسه (الرسولِ)، فقد أحالَ الضميرُ المستترُ المفردُ (أَنْتَ) في الفعلِ (قُلْ)، أربعاً وعشرينَ مرةً على

¹ يونس، 40.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج8، ص304.

³ يونس، 40.

⁴ يونس، 33.

⁵ يونس، 37.

⁶ ينظر: البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ط4، ج4، ص134.

المرجع نفسه، كما أحوّلت سائر الضمائر المفردة في هذه السورة على ذلك المرجع، كقوله (البتة، كذّبوك، لي، عملي، أعمل، أنا، إليك، أنت)، وغيرها.

كما تكررت جملة (ومنهم من...) ثلاث مرات في هذا الفصل من السورة، على مستوى الجملة مع اختلاف صلة الموصول في كل آية، في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾¹، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾²، وهو تكرار محضٌ بعدي قريب، ووجه هذا التكرار أنه جاء لغرض التقسيم³، وبيان أحوال المشركين وانقسامهم حول القرآن، فقد تضمن هذا الفصل من السورة (40-61) نفي التهمة عن القرآن، وجود المشركين به، والرد عليهم بالحجج والبراهين، فجاء التكرار مفيداً في الكشف عن أحوالهم وموقفهم من القرآن؛ ما أفضى إلى ترابط أجزاء هذا الفصل من السورة.

أما الآية: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾⁴، فقد وقع فيها استبدال اسمي مع الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ...﴾⁵، وذلك باستبدال (الذين يقرؤون الكتاب) بـ(بني إسرائيل) مراعاةً لسياق المقال، ووجه ذلك أنه ذكرهم بادئ الأمر باسمهم (بني إسرائيل)، وقد حازوا العلم، بأن جاءتهم التوراة والإنجيل، ولما كانوا كذلك ذكرهم في المرة الثانية، بوصفهم (الذين يقرؤون الكتاب)، إشارةً إلى أن جواب سؤال محمدٍ سجدونه فيما يقرؤون، فهم يعرفون القرآن كما يعرفون أبناءهم؛ لأنهم قراء، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن، وبصحة نبوته، صلى الله عليه وسلم، ويبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك، فرضاً وتقديراً، وسبيل من خالجه

¹ يونس، 42.

² يونس، 43.

³ قوله {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} بلفظ الجمع وبعده {وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ} بلفظ المفرد لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى ووجد {ينظر} حملاً على اللفظ إذا لم يكثر كثرتهم. الكرمانى، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، ص 140.

⁴ يونس، 94.

⁵ يونس، 93.

شبهة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين، وأدلتها، أو بمباحثة العلماء، فسل علماء أهل الكتاب، فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك، فضلاً عن غيرك¹، فذلك استبدال وصفهم (الذين يقرؤون الكتاب)، باسمهم (بني إسرائيل).

وكذلك وقع استبدال ثانٍ في الآيتين بين قوله: "جاءهم العلم"، وقوله: "جاءك الحق"، وهو استبدال اسمي، فقد استبدل قوله (الحق) بقوله (العلم)، ووجه ذلك أن ما جاء بني إسرائيل من التوراة والإنجيل من قبل، والقرآن من بعد، هو علم دليل على صدق نبوة محمد²، فلذا؛ قال: "جاءهم العلم"، ولما كان سياق المقال في الآية التالية هو الشك مما أنزل الله، حسن أن يقال عن القرآن الحق؛ لدفع ذلك الشك، فجاء هذا الاستبدال مراعيًا لذاك السياق المقالي.

وجاءت هذه الآية، أيضاً، موصولة وصلًا زمنياً قليلاً بالفاء، مع الآية السابقة: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾³، ذلك أن الفاء تفيد الترتيب الزمني، أي أن ما بعدها مرتب على ما قبلها، وموصول به، ولما ذكر الله بني إسرائيل في الآية الأولى، وأخبر أن العلم المكتوب في التوراة والإنجيل قد جاءهم، قال لمحمد: إن وقع لك شكٌ تقديراً فسل علماء بني إسرائيل، فإنهم يعرفون صحة القرآن، كما يعرفون أبناءهم⁴، وقد ربطت الواو بين هذه الجمل، فجاءت المعاني متتابعة، والتركيب مترابطة.

¹ النسفي، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ط1، ج2، ص40.

² ينظر: البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ط4، ج2، ص433. وينظر: ينظر: النسفي، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ط1، ج2، ص40

³ يونس، 93.

⁴ ينظر: النسفي، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ط1، ج2، ص40.

3.4 سورة هود

مكيةٌ واستنتوا منها ثلاث آيات، قال مقاتلٌ: "هي مكيةٌ كلها، إلا قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾¹، وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾²، وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾³4.

وفي قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾⁵، جاء ضميرُ الكافِ لخطابِ المفردِ مكرراً ثلاث مراتٍ، في (لعلك، إليك، صدرك)، وجاء ضميرُ الهاءِ للغائبِ المفردِ مكرراً مرتين، في قوله (عليه، معه)، والضميرُ المنفصلُ لخطابِ المفردِ (أنت) محيلاً على مرجعٍ خارجيٍّ، هو الرسولُ، إحالةً مقاميةً، وقد دلَّ سياقُ المقالِ في هذه السورةِ على هذه الإحالة، بإحالةِ سائرِ الضمائرِ المفردةِ على المرجعِ نفسه، كضميرِ الكافِ المفردِ في (ربك)، الذي تكررَ في السورةِ سبعَ عشرةَ مرةً، والضميرِ المستترِ المفردِ (أنت)، في قوله (قل)، الذي تكررَ ثلاثَ مراتٍ، وكذلك الضمائرُ المفردةُ المستترةُ في (افتراه، تك، استقم، أقم، اصبر، عبده، توكل)، والضمائرُ المتصلةُ المفردةُ في قوله (عليك، أمرت)، وغيرها، وكلُّها تدلُّ على مَنْ كانَ مضماراً لخطابِ المفردِ، بكونِ المحالِ عليه (الرسولِ) واقعاً خارجَ النصِّ، ومفهوماً من المقامِ، واستشرافِ الأنظارِ الخارجيةِ، وهذا، بالضرورة، أفضى إلى تماسكِ هذه الآيةِ مع سائرِ آياتِ السورةِ، بإحالةِ الضمائرِ على المرجعِ نفسه (الرسولِ).

وجاء ضميرُ الجمعِ المتصلِ (الواو)، في قوله (يقولوا)، محيلاً على مذكورٍ سابقٍ في آيةٍ سابقةٍ، وهو (الذين كفروا) في الآية: ﴿وَلَئِن قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾⁶، إحالةً نصيةً قبليةً صريحةً، ذاتَ مدى قريبٍ؛ لتكشفَ عن تماسكِ هذه الآيةِ مع ما قبلها، ذلك

¹ هود، 12.

² هود، 17.

³ هود، 114.

⁴ ينظر: الأزدي، تفسير مقاتل بن سليمان، ط1، ج2، ص269، 270.

⁵ هود، 12.

⁶ هود، 7.

أنَّ محورَ الخطابِ في هذا المقطعِ من السُّورةِ (5-22)، قد أحوالَ ضمائرَ الجمعِ على المرجعِ نفسه، كضميرِ الجمعِ الواوِ في (يُخَسُّونَ، مَا صَنَعُوا، يَعْمَلُونَ، يَصُدُّونَ، يَبْغُونَهَا، خَسِرُوا، يَفْتَرُونَ)، وضميرِ الجمعِ (هُم) في (أَعْمَالَهُمْ، رَبَّهُمْ، وَهُمْ، لَهُمْ، أَنَّهُمْ)، كما أحوالَ اسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) الدالُّ على الجمعِ¹ على المرجعِ نفسه ثلاثَ مراتٍ، و(هُؤُلَاءِ)² مرةً واحدةً.

أمَّا الاسمُ الموصولُ (ما) في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾، فإنه يحيلُ على الكتابِ الذي أُحكمتْ آياته في الآيةِ الأولى من السُّورةِ، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾³، إحالةً نصيَّةً قبليَّةً، وقد دلَّتْ جملةُ الصلَّةِ (يُوحَىٰ إِلَيْكَ) على هذا المحالِ عليه.

كما وقع في هذه الآيةِ حذفُ اسمي للفاعلِ (الله) من قوله: (مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ)، ببناءِ الفاعلِ على المفعولِ؛ إذ تقديرُ الكلامِ: (ما يُوحى اللهُ إِلَيْكَ)، ودليلُ هذا الحذفِ قرينةٌ مقاليَّةٌ قبليَّةٌ، في آيةٍ سابقةٍ، وهي قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾⁴، فقد قررتْ هذه الآيةُ أنَّ مصدرَ آياتِ الكتابِ هو اللهُ الحكيمُ الخبيرُ، ولما كانَ الموحى مصرحاً به في نصِّ هذه الآيةِ، حسنَ حذفُها في الآياتِ التالياتِ، ذلكَ أنَّ العلمَ بالفاعلِ من أغراضِ حذفه⁵، ويجوزُ أن تكونَ قرينةُ الحذفِ مقاميةً، يدلُّ عليها سياقُ حالِ دعوةِ النبيِّ، عندما أبلغَ الناسَ أنَّ ما بينَ يديه من آياتٍ هوَ وحيٌّ من الله، وسواءً أكانَ هذا أم ذلكَ، فإنَّ هذا الحذفَ أفضى إلى ترابطِ أجزاءِ النصِّ واتصاله.

وجاءتْ هذه الآيةُ أيضاً موصولةً بـ(أم) وصلًا إضافيًّا بعديًّا مع الآيةِ التاليةِ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁶، و(أم)، هاهنا، عطفتْ

¹ هود، 20، 21، 16.

² هود، 18.

³ يونس، 1.

⁴ هود، 1.

⁵ ينظر: الغلابيني، مصطفى بن محمد سليم، جامع الدروس العربية، ط28، ج2، بيروت، المكتبة العصرية، 1993، ص247.

⁶ هود، 13.

ما بعدها على ما قبلها¹؛ ليكونا متشاركين في الحكم التركيبي والمعنوي، إذ عُطِفَتْ جملَةٌ (يَقُولُونَ اقْتِرَاءً) على جملة (أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ)، وقيل: (أَمْ) بمعنى (بَلْ)²، لذلك؛ جاء الوصلُ عكسيًا لمعنيين متغايرين، ووجه الربط العكسي بين الجملتين أَنَّهُمْ لَمَّا أَنْكَرُوا مَعْجَزَةَ الْقُرْآنِ، وَطَلَبُوا أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كَنْزٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ يَأْتِيَ مَعَهُ مَلَكٌ، قَابِلَهُمُ اللَّهُ بِتَحَدٍّ آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ³، وقد حَقَّقَ الحرفُ (أَمْ) هذا الوصلَ التركيبيَّ والمعنويَّ بين الآيتين.

وفي قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالِنَّارِ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁴، انعقدَ حبكٌ معنويٌّ بعلاقة التأكيد في هذه الآية بين قوله: " فَالِنَّارِ مَوْعِدُهُ"، وقوله: " لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ" في الآية السابقة، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁵، لَمَّا بَيَّنَّتِ الْآيَةُ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا النَّارُ، جَاءَتْ الْآيَةُ التَّالِيَةُ " أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ؛ لتفريع الضدِّ على ضده، في إثباتِ ضدِّ حكمه له، أي إنَّ كَانَ حَالُ أُولَٰئِكَ الْمَكْذِبِينَ كَمَا وَصَفَ، فَتَمَّ قَوْمٌ هُمْ بِعَكْسِ حَالِهِمْ، قَدْ نَفَعَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَالشَّوَاهِدُ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ، وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ"⁶، ثُمَّ عَادَتِ الْآيَاتُ؛ لتؤكدَ المعنى السابقَ، بِأَنَّ مَصِيرَ مَنْ يَكْفُرُ هُوَ النَّارُ⁷، "وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالِنَّارِ مَوْعِدُهُ"، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَعْيَانُ الْمَوْصُوفِينَ بَيْنَ الْآيَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ، فَإِنَّ الْوَصْفَ بِالْكَفْرِ

¹ ينظر: صالح، بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، ط2، ج5، عمان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1418هـ، ص143.

² ينظر: الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، ج1، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، ص71.

³ ينظر: أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، زهرة التفاسير، ج7، ص3678.

⁴ هود، 17.

⁵ هود، 16.

⁶ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص26.

⁷ ينظر: الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي، تفسير حقائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ط1، ج13، إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، بيروت، دار طوق النجاة، 2001، ص31.

واحدًا للفریقین، فینبغی أن ینکونَ المصیرُ واحدًا، وهو النارُ، وهذا یؤكدُهُ أنَّ الأحزابَ¹ جميعًا موصوفونَ بالكفرِ.

3.5 سورة یوسف

مکیةً، واستثنوا منها² قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾³، إلى قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ﴾⁴، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾⁵.

وجاء في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ﴾⁶ ضميرُ الجمعِ المنفصلُ (نحنُ)، والمستترُ في قوله (نقصُ)، والمتصلُ في قوله (أوحينا) محيلاً على ذاتِ المتكلمِ (الله)، إحالةً خارجيَّةً، وهوَ عنصرٌ إحاليٌّ موجودٌ في المقامِ الخارجيِّ، يدلُّ عليه سياقُ المقامِ، وقد أنشئَ الكلامُ بصيغةِ الجمعِ؛ ليدلَّ على تعظيمِ المنشيءِ⁷، ويؤكدُ هذه الإحالةَ أنْ جاءتْ ضمائرُ الجمعِ للمتكلمِ في آياتِ السردِ الذاتيةِ⁸ غيرِ المحكيَّةِ محيلةً على المرجعِ نفسه، كضميرِ الجمعِ المستترِ (نحنُ)، في قوله (لنصرفَ، لنعلمه، نصيبُ، نشاءُ، نضيعُ، نُوحيه)، وضميرِ الجمعِ المتصلِ (نا)، في قوله (مكنا، برحمتنا، أرسلنا، بأسنا)، وغيرها ممَّا وردَ.

كما أحالَ ضميرُ المخاطبِ المفردُ (الكافُ)، مرتينِ في قوله (عليك، إليك)، و(التاءُ) في قوله (كنتُ) على محالٍ عليه خارجيٍّ، هوَ الرسولُ، إحالةً مقاميَّةً، وقد دلَّ سياقُ المقامِ على هذا العنصرِ الإحاليِّ، إذْ

¹ "المشركون حزب، واليهود حزب، والنصارى حزب". ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص29.

² ينظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج2، بيروت، دار الكتاب العربي، 1407هـ، ص440.

³ يوسف، 1.

⁴ يوسف، 3.

⁵ يوسف، 7.

⁶ يوسف، 3.

⁷ ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم، شرح حديث النزول، ط5، بيروت، المكتب الإسلامي، 1977، ص135.

⁸ ينظر: الربيع، آمنة، البنية السردية للقصة القصيرة في سلطنة عُمان، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005، ص112.

"أنزل الله القرآن على الرسول، فتلاهُ عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فتلاها زماناً"¹، كما دلَّ سياقُ المقالِ على هذا العنصرِ الإحاليِّ، بجملةٍ من الضمائرِ المفردةِ في قسمٍ من آياتِ السُّورةِ، كالكافِ في (إِلَيْكَ، قَبْلَكَ)، والتاءِ في (كُنْتَ، حَرَصْتَ)، و(أَنْتَ) المُستترِ في (تَسْأَلُهُمْ)، و(أَنَا) المُستترِ في (أَدْعُو)، والياءِ في (سَبِيلِي، اتَّبَعْنِي)، والضميرِ المنفصلِ (أَنَا) وغيرها، وقد جاءَ مرجعُ هذه الضمائرِ محددًا غيرَ صريحٍ، يدلُّ عليه سياقُ المقامِ.

أمَّا اسمُ الإشارةِ (هذا)، فقد أحالَ على القرآنِ، إحالةً نصيَّةً بعديَّةً، وغرضُهُ الإبهامُ ثمَّ التفسيرُ، ذلكَ أنَّ الإبهامَ يحدثُ وقعًا في النفوسِ، فتنشوقُ، إذا سمعتِ المبهمَ، إلى العلمِ بالمقصودِ منه²، وقد رفعتُ أركانُ الإشارةِ التاليةُ الإبهامَ الكامنَ فيه:

- المشيرُ: اللهُ سبحانه وتعالى
- المُشارُ لَهُ: الرسولُ الذي دلَّ عليه سياقُ المقامِ
- المُشارُ إليه: القرآنُ
- المُشارُ به: هذا

ولعلَّ استعمالَ العنصرِ الإشاريِّ (هذا) دونَ غيرهِ من الأسماءِ؛ للدلالةِ على قربِ القرآنِ من شخصِ الرسولِ.

وكذلكَ جاءَ الاسمُ الموصولُ (ما) في قوله: ﴿... بِمَا أُوحِيَْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ مُحيلًا على الكتابِ المُبينِ في الآيةِ الأولى من السُّورةِ، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، إحالةً نصيَّةً قبليَّةً، وقد دلَّتْ جملةُ الصلَّةِ (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) على هذا المحالِ عليه؛ لتنسِقَ هذه الآيةُ مع ما قبلها، رغمَ اختلافِ وصفها.

¹ الوادعي، مقبلُ بنِ هادي بنِ مقبلِ بنِ قائدةِ الهمداني، الصحيحُ المسندُ من أسبابِ النزولِ، ط4، القاهرة، مكتبة ابنِ تيمية، 1987، ص120.

² ينظر: الإسترابادي، محمد بنِ حسنِ الرضي، شرح الرضي على الكافية، ج1، ط2، بنغازي، جامعة قار يونس، 1996، ص199.

وتضمنت هذه الآية حبكة بعلاقة الإجمال بعد التفصيل، إذ وقع الإجمال في قوله: "نَحْنُ نَقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ"، ذلك أن لفظ القص مجمل، يقتضي ورود أحداث متتابعة تفصله، فجاء ذلك التفصيل في الآية التالية، في قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾¹، وهذا شروع مفصل لقصة يوسف²، عليه السلام، التي وعد أن يقصها على محمد، ووصفها الله بأنها أحسن القصص؛ ليفهم أنها قصة تامة كاملة من حيث العناصر.

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْمُتَلَلِّينَ﴾³، فقد وقع فيها حذف اسمي، تقديره: "لقد كان في قصة يوسف وإخوته"4، ودل عليه قرينة مقاليّة قبيّة في آية سابقة، وهي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ...﴾⁵، فلما قرّر الله في هذه الآية أنه سيقص أحسن القصص، حسن حذف لفظ القصة من الآية التالية؛ للعلم به.

وكذلك وقع فيها حبكة بعلاقة التفصيل بعد الإجمال، فجاء قوله: "في يوسف" مجملاً، إذ وقع فيها إيجاز بالحذف، فالمعنى (في قصة يوسف)⁶، ثم جاءت الآية التالية لتفصل هذا الإجمال، بذكر أحداث القصة متتابعة، في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁷، وهذا شروع في حكاية قصة يوسف مع إخوته، وقد أسهم هذا التفصيل بعد الإجمال بالترابط النصي بين الآيات، فكل آية منها مرتبطة بالأخرى ارتباطاً معنوياً ظاهراً.

¹ يوسف، 4.

² ينظر: ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج2، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، حسن عباس زكي، 1419، ص572.

³ يوسف، 7.

⁴ ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ط1، ج2، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وأحمد محمد صيرة وأحمد عبد الغني الجمل وعبد الرحمن عويس، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994، ص601.

⁵ يوسف، 3.

⁶ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص372.

⁷ يوسف، 8.

3.6 سورة إبراهيم

مكية، وفي رواية عن ابن عباسٍ وقتادة: فيها ثلاث آياتٍ نزلت بالمدينة (28 و 29 و 30)، وهي من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَى النَّارِ﴾¹، وقد وقع حذفُ شبهِ جملةٍ قبليٍّ في الآية: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾²، إذ حُذِفَ منها شبهُ الجملةِ (بالحياة الدنيا) المتعلقُ بالفعلِ (تمتَّعوا)، وتقديرُ الكلامِ: (قُلْ تَمَتَّعُوا بالحياة الدنيا)، ودليلُ ذلك قرينةٌ مقاليةٌ قبليةٌ في المقطعِ الأولِ من السورة، عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾³، فلما ذَكَرَ أَنَّ هؤلاء الكفارِ يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدنيا على الآخرة، في هذه الآية، حُسِّنَ حذفُ شبهِ الجملةِ في الآية الأولى، فذَكَرُ متعلقُ الفعلِ (يَسْتَحِبُّونَ) في مطلعِ السورةِ أغنى عن ذكرِ متعلقِ الفعلِ (تمتَّعوا) في هذا الموضع، ووجهُ ذلك أَنَّ تَمَّ علاقةً سببيةً بين الفعلين، فتمتَّعهم (بالحياة الدنيا) صادرٌ عن استحبابهم لها، وهذا ما جعلَ الكلامَ السابقَ حاضرًا في الذهن، عند تلقي الكلامِ اللاحق.

3.7 سورة الحجر

مكية باتفاق، وفي رواية عن الحسن⁴ أَنَّهَا مكيةٌ، إِلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾⁵، وقوله، سبحانه: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾⁶، وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾⁷.

وقد وقع حذفُ اسميٍّ في قوله (تعالى): ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾، إذ حُذِفَ لفظُ (آياتنا)، وتقديرُ الكلامِ: (كَمَا أَنْزَلْنَا آياتنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)، ودليلُ ذلك قرينةٌ مقاليةٌ قبليةٌ في آيةٍ سابقةٍ، وهي قوله تعالى:

¹ ينظر: أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي، البحر المحيط في التفسير، ج6، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، 1420، ص405.

² إبراهيم، 30.

³ إبراهيم، 3.

⁴ ينظر: الأوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1، ج7، ص249.

⁵ الحجر، 87.

⁶ الحجر، 90.

⁷ الحجر، 91.

﴿وَأَنبَأْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾¹، وقد حُذِفَ المفعولُ بهِ لفظاً، وقُصِدَ معنى²، وساغَ حذفُهُ لدلالةِ المقالِ عليه، وفهمِهِ من السياق، وحذَفُ الفِضْلَةُ إذا دَلَّ عليه دليلٌ سائغٌ مُطَرِّدٌ³.

3.8 سورة النحل

مَكِّيَّةٌ، واستثنوا منها: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا...﴾⁴، و: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾⁵، و: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ...﴾⁶، و: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى...﴾⁷، و: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾⁸، واستثنى آخرونَ غيرَ هذا⁹.

وفي قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِآجُرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾¹⁰، وجاءت هذه الآيةُ محبوكةً بعلاقةِ الملاسةِ مع الآيةِ التاليةِ لها مباشرةً، وهي قولُهُ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾¹¹، ووجهُ العلاقةِ أنَّ هؤلاءِ المؤمنينَ الذينَ صبرُوا على أذى

¹ الحجر، 81.

² ينظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، المفصل في صنعة الإعراب، ط1، تحقيق: علي بو ملحم، بيروت، 1993، ص79.

³ ينظر: الأمين الشنقيطي، العذب النَّميرُ من مجالسِ الشَّنَقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، ط2، ج1، ص241.

⁴ النحل، 41.

⁵ النحل، 95.

⁶ النحل، 96.

⁷ النحل، 97.

⁸ النحل، 126.

⁹ روى مجاهد وعطيّة وابن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها مكِّيَّة، وكذلك روي عن الحسن، وعكرمة، وعطاء: أنها مكِّيَّة كلها، وقال ابن عباس في رواية: إنه نزل منها بعد قتل حمزة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾، وقال في رواية: هي مكِّيَّة إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة، وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ إلى قوله: يَحْمَلُونَ، وقال الشعبي: كلها مكِّيَّة إلا قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾ إلى آخر الآيات، وقال قتادة: هي مكِّيَّة إلا خمس آيات: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآيةين، ومن قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾ إلى آخرها، وقال ابن السائب: هي مكِّيَّة إلا خمس آيات: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا...﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا...﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾ إلى آخرها، وقال مقاتل: مكِّيَّة إلا سبع آيات، قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ...﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا...﴾، وقوله: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً...﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾ إلى آخرها، قال جابر بن زيد: أنزل من أول النحل أربعون آية بمكة وبقيتها بالمدينة. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج2، ص548.

¹⁰ النحل، 41.

¹¹ النحل، 42.

المشركين واحتملوه، هاجروا واحتملوا مفارقة الأهل والبلد متوكلين على الله¹، أي أن هجرتهم وقعت ملابسةً للتوكل على الله، وهذا ما جعل الآيتين مرتبطين معنويًا ببيان حال الهجرة وهيئتها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾² جاء ضمير الجمع المتصلان: الواو في قوله (تشتروا)، والكاف في قوله (لكم)، يُحيلان على مرجع خارجي، هو المسلمون³، إحالةً مقاميةً، وقد جاء هذا العنصر الإحالي مضمراً لخطاب ضمائر الجمع في سائر آيات السورة، ويدل على ذلك سياق المقام، بإحالة ضمائر الجمع إلى العنصر نفسه، كضمير الواو في قوله: (وَأَوْفُوا، تَقْضُوا، تَفْعَلُونَ، تَعْمَلُونَ، تَكُونُوا، تَتَّخِذُونَ، تَخْتَلِفُونَ)، والتاء في قوله: (عَاهَدْتُمْ، جَعَلْتُمْ، كُنْتُمْ)، والكاف في قوله: (عَلَيْكُمْ، لَجَعَلَكُمْ، أَيْمَانَكُمْ، بَيْنَكُمْ، يَبْلُوكُمْ)، وغيرها من ضمائر الجمع الواردة، التي تطابق المحال عليه، ومما يُستأنس به، لهذا العنصر الإحالي، أنه ورد صريحاً في النص، في قوله: ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾⁴.

أمَّا الاسم الموصول (ما) في قوله: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فإنه يحيل على مذكور سابق، هو نعيم الجنة، في آية سابقة، هي قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، إحالةً نصيةً قبليةً، بقرينة صلة الموصول (عند الله).

وكذلك جاءت هذه الآية محبوكةً بعلاقة التعليل مع قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁵، وذكر ابن عاشور أن جملة " مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ

¹ ينظر: أبو بكر الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط5، ج3، السعودية، مكتبة العلوم والحكم، 2003، ص121. وينظر: الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، ج7، ص300.

² النحل، 95.

³ وإن ورد أن هذه الآية نزلت في رجل من حضرموت يقال له عيدان بن الأشوع، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمضمرة الخطاب سائر المسلمين، لا فرد بعينه، بدليل أن الخطاب موجّه بضمير الجمع الذي لا يطابق عيدان بن الأشوع. ينظر: السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، ط1، ج2، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النوتي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، ص249.

⁴ النحل، 89.

⁵ النحل، 96.

اللَّهِ بَاقٍ" تَعْلِيلٌ لِمُضْمُونِ جُمْلَةٍ " إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ"، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ لَا نِفَادَ لَهُ، وَخَزَائِنُهُ لَا تَتَضَبُّ، أَمَا خَزَائِنُ النَّاسِ، فَصَائِرَةٌ إِلَى النِّفَادِ، فَالْأَجْدَرُ بِهَوْلَاءِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا عَلَى مَا عِنْدَ النَّاسِ، وَمَنْ صَبَرَ وَحَرَّمَ نَفْسَهُ مَا عِنْدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، فَسَيَجْزِيهِ اللَّهُ أَجْرَهُ فِي الْآخِرَةِ، بِقَوْلِهِ: "وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ"¹.

ووردَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾²، مِصَابِحَةٌ مَعْجَمِيَّةٌ مَعَ آيَةٍ تَالِيَةٍ بِعِلَاقَةِ الْإِرْتِبَاطِ بِمَوْضُوعٍ مَعِينٍ، وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْمِصَابِحَةُ مَعَ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾³، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ لَفْظِي (اتَّقُوا وَمُحْسِنُونَ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَفْظِ (صَابِرِينَ) فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فَاجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ الثَّلَاثَةُ؛ لِتَدُلَّ عَلَى مَوْضُوعِ الْهُدَى وَالصَّلَاحِ، وَوَجْهَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَهَا أَنَّ سِيَاقَ الْمَقَالِ يَدْعُو لِاتِّبَاعِ الْهُدَى، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ؛ بِغِيَّةِ إِصْلَاحِ النَّفْسِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ الثَّلَاثَةُ مَنْسُجَةً مَعَ هَذَا الْمَعْنَى الْعَامِّ، وَبَدَأَ الْكَلَامُ مُتَعَالِقَ الْأَجْزَاءِ.

3.9 سورة مريم

مَكِّيَّةٌ، وَمِمَّا اسْتُنْتَبِيَّ مِنْهَا⁴ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾⁵، وَقَوْلُهُ⁶: ﴿إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾⁷.

¹ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص271، 272.

² النحل، 126.

³ النحل، 128.

⁴ ينظر: ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، ط1، ج1، ص477. وينظر: أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، ج5، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص252. وينظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، ط1، ج16، ص32.

⁵ مريم، 58.

⁶ ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج3، ص3. وينظر: ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، ط1، ج1، ص477.

⁷ مريم، 71.

وقد وقع في الآية الأولى مصاحبتان معجميتان:

أ. علاقة الجزء بالكل: ورد في هذه الآية لفظ الجزء (سجداً)، وجاء لفظ الكل (الصلاة) في الآية التالية، ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ...﴾¹، والوجه أن السجود جزء من الصلاة، فإن كان هؤلاء المؤمنون، أو الأنبياء يسجدون لله باكين ساعة أن تتلى عليهم آيات الرحمن، فإنهم بالضرورة يقيمون الصلاة، ويلتزمون بها، ولما فعلوا السجود، وهو بعض الصلاة، حسناً، هاهنا، ذكر الجزء²، أمّا أولئك الذين جاؤوا من بعدهم، فأضاعوا الصلاة جملةً، وهم مأمورون بأدائها شرعاً، لذا؛ حسناً، هاهنا، ذكر الكل (الصلاة)؛ تنبيهاً على أدائها أداءً شرعياً تاماً غير منقوص.

ب. علاقة الاندراج في صنف عام: جاءت هذه المصاحبة في أربع آيات في هذا الفصل من السورة، في الآية السابقة، وفي قوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى...﴾³، وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ...﴾⁴، وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ...﴾⁵، فاجتمعت الألفاظ (آدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل وموسى وإسماعيل وإدريس)؛ لتندرج جميعاً في لفظ (النبیین) السابق ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾، ووجه ذلك أن سياق المقال عام، يركز على وحدة الرسالة الإلهية، فرغم تعدد الداعين إلى وحدانية الله، وتتابعهم جيلاً بعد جيل، إلا أن مضمون دعوتهم واحد، هو تثبيتُ الوحدانية لله⁶.

ووقع فيها حبكٌ بعلاقة المقارنة مع الآية التي بعدها، ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾⁷، فلما أثنت الآية الأولى على الأنبياء وذرياتهم، وذكرت من أوصافهم أنهم

¹ مريم، 59.

² قيل (سجداً) كناية عن الصلاة، وتأويله أنهم يكونون في الصلاة خاشعين باكين. ينظر: الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ط1، ج7، تحقيق: مجدي باسلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005، ص246.

³ مريم، 51.

⁴ مريم، 54.

⁵ مريم، 56.

⁶ ينظر: الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، ط1، ج4، ص25.

⁷ مريم، 59.

يسجدونَ لله¹، جاءتِ الآيةُ الثانيةُ؛ لتعقدَ مقارنةً بذكرِ طائفةٍ أُخرى من ذرياتهم، لم يقتدوا بأسلافهم، فأضاعوا الصلاةَ، وأتبعوا الشهوات²، وقد أسهمت هذه المقارنةُ، بخلق ترابطٍ معنويٍّ.

أما قوله: ﴿إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾³، فقد حُبِكَ بعلاقةٍ التدرج مع الآيةِ التاليةِ، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾⁴، وتجلَّت هذه العلاقةُ بذكرِ المعنى المراد بمستوياتٍ ودرجاتٍ مرتبةٍ، فذكرتِ الآيةُ الأولى المستوى الأولَ، وهو درجةُ مرورِ الخلائقِ كلِّهم فوقَ النارِ؛ ليسقطَ فيها الكفارُ والعصاةُ، ثم تدرجتِ الآيةُ التاليةُ بذكرِ مستوى ثانٍ، وهو نجاةُ المؤمنينَ المتقينَ بمرورهم عنها، فجوازهم النارَ، ومقدارُ سرعتهم بمقدارِ أعمالهم التي كانت في الدنيا، ولا يقعُ فيها إلا مَنْ وَجَبَ عليه العذابُ من الكفارِ والعصاةِ⁵، ووجهُ الترابطِ بينَ الآيتينِ أنَّ الأولى تضمَّنتِ المرورَ، والثانيةُ تضمَّنتِ نجاةَ المؤمنينَ، وهلاكَ الكافرينَ.

3.10 سورة الأنبياء

مكيَّةً، واستثنى منها⁶ قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾⁷، وقد وُصِلت هذه الآيةُ وصلًا عكسيًا قبليًا بـ(بل) مع الآيةِ السابقةِ، ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّا يُصْحَبُونَ﴾⁸، والوصلُ العكسيُّ يدلُّ على أنَّ الجملتينِ لم تتفاعلا في عالمِ النصِّ، وهذا مُسمَّاهُ، عندَ النحاةِ، إضرابُ انتقالِيٍّ، فلمَّا بيَّنت آيةُ (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، انتقلَ السياقُ،

¹ قيل (سجَّدًا) كناية عن الصلاة، وتأويله أنهم يكونون في الصلاة خاشعين باكين. ينظر: الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ط1، ج7، ص246.

² ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج18، ص215. وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص134.

³ مريم، 71.

⁴ مريم، 72.

⁵ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط2، ج5، ص256، 257. وينظر: المراغي، تفسير المراغي، ط1، ج16، ص75.

⁶ ينظر: الأوسى، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1، ج9، ص3. وينظر: القاسمي، محاسن التأويل، ط1، ج7، ص172.

⁷ الأنبياء، 44.

⁸ الأنبياء، 43.

بوساطة (بل)، إلى بيان الحال التي كانوا عليها، فقد "متعهم الله وآبأهم قبلهم، بما رزقهم من نعيم الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاءٍ ونعمةٍ، فحملهم ذلك على الطغيان، واللجاج في الكفر"¹، وقد حَقَّقَ الحرف (بل) هذا الوصل العكسي بين الجملتين، بإقامة علاقةٍ منطقيَّةٍ بين التراكيب والمعاني.

وتضمَّنت هذه الآية حِكْمًا بالنقض والإبطال؛ لما وردَ في الآية السابقة، ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّا يُصْحَبُونَ﴾²، إذ قوله: "بل متعنا هؤلاء" إضرابٌ وبطلانٌ لما توهموه من أنَّهم على شيءٍ³، فجاءت الآية التالية: "الإبطال دعوى المشركين، فقال تعالى: "بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ بِمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ هُمْ وَأَبَاءَهُمْ، فَظَنُّوا أَنْ آلِهَتُهُمْ هِيَ الْحَافِظَةُ لَهُمْ، بَلِ اللَّهُ هُوَ الْحَافِظُ، حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعَمْرُ، فَانغَرُّوا بِذَلِكَ"⁴.

3.11 سورة الحج

الراجح أنها مكِّيَّة، وممَّا استثنيت منها⁵ قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾⁶، وفيها ثلاثُ مصاحباتٍ معجميَّةٍ، جاءت على هذا النحو:

أ. علاقة الجزء بالجزء: فقد وردَ في هذه الآية الجزء (رؤوسهم)، مصحوبًا بجزأين آخرين، هما: (بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودِ)، في الآية التالية، ﴿يُصْنَعُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾⁷، فجاءت هذه الأجزاء مشتملةً في لفظٍ كليٍّ واحدٍ، هوَ البدنُ، ووجهُ العلاقة أن مضمارة الكلام هوَ عذابُ الكافرين في نارٍ

¹ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج4، ص165.

² الأنبياء، 43.

³ ينظر: الإيجي، محمد بن عبد الرحمن، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن، ط1، ج3، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ص19.

⁴ ينظر: أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط5، ج3، ص121. وينظر: الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، ج3، ص417.

⁵ ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط1، ج4، ص64. وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، ج23، ص199.

⁶ الحج، 19.

⁷ الحج، 20.

جهنم، فبيّنت الآيات أحوال العذاب ومواضعه في أجزاء البدن¹؛ تخويفاً لهم كي يؤمنوا، أو "إمعاناً في تبييتهم على ما أصرُّوا عليه في الدنيا من استهتارٍ واستهزاءٍ، وعنادٍ وعداءٍ"²، وقد عدلت الآيات عن ذكر الكل؛ لأنَّ الجزء دالٌّ عليه بالضرورة، ومثلُ هذا المعنى، المرتبطُ بتفصيلِ أحوالِ عذابِ الكافرين، وذكرِ أجزاءِ أبدانهم، مألوفٌ في الشريعة الإسلامية، فقد وردَ في غيرِ موضعٍ من الكتابِ قوله: "أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاَّ النار"³، وقوله: "كلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ"⁴، ومثلُ ذلك ما وردَ عن النبي: "إنَّ الحميمَ ليصبُّ على رؤوسهم، فينفذُ الجمجمة، حتى يخلُصَ إلى جوفه، فيسلَّتْ ما في جوفه، حتى يمرُقَ من قدميه"⁵، وقد اجتمعت هذه الأجزاء في هذا السياق، فجاء النصُّ متلاحمَ العناصر.

ب. علاقة الانتماء إلى مجموعة غير منتظمة، أو الارتباط بموضوع معين: جاءت هذه المصاحبة في الآيتين السابقتين، وآية ثالثة تالية لهما، وهي قوله: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾⁶، فاجتمعت فيها هذه الألفاظ (نار) ويصبُّ والحميم ويصهر ومقامع وحديد؛ لتدلَّ على موضوع تدويب المعدن، فبدت هذه الآيات مترابطة فيما بينها، في نسق متماسك، بانتماء هذه الألفاظ لمجموعة دلالية واحدة.

ج. التلازم الذكري: جاءت هذه المصاحبة في هذه الآية في قوله: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾، وفي آية تالية عند قوله: "وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ"⁷، إذ تجلَّت علاقة التلازم الذكري بين لفظي (نارٍ وحرّيق)، وهذه العلاقة بين هذين اللفظين ممّا هو مألوفٌ في الكتاب، فقد وردَ في موضعٍ آخر، هو

¹ ينظر: الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، ط1، ج4، ص167.

² نفسه، ص167.

³ البقرة، 174.

⁴ النساء، 56.

⁵ قال أحمد: "حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن المبارك، عن سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن ابن حجريرة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم...". ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حلال الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط1، ج14، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2001، ص452، رقم الحديث 8864.

⁶ الحج، 21.

⁷ ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، الحج، 22.

قوله: "فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ"¹، ذلك أن جهنم والنار ذات واحدة، ووجه العلاقة بين النار والحريق ظاهرٌ بائنٌ؛ فالنار ذاتٌ مُحْرِقَةٌ، والحريق وصفٌ لازمٌ لها.

وجاءت هذه الآيةُ محبوكةً بعلاقة السببِ بالنتيجةِ مع الآيةِ التاليةِ لها، ﴿يَصْنَعُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾²، وقد سبق أثرٌ عن النبيِّ يبيِّنُ هذه العلاقةَ عندَ قوله: "إِنَّ الْحَمِيمَ لِيَصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ..."، إلى قوله: "وَهِيَ الصَّهْرُ..."؛ ليتضحَ أنَّ الصهرَ في الآيةِ التاليةِ ناتجٌ عن صبِّ الحميمِ على رؤوسِهِم في الآيةِ السابقةِ.

3.12 سورة الفرقان

مكيةً، واستثنوا منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾³، وقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾⁴، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...﴾⁵، فهي مدنيَّةٌ⁶.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾، وقع تكرارٌ بالتوازي بعدئذٍ قريبٌ مع آيةٍ تاليةٍ، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾⁷، فقد كررت البنية التركيبية في الجملتين "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ"، و"وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ"، فالبنيان متماثلتان شكلاً، مختلفتان مضموناً، فكلتاهما تبدأ بالاسم الموصول (الذين)، وصلته فيهما مضارعٌ مرفوعٌ منفيٌّ بـ(لا)، وهذا ما منح النصَّ تزواجاً موسيقياً، أفضى إلى ترابطه، وبيان أن سياق النصِّ واحدٌ.

¹ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَنْبُؤُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، البروج، 10.

² الحج، 20.

³ الفرقان، 68.

⁴ الفرقان، 69.

⁵ الفرقان، 70.

⁶ ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج3، ص262.

⁷ الفرقان، 72.

وكذلك وَقَعَ حَذْفُ شِبْهِ جُمْلَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...﴾، وتقديرُ الكلام: (إِلَّا مَنْ تَابَ مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ وَالزَّوْنِ وَآمَنَ بِاللَّهِ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا)، فالفعلُ (تابَ) يتعدى بِـ (من)¹، والفعلُ (آمنَ) يتعدى بالباء²، وقد حُسِّنَ حَذْفُ مُتَعَلِّقِي الْفَعْلَيْنِ؛ لِأَنَّ مَعْنِيَهُمَا مَذْكُورَانِ بِقَرِينَةٍ مَقَالِيَّةٍ قَبْلِيَّةٍ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ...﴾³، فَلَمَّا كَانَ مِضْمَارُ السِّيَاقِ النَّهْيَ عَنِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَقَتْلِ النَّفْسِ، وَالزَّوْنِ، حُسِّنَ حَذْفُ مُتَعَلِّقِي الْفَعْلَيْنِ، وَوَجَّهَ ذَلِكَ أَنَّهُمَا مَعْلُومَانِ مِنَ السِّيَاقِ، وَذِكْرُهُمَا مَرَّةً أُخْرَى يَكُونُ حَشْوًا، لَا فَائِدَةَ فِيهِ، بَلْ إِنَّ حَذْفَهُمَا جَعَلَ السِّيَاقَ مُسَلِّطًا عَلَى مُطْلَقِ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ، وَكَأَنَّهُمَا مَقْصُودَانِ مُطْلَقًا بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ مُتَعَلِّقِيهِمَا.

وَحُبِّكَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِعِلَاقَةِ التَّأَكِيدِ مَعَ الْآيَةِ التَّالِيَةِ لَهَا، ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾⁴، وَوَجَّهَ الْعِلَاقَةَ أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى ذَكَرَتْ مَنْ تَابَ عَنِ الْمَعَاصِي بِتَرْكِهَا وَالنَّدَمِ عَلَيْهَا، وَعَمِلَ صَالِحًا مُقَابِلَ مَا فَرَّطَ فِي حَقِّ اللَّهِ⁵، وَجَاءَتِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ؛ لِتَأَكِيدَ "أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَنْفَعُ إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَيَتُوبَ مَتَابًا، أَي: حَقَّ التَّوْبَةِ"⁶، الَّتِي تُعْظِمُ لَهُ الثَّوَابَ وَالْجَزَاءَ عِنْدَ رَبِّهِ⁷.

3.13 سورة لقمان

هِيَ مَكِّيَّةٌ، وَاسْتُنْتِجِي مِنْهَا بَعْضُ آيَاتٍ، مِنْهَا⁸ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾⁹، وَقَدْ وُصِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَصَلًا إِسْنَادِيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا قَبْلِيًّا مَعَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ لَهَا، وَهِيَ

¹ الفعل تاب "يتعدى بمن" يقال تاب من ذنبه، أي رجع عنه يتوب إلى الله توبة ومتابا، فهو تائب". توب، ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم المقاييس، ج1، اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر، (د.ت).

² "وهو (أي آمن) يتعدى بالباء، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ...﴾. أمن. جبل، محمد حسن حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2010.

³ الفرقان، 68.

⁴ الفرقان، 71.

⁵ ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط1، ج4، ص131.

⁶ النيسابوري، التفسير البسيط، ط1، ج1، ص415، الحاشية.

⁷ ينظر: الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج3، ص331.

⁸ ينظر: الأوسى، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1، ج11، ص64. وينظر: الكرمي، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد، قلند المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن، تحقيق: سامي عطا حسن، الكويت، دار القرآن الكريم، 2019، ص165.

⁹ لقمان، 4.

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾¹، إذ جاء قوله (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ...) نعتاً لـ(المحسنين)²، فقد وقع الموصول (الذين) في موضع جرٍّ إبتاعاً لـ(المحسنين)، ووجه ذلك أنّ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان باليوم الآخر، من وصف المحسنين، وقد حقت هذه العلاقة بين النعت ومنعوتيه ربطاً إسنادياً معنوياً ذهنياً دونما ملفوظ، فجاء الكلام الثاني وصلّاً للكلام الأول، بإقامة تلك العلاقة بين النعت ومنعوتيه، لما بينهما من خصوص وعموم.

3.14 سورة السجدة

مكيّة انفاقاً، واستنتى منها مقاتل³ قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾⁴، وقال غير مقاتل⁵: "فيها ثلاث آيات مدنيات، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... تكذبون﴾⁶.

وجاء قوله ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾ موصولاً وصلّاً معنوياً قبلياً مع الآية السابقة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾⁷، فقد وقعت "جملة (تتجافى جنوبهم) حالاً من الموصول، أي: الذين إذا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا، ومن حالهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع⁸، وقيل: "جملة (تتجافى جنوبهم) حال من فاعل (سبّحوا)"⁹، والربط بين الجملتين واضح

¹ لقمان، 3.

² ينظر: الخراط، أبو بلال، أحمد بن محمد، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، ج1، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1426هـ، ص234.

³ ينظر: الأزدي، تفسير مقاتل بن سليمان، ط1، ج3، ص447.

⁴ السجدة، 16.

⁵ ينظر: الأزدي، تفسير مقاتل بن سليمان، ط1، ج3، ص447.

⁶ السجدة، 18، 19، 20.

⁷ السجدة، 15.

⁸ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص228.

⁹ ينظر: الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، ج3، ص956.

بيِّن، ذلك أنَّ جملة الحالِ وصفٌ لصاحبها كالنعتِ لمنعوتِه، وقيدٌ لعاملها وبيانٌ لكيفية وقوعه¹ وبهذا الاعتبارِ جاءَ الكلامُ الثاني موصولًا بالأولِ وصلًا معنويًا.

وتمَّ حُبْكُ بعلاقةِ الملابسِ بينَ هذه الآيةِ والآيةِ السابقةِ، ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾²؛ إذُ بينتُ هذه الآيةُ أنَّ من أوصافِ المؤمنين أنَّهم يسجدون ويسبحون ربَّهم، أي يصلُّون حمدًا له، ولا يستكبرون عن عبادته³ وجاءتْ جملةٌ تتجافى جنوبهم عن المضاجعِ في الآيةِ التاليةِ حالًا⁴ مقيدًا ذلكَ السجودَ، وتلكَ الصلاةُ؛ لأنَّ جنوبهم قد جفت عن مضاجعها في الحالِ التي تلبَّسوا فيها بالصلاة⁵، وقد دلَّ هذا الارتباطُ بينَ الآيتينِ على أنَّ المرادَ بالصلاةِ هو قيامُ الليلِ خاصةً، لعلاقةِ الملابسِ بينَ الجملتينِ⁶.

3.15 سورة فاطر

"مَكِّيَّةٌ، بِاللِّتْفَاقِ وَحَكَى الْأَوْسِيِّ عَنِ الطَّبْرَسِيِّ أَنَّ الْحَسَنَ اسْتَنْتَى آيَتَيْنِ: آيَةَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ...﴾، وَآيَةَ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾"⁷، وقد وقعَ استبدالٌ في آيةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ...﴾⁸، مع الآيةِ التاليةِ، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ

¹ ينظر: الدسوقي، محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفازاني، [ومختصر السعد هو شرح تلخيص مفتاح العلوم لجلال الدين القزويني]، ج2، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت، المكتبة العصرية، د.ت، ص583.

² السجدة، 15.

³ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج14، ص99.

⁴ "جملة تتجافى جنوبهم" حال من فاعل "سبحوا". الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، ج3، ص956. وينظر: صالح، بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، ط2، ج9، ص198.

⁵ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج20، ص181.

⁶ هذا المعنى اختاره الطبري وغيره، قال: "فإن توجيه الكلام إلى أنه معني به قيام الليل أعجب إلي؛ لأن ذلك أظهر معانيه، والأغلب على ظاهر الكلام، وبه جاء الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذلك ما حدثنا به ابن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن الحكم، قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن معاذ بن جبل، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل"، وتلا هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا وميمًا رزقناهم ينفقون) ". الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج20، ص181.

⁷ ينظر: الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1، ج11، ص334.

⁸ فاطر، 29.

مُصَدَّقًا لَمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ¹، وهو استبدالٌ اسميٌّ، حاصلٌ باستبدالِ اسمِ (الكتابِ) باسمِ (كتابِ الله)، ووجهُهُ أَنَّ الكتابَ جاءَ معرفًا بإضافتهِ إلى الاسمِ الكريمِ (اللهِ)، واستغنيَ عن هذه الإضافةِ في المرةِ التالية؛ لدلالةِ (ال) العهديةِ عليها، فقد جاءتْ (ال) للعهدِ الذكرِي؛ لتدلَّ على المذكورِ السابقِ نفسه.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾، فقد وُصِلَ بالعطفِ بِ(ثُمَّ) وصلًا زمنيًّا قبلًا مع الآيةِ السابقة، ﴿وَالَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدَّقًا لَمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ²، ووجهُ ذلكِ الوصلِ أَنَّ العاطفَ (ثُمَّ) جاءَ، هاهنا، للترتيبِ مع التراخي³، إذ لَمَّا أوحى اللهُ كتابَهُ لنبيهِ (وَالَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ)، أتبعَ ذلكَ بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾، فكان معلومًا أَنَّ الميراثَ هو انتقالُ الموروثِ من قومٍ في زمنٍ، إلى قومٍ آخرينَ في زمنٍ آخر⁴، وقد دلَّ العاطفُ (ثُمَّ) على هذا الترتيبِ الزمنيِّ، فجاءَ الكلامُ متتابعًا.

كما جاءتْ هذه الآيةُ محبوكةً مع ما قبلها وما بعدها من آياتِ بعلاقةِ التدرجِ، إذ تدرجَ السِّيَاقُ في بيانِ أحوالٍ متعددةٍ متتابعةٍ مترابطةٍ على هذا النحو:

- الحالُ الأولى: نزولُ الوحيِّ، في قوله: ﴿وَالَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ...﴾⁵.
- الحالُ الثانيةُ: أَنَّ المصطفينَ من عبادِ اللهِ ورثوا كتابَهُ، وأتبعوا هديَهُ، في قوله في الآيةِ المستتناة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾.
- الحالُ الثالثةُ: دخولُهم الجنةَ متمتعينَ بما فيها من نعيمٍ، في قوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾⁶.

¹ فاطر، 30.

² فاطر: 31.

³ ينظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه، ط4، ج8، ص155.

⁴ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج20، ص469.

⁵ فاطر، 31.

⁶ فاطر، 33.

الحال الرابعة: حمدُهم الله بما آتاهم، في قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾¹.

وهذا التدرج يُبيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْمَسْتَنْتَاةَ جَاءَتْ مُرْتَبِطَةً بِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، بِصُورَةٍ مُنْتَظِمَةٍ مُتتَابِعَةٍ؛ لِيَسْهَمَ ذَلِكَ فِي تَرَابِطِ الْمَعَانِي.

3.16 سورة الزمر

مكيَّةً، بالاتفاق، "وروي عن ابن عباسٍ أَنَّهُ قَالَ: فِيهَا آيَاتَانِ نَزَلَتَا بِالْمَدِينَةِ: قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾، وقولُهُ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا...﴾²، واستنتى بعضهم غيرَ هذا، وقد وقع استبدالُ فعليٍّ بعديٍّ في آيةٍ ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا...﴾³ مع آيةٍ سابقةٍ، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ...﴾⁴، إذ استُبدِلَ الفعلُ (نَزَلَ) بالفعلِ (أَنْزَلَ)، مراعاةً لسياقِ المقالِ، ووجهُ ذلك الاستبدالِ أَنَّ الفعلَ (أَنْزَلَ) جَاءَ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَلَى نَزُولِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، فَنَاسِبَ هَذَا الْفِعْلِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى نَزُولِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً⁵، أمَّا الفعلُ (نَزَلَ) جَاءَ مُنَاسِبًا لِسِيَاقِ الْكَلَامِ عَلَى نَزُولِ الْقُرْآنِ، إِذْ إِنَّهُ نَزَلَ مُنْجَمًا عَلَى مَرَاكِلَ، وَقَدْ دُلَّ الْإِسْتِبْدَالُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي السِّيَاقِيَّةِ.

3.17 سورة غافر

انتقوا على مكيتها، واستنتى منها ابنُ عباسٍ وقَتَادَةُ آيَتَيْنِ⁶، هما قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾⁷، وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُلْبِغُ الْأَسْبَابَ﴾⁸، وقد وقع في

¹ فاطر، 34.

² الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج4، ص7.

³ الزمر، 23.

⁴ الزمر، 21.

⁵ ينظر: ابن عقيلة، المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ط1، ج6، الإمارات العربية المتحدة، مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة، 2006، ص347.

⁶ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج15، ص288.

⁷ غافر، 35.

⁸ غافر، 36.

الأولى استبدال اسمي مع الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ...﴾¹، وذلك باستبدال (آيات الله) بـ(البيّنات) مراعاةً لسياق المقال، ووجه ذلك أنّ بني إسرائيل لم يزالوا في شكٍ ممّا جاءهم به يوسف، عليه السلام، فلم يؤمنوا به²، فجاء لفظ (البيّنات) في مقابل الشكّ الذي هم فيه؛ ليدفعه، فإذا كان الشكّ يُدفع بالبيّنة، فإنّ الحجة قد قامت عليهم، وكذلك جاء لفظ (آيات الله) في الآية التالية بدلاً من (البيّنات) منسجماً مع السياق المقالي، ذلك أنّ هؤلاء الكفار اعتقدوا بطلان نسبة الآيات إلى الله، غير شاكّين في ذلك، فجادلوا فيها بغير حجة وسلطان؛ ليدحضوها³، فجاء النصُّ بإضافتها إلى الله (آيات الله)؛ لإثبات تلك النسبة.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾⁴، ووقع تكرار جملة "الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ" ثلاث مرات، تكراراً محضاً تاماً بعدياً، مع آيتين تاليتين، هما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾⁵، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾⁶، ومسوّغ تكرار المجادلة في آيات الله أنّ مضمون السورة هو قضية الحق والباطل، والدعوة إلى الله والتكذيب بها، ومجادلة المشركين لمحمد، بغير حجة ولا برهان، وقد بينت هذه الآيات أنّ جدالهم تشغيب لا طائل من ورائه⁷، وهذا يفسر، أيضاً، تكرار الأصل اللغوي (جدل)⁸، بمعنى المجادلة خمس مرات في هذه السورة تكراراً اشتقاقياً، ويؤكد هذا المعنى تكرار لفظ (سلطان) بمعنى الحجة والبرهان تكراراً محضاً ثلاث مرات، مرتين في الآيتين السابق ذكرهما، وثالثة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾⁹، وقد أفاد هذا التكرار التنبية على بطلان أقوال المشركين؛ لكونها

¹ غافر، 34.

² ينظر: المراعي، تفسير المراعي، ط1، ج24، ص68.

³ ينظر: الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ط1، ج9، ص28.

⁴ غافر، 35.

⁵ غافر، 56.

⁶ غافر، 69.

⁷ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص77.

⁸ غافر، 4، 5، 35، 56، 69.

⁹ غافر، 23.

بغير حجة ولا برهان، وفي هذا كفاية عن جدالهم، وقد جاءت هذه المعاني المتتابعة في بعض تراكيب، وألفاظٍ مكرورة، منسجمة مع سياقاتها، فبدا نسيجُ السورة مترابطاً من جهة اللفظ والمعنى.

3.18 سورة الدخان

مكيّة، واستثنى منها عددٌ غير قليلٍ من المفسرين¹، قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾²، وقد وقع حذفٌ قبليٌّ لشبه الجملة (عنهم)، المتعلق بالوصف (كاشفون)، وتقديرُ الكلام: (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ عَنْهُمْ قَلِيلًا)، ودليلُ هذا الحذف قرينةٌ مقاليةٌ في آيةٍ سابقة، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾³، ولما كان من عادة العرب أن يُضمروا ما كان مُظهرًا استخفافاً؛ لأنَّ المخاطبَ يعلم ما يعني المتكلم⁴، استُسيغَ هذا الحذف، وحسن، لا سيما أن الآية الثانية جاءت استجابةً لدعوة الكفار في الآية الأولى، وهذا يكشف مدى الارتباط بين الآيتين، وبذلك كان لا فائدة من ذكر متعلق الوصف (عنهم)، لوجود ما يدلُّ عليه من غير خفاء ولا لبس⁵.

وكذلك حُكَّتْ هذه الآية بعلاقة السبب بالنتيجة مع آيةٍ سابقة، وهي قوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾⁶، إذ جاء قوله تعالى "إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا" مُسَبَّبًا عن قوله تعالى، حكايةً على لسانهم: "رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ" أو جواباً له⁷، والمعنى: "إِنَّا مؤخِّروُ العذابِ عنكم قليلاً، بعد انقضاء أسبابه، ووصولهِ إليكم، وأنتم مستمرُّون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال"⁸، وفيه تنبيهٌ على أنَّهم لا يوفون بالعهد، وأنهم

¹ ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، ج27، ص651. وينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج4، ص269. وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط1، ج5، ص99.

² الدخان، 15.

³ الدخان، 12.

⁴ ينظر: سيبويه، الكتاب، ط3، ج1، ص224.

⁵ ينظر: حسن، عباس، النحو الوافي، ط15، ج1، ص385.

⁶ الدخان، 12.

⁷ ينظر: أبو السعود، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، ج8، ص61.

⁸ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط2، ج7، ص250.

يلجؤون إلى الله ساعة الخوف، وإذا زال إلى الكفر¹، والمعنى والتنبية يكشفان عن الارتباط بين الآيتين بعلاقة السبب بالنتيجة.

3.19 سورة الجاثية

مكية، واستنوتوا منها² قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾³، وجاء فيها مصاحبة معجمية، بعلاقة الاندراج في صنف عام، مع الآية التالية، قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...﴾⁴، فقد اندرج قوله (عمل صالحًا) و(أساء) في لفظ (يكسبون)، إذ الكسب مشتمل على العمل الصالح والسيئ معًا، وهذه الدلالة سائرة في الكتاب، كقوله تعالى: ﴿... لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، وقوله: ﴿... ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال ابن تيمية: "الكسب هو الفعل"⁵ مطلقًا، ووجه علاقة الاندراج، هاهنا، أن الآية الأولى بُنيت على عموم الكسب؛ "ليجزى الله كل قوم بما كانوا يكسبون من خير، أو شر، بما يناسب كسبهم، فيكون وعيدًا للمشركين المعتدين على المؤمنين، ووعدًا للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز عن أذى المشركين"⁶، ويدل على هذا العموم لفظ (ما) الموصولة⁷، في قوله (بما كانوا)، وتكثير (قومًا)، أيضًا، دال على ذلك، ولهذا حسن تفصيل هذا العموم والشمول، بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، فجاءت هذه الجملة مفصلة، ولم تُعطف على سابقتها⁸.

¹ ينظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ط1، ج3، ص160.

² ينظر: الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، ج4، ص96. وينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج4، ص284. وينظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ط1، ج2، ص270.

³ الجاثية، 14.

⁴ الجاثية، 15.

⁵ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلبي، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ج3، تحقيق: محمد رشاد سالم، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1986، ص210.

⁶ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص342.

⁷ ينظر: قدس، عبد الحميد بن محمد علي، لطائف الإشارات على تسهيل الطرقات لنظم الورقات في الأصول الفقهيّات، مصر، مطبعة ومكتبة مصطفى الباي الحلبي، 1950، ص28.

⁸ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص342.

وَتَمَّ حَبْكٌ، بعلاقة التفصيل بعد الإجمال، بين هذه الآية والآية التالية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾¹، ووجه ذلك أنه لما ذَكَرَ مجازاة الناس في الآخرة بما كانوا يكسبون في الحياة الدنيا، جاءت الآية التالية تفصيلاً، لذلك الكسب المَجْمَل²، فقال: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...؛ لتبين الآية أن كسب الإنسان مجمل يدخل فيه صالح الأعمال وسيئها، وخيرها وشرها"³، واستدل ابن عاشور على هذا التفصيل، هاهنا، بترك العطف، وفصل جملة "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا..."⁴، كما سبق.

3.20 سورة الأحقاف

مَكِّيَّةٌ، واستثنى بعضهم منها⁵ قوله (تعالى): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾⁶، واستثنى آخرون زيادة على هذا⁷.

وفي هذه الآية جاء ضمير الجمع المخاطب التاء (تم) مكرراً ثلاث مرات، في قوله (أَرَأَيْتُمْ، كَفَرْتُمْ، اسْتَكْبَرْتُمْ) ومحيلًا على خارج النص، إلى اليهود، إحالةً مقاميةً خارجيةً، وقد جاءت هذه الإحالة؛ لتربط هذه الآية بسائر آيات السورة جميعاً، ذلك أن محور هذا القسم من الآيات هو بنو إسرائيل، ودل سياق المقال على هذا المحال عليه، بذكر بني إسرائيل صراحةً، وذكر نبيهم موسى مرتين⁸.

¹ الجاثية، 15.

² ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص342. وينظر: المراغي، تفسير المراغي، ط1، ج25، ص148.

³ ينظر: ابن منلا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج7، ص400.

⁴ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص342.

⁵ ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، ج5، ص91.

⁶ الأحقاف، 10.

⁷ "حكى ابن عطية استثناء آيتين هما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ إلى الظالمين [الأحقاف: 10] فإنها أشارت إلى إسلام عبد الله بن سلام، وهو إنما أسلم بعد الهجرة، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرِّسَالِ﴾ [الأحقاف: 35]. وفي (الإنتقان) ثلاثة أقوال باستثناء آيات ثلاث منها الثنتان اللتان ذكرهما ابن عطية والثالثة ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ إلى قوله: خاسرين [الأحقاف: 15 - 18]. ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص5.

⁸ قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، الأحقاف، 12. وقوله ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنْ سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ بَيْنَهُ﴾، الأحقاف، 30.

أما ضميرُ الهاءِ المفردُ، فقد وردَ مرةً مستترًا في قوله (كان)، ومرتينِ ظاهرًا متصلًا في قوله (به)، مثله؛ ليحيلَ على مرجعِ سابق، هوَ الكتابُ (القرآنُ)، في آيةٍ سابقةٍ، هي: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾¹، إحالةً نصيَّةً قبليَّةً، ذاتَ مدىٍ بعيدٍ، وقد دلَّ سياقُ المقالِ على هذا العنصرِ بإحالةِ ضميرِ الهاءِ للغائبِ المفردِ في القسمِ الأولِ من السورةِ إليه، كقوله (افتَرَاهُ، افْتَرَيْتُهُ، به، قَبْلَهُ)، وكذلك الضميرُ المستترُ المفردُ في قوله (لَوْ كَانَ خَيْرًا)².

وقد حُبِّتْ هذه الآيةُ مع ما قبلها بعلاقةِ الحجاجيَّةِ، إذ جاءتْ محاجَّةً³ لقولهم في آياتِ الله: "هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ"⁴، وقولهم: "افتَرَاهُ"⁵؛ لتثبتَ أنَّ هذا القرآنَ من عندِ الله، وأنَّ محمدًا صادقٌ فيما يقولُ، بشهادةِ شاهدٍ من بني إسرائيلَ، الذين كانوا يرجعونَ إليهم⁶، فجاءَ بالاستفهامِ التقريريِّ، والشرطِ المنطقيِّ، لإقامةِ الحُجَّةِ العقليَّةِ عليهم، بأنَّهم قومٌ مستكبرونَ، وقد أفضتْ هذه المحاجَّةُ إلى اتصالِ السِّيَاقِ⁷.

3.21 سورة النجم

هي مكِّيَّةٌ، واستثنِي منها⁸ آيةٌ واحدةٌ، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْفَرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَاءٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾⁹، وقد جاءتْ موصولةٌ وصلًا معنويًا قبليًا مع الآيةِ السابقةِ، ﴿وَاللَّهُ مَا فِي

¹ الأحقاف، 1.

² ينظر: الأردني، تفسير مقاتل بن سليمان، ط1، ج4، ص19.

³ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص18.

⁴ ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. الأحقاف، 7.

⁵ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. الأحقاف، 8.

⁶ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج16، ص188.

⁷ لقد سبق هذه المحاجَّةُ محاججاتٍ أخرى مضمَّنة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص18.

⁸ ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج4، ص416. وينظر: المراغي، تفسير المراغي، ط1، ج27، ص41.

⁹ النجم، 32.

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى¹، ووجه الوصل أن الموصول وصلته (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ...) جاء نعتاً² للموصول السابق وصلته (الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)، والترابط بين المعنيين واضح بيّن، ذلك أن الإحسان فعل، واجتناب كبائر الإثم ترك، فجاء الوصف مقابلاً للموصوف؛ ليدل على اجتماع المعنيين في ذات الممدوحين، "إذ إنه لا يستحق الذين أحسنوا هذا الوصف بالإحسان، إلا إذا كانوا ممن يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم، وإلا فهم من الذين أسأؤوا، وليس لهم مدخل إلى الذين أحسنوا، فلا يجتمع الإحسان مع مقارفة الكبائر، وإتيان الفواحش"³، وقد حَقَّقَ النعت، بوصفه تركيباً نحويّاً، هذا الترابط المعنوي بينه وبين منوعته، دون الحاجة إلى وصل لفظي بينهما.

3.22 سورة القمر

سورة القمر مكيّة، إلا قوله (تعالى)⁴: ﴿سِيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ﴾⁵، وجاءت هذه الآية محبوكة بعلاقة النقص والإبطال مع الآية السابقة، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾⁶، فقوله: "سِيَهْرَمُ الْجَمْعُ" ردّ وإبطال⁷ لقولهم: "جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ"، فلما كانوا يعتقدون أنهم سينصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم الذي جمعوه سيدفع عنهم السوء⁸، جاء قوله (تعالى): "سِيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ"؛ مؤكداً بالسین، بأن شملهم سيتفرق وسيغلبون، ويولون الأدبار، وقد كان ذلك فعلاً واقعاً يوم بدر⁹، وقد أبانت علاقة الناقض بالمنقوض هذه، أو المبطّل بالمبطل عن التلاحم السياقي.

¹ النجم، 31.

² ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج17، ص106. وينظر: الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ط1، ج9، ص429.

³ الخطيب، عبد الكريم بونس، التفسير القرآني للقرآن، ج14، ص610.

⁴ ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج4، ص430. وينظر: السمعاني، تفسير السمعاني، ط1، ج5، ص306.

⁵ القمر، 45.

⁶ القمر، 44.

⁷ ينظر: أبو السعود، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، ج8، ص174.

⁸ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط2، ج7، ص256، 481.

⁹ ينظر: المراغي، تفسير المراغي، ط1، ج27، ص98.

3.23 سورة الواقعة

مكية، وفي رواية عن الكلبي: "مكية إلا أربع آيات، منها آيتان، هما: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾¹ و: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾²، نزلتا في سفر، وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى﴾³ و: ﴿وَتِلْكَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾⁴ نزلتا في سفره إلى المدينة⁵.

وقد وقع حذف اسمي في قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى﴾⁶، تقديره (أصحاب اليمين ثلثة من الأولين)، ودليله قرينة مقالية قبلية في آيات سابقة، وهي قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾، ﴿عُرْبًا أُنثِيًّا﴾، ﴿لِلْأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾⁷، وقال الفراء: "﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، ورفعها على الاستئناف، وإن شئت جعلتها مرفوعة، تقول: ولأصحاب اليمين ثلثان: ثلثة من هؤلاء، وثلثة من هؤلاء، والمعنى: هم فرقتان: فرقة من هؤلاء، وفرقة من هؤلاء"⁸، ووجه هذا الحذف أن الفائدة تحصل بالمبتدأ والخبر معاً، فلا بدّ منهما لحصولها، فالمبتدأ مستند الفائدة، والخبر محلها، إلا أنه يعتري الكلام قرينة مقالية أو مقامية تغني عن ذكر أحدهما، فيُحذف لدلالته عليه؛ لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى دون اللفظ، جازاً أُلّا تأتي به، ويكون مراداً حكماً وتقديراً⁹، وإدراك المتلقي لهذه القرائن هو إدراك للمحذوف، وفهم للمعنى المراد.

¹ الواقعة، 81.

² الواقعة، 82.

³ الواقعة، 39.

⁴ الواقعة، 40.

⁵ النعماني، اللباب في علوم الكتاب، ط1، ج18، ص367. الشوكاني، فتح القدير، ط1، ج5، ص176.

⁶ الواقعة، 39.

⁷ الواقعة، 36، 37، 38.

⁸ الفراء، معاني القرآن، ط2، ج3، ص126. وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، ج17، ص212.

⁹ ينظر: ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي بن أبي السرايا، شرح المفصل للزمخشري، ط1، ج1، قدم له: إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001، ص239.

وفي قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى﴾¹، وقوله: ﴿وَتَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾² تكراران، الأولُ تكرارٌ محضٌ تامٌّ قبليٌّ على مستوى الجملة، إذ كررت جملة "ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى" مرتين، الأولى في الآية الثالثة عشرة، والثانية هاهنا، أمّا التكرارُ الثاني، فتكرارٌ قبليٌّ بالتوازي، بين جملتي "وَتَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ"، و"وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ"³، إذ بدأت كلتا الجملتين بخبرٍ لمبتدأٍ محذوفٍ⁴، يتلوهُمَا وصفٌ بالجارِّ والمجرورِ (من الآخِرِينَ)، وفي هذا تأكيدٌ على حالِ أولئك المؤمنين ووصفهم، فضلًا على الأثرِ النفسي الذي يحققه تكرارُ الأصواتِ نفسها، والتركيبُ النحويُّ ذاتها.

3.24 سورة القلم

سورة مكية، إلا⁵ قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾⁶، إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾⁷، وقد ارتبطت هذه الآياتُ بعلاقة التنظيرِ مع الآياتِ السابقة، عند قوله: ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولَى سَنَسِيْمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾⁸، ووجهُ العلاقةِ أنه لما ذكرتِ الآياتُ الأولى تكذيبَ ذلك الكافر⁹ ما سمع من آياتِ الله، وقوله عنها: أساطيرُ الأولين، جاءتِ الآياتُ المستثناة؛ لعقدِ مناسبةٍ بين حالِ هذا الفاجرِ، وحالِ أصحابِ الجنة¹⁰، الذين نزلَ عليهم عذابٌ من الله، وذلك للتنظيرِ بحالِ المكذبينِ بمحمدٍ، أنهم سيلقونَ عذابًا كعذابِ أولئك القومِ، فمصيرُ المكذبينِ بالرسولِ واحدٌ؛ لتمامِ تشابهِ حالِهِم بينَ الماضي والحاضرِ، وهذه العلاقةُ تكشفُ عنَ قوةِ اتصالِ المعاني بينَ الكلامِ السابقِ واللاحقِ.

¹ الواقعة، 39.

² الواقعة، 40.

³ الواقعة، 14.

⁴ ينظر: الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، ج4، ص1274.

⁵ ينظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ط1، ج2، ص398. وينظر: أبو السعود، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، ج9، ص11.

⁶ القلم، 17.

⁷ القلم، 33.

⁸ القلم، 15، 16.

⁹ هو الوليد بن المغيرة، وقيل: النضر بن الحارث. ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، ج31، ص88.

¹⁰ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص79.

3.25 سورة المعارج

مكيّةً بالاتفاق، وفي روايةٍ عن الحسن¹: مكيّةٌ، إلا قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾²، وقد كرر تركيب هذه الآية النحوي ستّ مراتٍ، تكراراً بعدياً بالتوازي، فوافق هذا التركيب قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾³، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾⁵، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾⁶، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾⁷، ووجه ذلك أنّ كلّاً من هذه الآيات بدأ بالاسم الموصول (الذين)، وجاءت صلته جملةً اسميّةً⁸، وقد أفاد التكرار في هذا الفصل من السورة (22-37) بيان أوصاف المؤمنين، وفضائل أخلاقهم، وما أعد الله لهم من عظيم الأجر، وهذا مؤداه منح النصّ تزواجاً موسيقياً.

3.26 سورة المزمل

هي مكيّةٌ، واستثنوا منها قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا﴾⁹، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾¹⁰، إلى آخر السورة فمدنيّةً¹¹.

وقع حذف جمليّ في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾، وتقديره: (واصبر، يا أيها المزمل، على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً)، ودليله قرينة مقالية قبلية، في الآية الأولى من السورة، وهي قوله: ﴿يَا

¹ ينظر: الأوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج15، ص62.

² المعارج، 24.

³ المعارج، 27.

⁴ المعارج، 29.

⁵ المعارج، 32.

⁶ المعارج، 33.

⁷ المعارج، 34.

⁸ ينظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه، ط4، ج10، ص214.

⁹ المزمل، 10.

¹⁰ المزمل، 20.

¹¹ ينظر: المراعي، تفسير المراعي، ط1، ج29، ص109. وينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، ج4،

ص634.

أَيُّهَا الْمُرْمَلُ¹، ويجوزُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: (وَاصْبِرْ، يَا مُحَمَّد، عَلَى مَا يَقُولُونَ...)، ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ (الْمُرْمَلِ) كِنَايَةٌ عَنْ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ مَرَّ نَظَائِرُ هَذَا الْحَذْفِ سَابِقًا، فَتَبَيَّنَ أَنَّ فِعْلَ الطَّلَبِ مَوْجِبٌ لِمَخَاطَبِ مَعْلُومٍ فِي ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي؛ لِذِكْرِهِ سَابِقًا، فَسَاغَ حَذْفُهُ، وَحُسْنٌ، وَلِذَا؛ اعْتَادَ النُّحَاةُ وَالْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَقْدِيرِ جُمْلَةِ النَّدَاءِ بَعْدَ فِعْلِ الطَّلَبِ كَمَا سَبَقَ؛ لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ مِنْ سِيَاقِ الْمَقَالِ، وَيُوكِّدُ هَذَا أَنَّ الْخَطَابَ الطَّلَبِيَّ فِي سَائِرِ السُّورَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْآيَةِ الْأُولَى مِنْهَا، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ﴾²؛ إِذْ تَكَرَّرَ فِعْلُ الطَّلَبِ إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً مَعَ حَذْفِ جُمْلَةِ النَّدَاءِ هَذِهِ، (قُمْ، انْقُصْ، زِدْ، رَتِّلْ، اذْكُرْ، تَبَتَّلْ، اتَّخِذْهُ، اصْبِرْ، اهْجُرْهُمْ، ذَرْنِي، مَهَلِّهُمْ)، وَجَاءَ الْخَطَابُ فِيهِ جَمِيعًا مَوْجِبًا لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، الَّذِي كُنِيَ عَنْهُ بِالْمُرْمَلِ).

وَجَاءَ قَوْلُهُ: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلِّهُمْ قَلِيلًا﴾³، مَحْبُوكًا بِعِلَاقَةِ التَّعْلِيلِ بِالْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ، وَهُمَا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾⁴، وَقَوْلُهُ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾⁵، فَقَدْ ذَكَرَ الْبِيضَاوِيُّ أَنَّ قَوْلَهُ: "إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا" تَعْلِيلٌ لِأَمْرِ السَّابِقِ "ذَرْنِي"⁶، وَقَدْ أَفَادَ هَذَا التَّعْلِيلُ تَهْدِيدَهُمْ، بِأَنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لَهُمْ أَنْكَالًا تَقْيِدُهُمْ فِي جَحِيمِ جَهَنَّمَ، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ مَقَابِلَ تَكْذِيبِهِ آيَاتِ اللَّهِ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّمَتُّعِ بِنِعَمِ الدُّنْيَا، وَهَذَا أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَدِّ النَّبِيِّ⁷.

3.27 سُورَةُ الْإِنْسَانِ

مَكِّيَّةٌ، وَعَنْ الْكَلْبِيِّ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ إِلَّا آيَاتِ، هِيَ: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾⁸ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَمَطِرًا﴾⁹ وَيُذَكِّرُ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، وَفِيهَا آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾¹⁰¹¹.

¹ المزمّل، 1.

² المزمّل، 1.

³ المزمّل، 11.

⁴ المزمّل، 12.

⁵ المزمّل، 13.

⁶ ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج5، ص256.

⁷ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص271.

⁸ الإنسان، 8.

⁹ الإنسان، 10.

¹⁰ الإنسان، 24.

¹¹ ينظر: الغيتابي، أبو محمد محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج19، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت،

ص270.

وفي قوله: ﴿يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾¹، جاء ضميرُ الجمعِ الواوُ في قوله (يطعمون) محيلًا على مذكورٍ سابقٍ قريبٍ، هوَ (عبادُ الله)، في آيةٍ سابقةٍ، هي: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾²، إحالةً نصيَّةً قبليَّةً، وقد دلَّ على هذا سياقُ المقالِ بأنَّ جاءَ مضمارُ الخطابِ في الآياتِ (5-22) هو هذا العنصرُ، بإحالةٍ سائرِ ضمائرِ الجمعِ إليه، كقوله (يُوفُونَ، يَخَافُونَ، فَوَقَاهُمْ، وَلَقَّاهُمْ، جَزَّاهُمْ، صَبَرُوا، لَا يَرَوْنَ، يُسْقَوْنَ)؛ ليبيِّنَ النصُّ عن أفعالِ أولئك العبادِ في الحياةِ الدنْيَا، وما يلاقونه من أجرٍ، وثوابٍ في الآخرةِ.

أما ضميرُ الهاءِ المفردُ المتصلُ في قوله (حبِّه)، فإنَّه يحيلُ على محالٍ عليه خارجيٍّ، هوَ اللهُ، على الراجحِ³، إحالةً مقاميةً خارجيةً، وقد دلَّ على هذا العنصرِ الإحاليِّ سياقُ المقالِ في الآيةِ التاليةِ بقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾⁴.

يتَّضحُ من دراسةِ وسائلِ السَّبكِ النحويَّةِ والمعجميَّةِ، فيما سبقَ، أنَّ ثَمَّ اتساقًا وانسجامًا بينَ الآياتِ المستتناةِ من السُّورةِ وسابقتها ولاحقها، فأفضى هذا إلى إثباتِ وصفِ التماسكِ النصِّيِّ في هذه البؤرةِ، رغمَ تداخلِ وصفها بالمكيِّ والمدنيِّ، وقد تمثَّلَ ذلكَ في أنَّ الإحالةَ بأنواعها أسهمتْ في اتساقِ نصيَّةِ السُّورِ القرآنيَّةِ وتكاملها، سواءً أكانَ ذلكَ في السُّورةِ جميعها، أم في مقطعٍ مستقلٍّ من مقاطعها، حتى غدتْ بناءً متكاملًا، ونصًّا مترابطًا متماسكًا.

وكذلكَ، أسهمتِ الضمائرُ الواردةُ في بؤرةِ هذه الدراسةِ في تماسكِ النصِّ، وتربطه بتطابقها مع مراجعها المحددة، فكوَّنتِ الإحالةَ الضميريَّةُ النصيَّةُ ذاتُ المدى القريبِ عاملًا إيجابيًا في تحققِ الانسجامِ

¹ الإنسان، 8.

² الإنسان، 6.

³ يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لديهم وقتله عندهم. قال مجاهد: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له... وقيل: على حب الإطعام لرغبتهم في الخير، قال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام. وقيل: الضمير في حبه يرجع إلى الله، أي: يطعمون الطعام على حب الله، أي: يطعمون إطعاما كائنًا على حب الله، ويؤيد هذا قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾. الشوكاني، فتح القدير، ط1، ج5، ص419.

⁴ الإنسان، 9.

وترابط النص؛ لقرب المسافة بين المحيل والمحال عليه، وجاءت الإحالة ذات المدى البعيد واضحة؛ لعودها على مرجع مشهور مستمر في النص، هو مضمار الخطاب، أما الإحالة الخارجية المرتبطة بأسباب النزول، وسياق المقام، فقد أفضت إلى جعل المتلقي موصولاً بالنص، مشدوداً إليه؛ لكونها تحيل على عنصر مستقر في ذهنه، فجاءت ضمائر المخاطب المفرد محيلة إحالة خارجية على الرسول، وجاءت ضمائر المتكلم المفرد والجمع محيلة إحالة خارجية على الله، عز وجل، وكان لهذا أثر في ربط النص بسياق المقام وفهمه.

أما اسم الإشارة، فإنه مبهم مفتقر إلى ما يفسره، وهذا المفسر شيء ظاهر يعود إليه اسم الإشارة؛ لتتم الدلالة¹، "ويرى (هاليداي ورقية حسن) أن أسماء الإشارة تقوم بالربط القبلي والبعدي، وإذا كانت أسماء الإشارة بشتى أصنافها محيلة إحالة قبلية، بمعنى أنها تربط جزءاً لاحقاً بجزء سابق، ومن ثم تسهم في اتساق النص، فإن اسم الإشارة المفرد يتميز بما يسميه المؤلفان الإحالة الموسعة، أي: إمكانية الإحالة على جملة بأكملها، أو متتالية من الجمل"²، وقد حققت أسماء الإشارة السبك النصي في الآيات السابقة، إذ أحدثت شبكة من الإحالات التي اختزلت عدداً كبيراً من الألفاظ بلفظ واحد، باعتماد عملية ذهنية تهدف إلى استرجاع ما أحال عليه بصورة مكثفة مختصرة، وبدت أهميتها في اختلاف في وظائفها، وأنواعها المتعددة، وقدرتها على الإحالة على نص بأكمله، فأفضى ذلك إلى ربط النص وتماسك أجزائه، والابتعاد عن تكرار الألفاظ التي أحالت عليها تلك الأسماء، كما جاءت الإحالة الخارجية بأسماء الإشارة؛ لتربط بين النص وسياقه المقامي، فتحقق "تفاعلاً متبادلاً بين اللغة والموقف"³.

كذلك، كان للاسم الموصول أثر في سبك النص، بوصفه أحد الألفاظ الإحالية التي تحقق ذلك التماسك النصي مع الوسائل الأخرى، وقد عده النصيون المحدثون من الضمائر؛ نظراً للوظيفة المشتركة بينهما في ربط الكلام واختصاره، إذ يقوم بوظيفة الضمائر نفسها، من حيث الإشارة المرجعية، وربط السابق

¹ ينظر: بحيري، سعيد حسن، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ط1 القاهرة، مكتبة الآداب، ص143.

² خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط2، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006، ص19.

³ دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ط1، ص339.

باللاحق¹، فهو يختزلُ الكلامَ بدلًا من تكرارِ المحالِ عليه، فيحيلُ على موصوفٍ سابقٍ ذكره، أو خارجيٍّ يستندُ عليه الكلامُ، وهذا ما يمنحه القدرةَ على التكرارِ بالإحالةِ على الموصوفِ نفسه، فيحدثُ نسقًا واحدًا للنصِّ كلِّه، بصورةٍ تثيرُ ذهنَ المتلقيِ للانتباهِ لمرجعِ الموصولِ، والانتفاتِ إلى عناصرِ النصِّ المترابطةِ، فتتنظّمُ في ذهنه ويفهمها، وهذا ممّا يزيدُ تفاعلَ المتلقيِ مع النصِّ.

وكذلك، كانَ للاستبدالِ دورٌ في تحقيقِ استمراريّةِ النصِّ وتماسكه، بإحلالِ تعبيرٍ لغويٍّ في موضعٍ تعبيرٍ آخر²، إعمالًا للاختصارِ والإيجازِ اللفظيِّ، وتجنبًا للتكرارِ المفرطِ في استعمالِ التراكيبِ والضمائرِ، دونَ إعادةِ أحداثٍ كلاميّةٍ سابقةٍ، وهذا ما جعلَ الوحداتِ النصّيّةَ متعلّقةً ناطقةً بتماسكِ السّياقِ النصّيِّ مقالياً ومقامياً، دونَ أن يشعرَ المتلقيُّ بانحرافٍ لفظيٍّ، أو انكسارٍ في الحدثِ الكلاميِّ، كما اتّضح، ممّا سبقَ، أنّ الاستبدالَ لم يكنِ عشوائياً مرتجلاً، أو مقصوداً لذاته، بل تمَّ دلالاتٌ وظيفيّةٌ جاءتْ منسجمةً والسّياقَ المقالِيَّ والمقاميِّ، وتكشفُ من جهةٍ أخرى عن المستوىِ الفنيِّ للنصِّ، الذي يمكنُ تفسيره بإعجازِ النصِّ القرآنيِّ.

كما اتّضح أنّ ظاهرةَ الحذفِ معيارٌ من معاييرِ السّبكِ النصّيِّ، التي لها أهميّةٌ كبرى في تحقيقِ الترابطِ، والتماسكِ النصّيِّ، وذلكَ بتظافرِ العلائقِ النصّيّةِ؛ لسدِّ فراغاتٍ في التراكيبِ النحويّةِ، معتمداً على قرائنِ مقالِيّةٍ ومقاميّةٍ، تعملُ على تعليقِ الخطابِ بعضه ببعضٍ، عن طريقِ دليلٍ مذكورٍ سابقاً، أو معلومٍ بقريئةِ سياقِ المقامِ، مستقرٌّ في ذهنِ المتلقيِّ، ذلكَ أنّ البنى السطحيّةَ تبدو غيرَ مكتملةٍ، غالباً، في النصوصِ العربيّةِ، فتأتي ظاهرةُ الحذفِ؛ لتعزيزِ البنى العميقةِ، وفقَ ما يجيزه النظامُ النحويُّ، بإعمالِ الاختصارِ والإيجازِ، ودونَ تكرارِ المفرداتِ والجملِ؛ ليكونَ الكلامُ وحدةً نصّيّةً كليّةً متلاحمةً الأجزاء، فتضمّنَ سيرورتَهُ، واستمراره، وتماسكه.

¹ ينظر: الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص138.

² ينظر: النجار، نادية، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص19.

والحذف، بوصفه معياراً نصياً، يمنح المتلقي شراكة تفاعلية، في فهم مقاصد النص، وذلك بإسقاط عنصر نحوي، لغاية ما، إذ يهتدي المتلقي الى معرفة العناصر غير الظاهرة، بالنظر، فيما سبق ذكره، ويقوم بتقديرها اعتماداً على مجموعة من القرائن المقالية والسياقية، بشرط أن يكون المذكور والمحذوف من لفظ واحد، أو مترادفين، وفق الحاجة الفنية التي يقتضيها السياق؛ لتتكامل أجزاء النص بإحكام، عبر آليات الربط النحوي والمعجم، وهذا يعني أن الحذف علاقة اتساقية ترد في النص على المستويين النحوي والمعنوي، وبه تحقق كفاية تواصلية في متن النص؛ ليكون الكلام متلاحماً مستمراً متماسكاً.

وبان، أيضاً، أن موضوع الوصل ذو أدوات نحوية، إذ يحقق وحدة معنوية بين الألفاظ والجمل، تقوم على علاقات منطقية يقتضيها سياق المقال، كعلاقة النعت بالمنعوت، ومطلق الجمع، والسببية، والترتيب، والتعقيب، والإضراب، والتخيير، والتعيين، وغيرها، وقد تركزت سياقات الوصل، فيما سبق من أمثلة تطبيقية، على وصل ذيل آية برأس أخرى؛ انسجاماً مع موضوع هذه الدراسة، بالوقوف على تماسك آية مكيّة مع أخرى مدنيّة، أو العكس، وقد قامت أدوات الوصل النحوية باصطناع علاقات تركيبية وفق أسس لغوية؛ لتربط بين جملتين أو أكثر، بصورة منطقية متتابعة تركيبياً ومعنى، وهذا ما أفضى إلى ترابط الكلام، وتماسكه تماسكاً نصياً.

وكذلك، بدا التكرار مظهرًا من مظاهر تماسك النص، فلم يأت مرتجلاً، أو عفواً، بل كان له دور عميق في تحقيق نصية النص واستمراره، وذلك بإعادة الوصف الأول بلفظه أو تركيبه أو معناه، متخذاً من عاملي البعد والقرب، بين المكررين، عنصراً فاعلاً في ترسيخ الكلام المكرر، في ذهن المتلقي، وفق ما يقتضيه السياق المقالي، فقد رفع التكرار المحض من وتيرة الإيقاع الصوتي، بطرق اللفظ غير مرة، محدثاً تشاكلاً معنوياً سياقياً، وعمل التكرار الجزئي على مشكلة الأصل اللغوي، بتوليده بصيغ مختلفة، ودلالات إضافية؛ لتجديد المعنى مع إشعار بما سبق من كلام، وهذا ما خلق ملاءمة لفظية ومعنوية، تحكّمها شبكة من العلاقات في داخل عالم النص.

ومن جهةٍ أخرى، جاء التكرارُ، في بؤرة هذه الدراسة، منسجماً مع سياق المقال، لفائدة بلاغيةٍ حجاجيةٍ إقناعيةٍ، ترتبطُ بمتابع المعاني؛ ليلتفتَ المتلقي إلى مركزية الكلام المكرر، أو لفائدة لفظيةٍ جماليةٍ، ترتبطُ بالانسجام الموسيقي، الذي يحققُ أثراً نفسياً في انجذاب المتلقي للنص، وتفاعله معه، وهذا ما كشفَ عن قيمةٍ فنيةٍ كبرى للتكرار المعجمي، تتمثلُ بمنح النص طاقاتٍ تعبيريةً مؤثرةً، تؤدي إلى استمراره، وامتداده، وربط أجزاءه، وتناسقه.

أمّا المصاحباتُ المعجميةُ فقد تضافرت؛ لتسهّمَ في تكوينِ وصفِ النصية، فيما سبقَ من آياتٍ بصورةٍ جليةٍ، فكان لها أثرٌ في تحديدِ المعنى الدقيق للمفردة من جهة، وأثرٌ في تفسيرِ الدلالاتِ الخادمة للمعنى السياقي من جهةٍ أخرى، وإن كان الأصلُ في المصاحباتِ المعجمية أنها متقاربةٌ في الموضوع، فإن تقاربها في بؤرة هذه الدراسة جعلَ العلاقاتِ بين العناصرِ أكثرَ قوةً، والنصَّ أشدَّ سبكاً؛ لأنَّ قوةَ الربطِ بينَ هذه العناصرِ تعتمدُ على مدى حضورها في ذهنِ المتلقي، وكلّما تقاربتِ المواضيعُ كانَ الحضورُ أشدَّ، والعلاقةُ أكثرَ فاعليةً، وهذا ما يمنحُ النصَّ قوةً اتساقٍ ووصفٍ.

وكذلك، أسهمتْ علاقاتُ الحبكةِ النصية، بصورةٍ مباشرة، في الربطِ بينَ أجزاء النص؛ لتكونَ وحدةً نصيةً كليةً، وذلكَ باتصالِ معنىٍ سابقٍ بمعنىٍ لاحقٍ، بفعلِ علاقةٍ معنويةٍ أو منطقيةٍ بينهما، ترتكزُ على عناصرٍ داخليةٍ متعلقة، وينتظمُ بها مضمونُ النصِّ انتظاماً معنوياً متتابعاً، أي أنّ تلكمَ العلاقاتِ تؤوّلُ بالملفوظِ إلى بنيةٍ نصيةٍ كبرى، ترتبطُ بموضوعه الكلي؛ لتصلَ إلى مستوى سطحِ النصِّ، فتُفهمُ دلالتَهُ، ومقصدهُ العامُّ.

وقد يبدو النصُّ دونَ النظرِ إلى تلكمَ العلاقاتِ مغلقاً أو مبهماً، لذا؛ اعتنى المفسرونَ القدماءُ بتلكمَ العلاقاتِ، كما مرَّ سابقاً؛ لأنَّ من شأنها أن تُعينَ على تلقي النصِّ بصورةٍ سليمة، وإن كانَ اعتناؤُهُم بها بصورةٍ غيرِ منتظمة، إلا أنهم وقفوا على الدلالاتِ الرابطةِ بينَ آياتِ القرآن؛ لإثباتِ اتصالِ سياقها، واختبارِ وجوهِ تفسيريةٍ أخرى، يحتملها النصُّ، ولكنهم لم ينظروا في وظيفتها النصية الكلية، من تماسكِ أجزاء النصِّ، وتحققِ نصيته، كما هي الحالُ في هذه الدراسة.

الفصل الرابع

مفارقات التنظير وانسجام ما تداخل من المكي والمدني

استثمر المستشرقون الفارق الأسلوبي بين المكي والمدني بصورة غير واقعية، غايتها الفصل بينهما في الشكل والمضمون؛ لإثبات أنهما نمطان متباينان، لا رابط بينهما غير المجاورة، وهذا مفض ضمناً إلى الحكم بتشتت أسلوب القرآن، وتشعث وصفه، والتشكيك في وحدة مصدره وانتسابه.

والواقع أن تمّ فارقاً بين النظر في المكي والمدني من حيث حقائق التوصيف، والنظر فيها في ضوء أقوال أولئك المستشرقين حول هذا العلم، فغاية المستشرقين إغراء العرب والمسلمين أن يسلكوا في مضمار الفارق الأسلوبي والموضوعي بين المكي والمدني، بنية نفي إهية النص القرآني، وإثبات بشريته، وغاية النص القرآني إقامة الحجّة على إهيته، بإدراك إعجازه بصرف النظر عن مكيه ومدنيّه، لكنّ بعض العرب سلّكوا في المضمار الذي أعدّه المستشرقون، ولم يخرجوا عنه، وساروا في اتجاهين: الأول هو التصدي للمستشرقين بتفسير التباين بين المكي والمدني، وتعليه بسياق الحال، أو بالتنظير لأهمية هذا العلم، وبيان ضوابطه ومميزاته، وفائدته في خدمة علم التفسير، والثاني، هو تبني بعض أنظارهم وتكفّفها في السور القرآنية، لتتسجم مع تلك الأنظار؛ وهذا وذلك انحراف عن الجادة، وولوج في مضمار آخر غير الذي سلّكه القداماء في إثبات إهية النص القرآني، ونفي بشريته.

إنّ استثمار قوة النص القرآني لغويّاً بصورة فكرية، من حيث كونه نصّاً إهياً معجزاً، سيدفع تلكم الأوهام التي خالها المستشرقون، ويكشف زيف فريتهم، ولم يك صنع المحدثين كذلك، فيما غلب، ساعة أن استجابوا لأنظار المستشرقين، بالفصل بين لغوية النص القرآني، وغايته الفكرية، فلا يزالون يدرسون القرآن باستقلالية مطلقة، وبمعزل عن غايته الفكرية، فدرس تفسيره مباشرة، وتوجيه سياقه لدلالات النص، ودرس في قرائن الأحوال، وأسباب النزول، ودرس فكري فلسفي، ودرس تعليمي نظري في ضوابط المكي والمدني ومميزاته.

إنَّ تَفْحُصَ وَقَائِعِ المَمارِسةِ التَّأصِيلِيَّةِ عِنْدَ الرِّعِيلِ الأوَّلِ مِنَ البِلاغيِّينَ، والنَّظَرِ في مَوارِدِها، ومَسالِكِ تَوجيهِها ونَتائِجِها، تُعَيِّنُ عَلى فِهْمِ وَقَائِعِ التَّأصِيلِ الأوَّلِيِّ في دِراسَةِ النِّصِّ القُرْآنِيِّ، فَفضلاً عَلى ما فيهِا مِن أنظارٍ وتَوجيهِاتٍ مَبنيَّةٍ عَلى مَناهِجٍ ومَنطَلقاتٍ دَقيقَةٍ، فإنَّها تَتطوِّرُ عَلى بَيانِ المَضمارِ الَّذِي يَنبغِي أن يُسارَ فيهِ، فما قَدَّمَ الرِّمانِيُّ والخَطابِيُّ والجِرجانيُّ والزَمخشَرِيُّ والسَّكاكِيُّ والزركَشِيُّ وغيرُهُم، لا يَمكِنُ إهْمالُهُ، بل يَنبغِي أن يَفادَ مِنْهُ، ويُنَبِّئُ عَليه في سِياقِ النَّظَرِ في ما جِاءَ بِهِ المِستشرقونَ؛ لأنَّ تَخَلُّقَ أيِّ وَصْفٍ لِلنِّصِّ القُرْآنِيِّ يَنبغِي أن يَظَلَّ مَمتَصلاً بِأنظارِ القَدَماءِ، ولا يَحسُنُ أن يَتجاوَزَ ذلكَ، أو يُقتَصِرَ عَلى أمثلةٍ جِزئِيَّةٍ، ومَقولاتٍ مُفردَةٍ، تَنفَرُّ إلى الإِحاطَةِ والشُّمولِ، وتَتَّخِذُ مِن مَناهِجِ أولئِكَ الذَّائِيَّةِ الضَّيِّقَةِ ظَنًّا، يَشتمَلُ عَلى أنظارٍ تَبدو عَلميَّةً مَوضوعيَّةً، فَتُغري بَعْضَ هؤلاءِ المَحدثينَ بأن يَنزلقُوا، دونَ حَذَرٍ، في هَذا المَضمارِ الَّذِي اِختَلَفَهُ المِستشرقونَ عَن قَصدٍ مُسبقٍ.

إنَّ إثباتَ إلهيَّةِ النِّصِّ القُرْآنِيِّ، ونَفْيَ بَشَريَّتِهِ، يَقتَضِي مَعايِنَةَ ما لَدَى القَدَماءِ في أَصولِهِ وفِروعيهِ، والبِناءِ عَليه، ممَّا يَتيسَّرُ مِن نَتائِجِ الدِرسِ الحَديثِ، وسيكونُ لَهَذا أثرٌ بَيِّنٌ في تَقيِيمِ الدِراساتِ الحَديثَةِ المَضادَةِ لِدِراساتِ المِستشرقينَ، ثمَّ إِعادَةُ النَّظَرِ في بَعْضِ نَتائِجِها، سِواءَ أَكانتْ ممَّا يُبني عَليه أم كَانتْ ممَّا يَنحرفُ في بَعْضِ مَسالِكِهِ.

وَإِذا كانَ القَولُ بِبَشَريَّةِ النِّصِّ القُرْآنِيِّ لَيسَ بِشَيِّءٍ لَدَى حَذاقِ العَرَبِ وَعامَّتِهِم، فإنَّ لَهَ أَثراً بِالغَا في اسْتِجابَةِ بَعْضِهِم لِمَقاصِدِ المِستشرقينَ بِانحِرافِ مَنهجِهِم، دونَ وعيٍ، عَن مَضمارِ الدِرسِ القُرْآنِيِّ، وتَتجَلَّى خَطورَةُ ذلكَ، أو مِغامرَةُ هؤلاءِ بِفِصلِ الدِرسِ القُرْآنِيِّ عَن مَنهجِهِ الَّذِي يَنبغِي لَهَ، ومَضمارِهِ الَّذِي يَجِبُ أن يُسارَ فيهِ، فإنَّ اِعْتقادَ الدارسِ أَنَّ هَذا النِّصَّ تَوقِيفِيٌّ، فإنَّ مَنهجِيَّةَ دِرسِهِ كَذلكَ، بِالضَّرورةِ، ذلكَ أنَّ تَوجيهِاتِ أيِّ نِصٍّ لُغويٍّ ومَنهجِيَّةَ تَلقيهِ جِزءٌ مِن ما هِيتِهِ، فَالفِصلُ بَينَ النِّصِّ القُرْآنِيِّ، مِن حيثُ كَونُهُ نِصًّا لُغويًّا مُعجِزًا، ومَنهجِيَّةَ تَلقيهِ، أمرٌ مُحالٌ.

ومن منظورٍ آخر، فإنَّ معالجةَ القدماءِ للنصِّ القرآنيِّ لم تزلْ تُكشفُ عن ارتباطٍ وثيقٍ الصلةِ بينَ علومِهِ المتشعبة، وغايتهِ الفكريةِ التي تقيمُ التحدي¹، فنُتبتُ إعجازُهُ، وتنفى بشريَّتهُ، وذلكَ لم يكنْ لهمُ إلا بتعاهدِ بقاءِ النَّظمِ على حسنِهِ، والبلاغةِ على كمالِها²، لا على درسها النظريِّ، فالإعجازُ عندهم مُدرَكٌ بالذوقِ، وطريقُ اكتسابِ الذوقِ طولُ خدمةِ علميِّ البيانِ والمعاني³، وجملَةُ الأمرِ أنَّ إثباتَ إلهيةِ النصِّ القرآنيِّ ونفيَ بشريَّتهِ لازمٌ عن وصفِهِ بالإعجازِ، والوقوفُ على إعجازِهِ غيرُ مُتَّصِلٍ إلا بمَلَكةٍ في علمِ اللغَةِ، والنقصُ في هذهِ نقصٌ في ذلك؛ فتمَّ "دقائقُ وأسرارُ طريقِ العلمِ بها الرويةُ والفكرُ، ولطائفُ مُستقاهِ العقلِ، وخصائصُ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكُشِفَ لهمُ عنها، ورفعتِ الحُجُبُ بينهم وبينها، وأنها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ، ووجبَ أنْ يفضَّلَ بعضُهُ بعضًا، وأنْ يبعدَ الشاؤُ في ذلكِ، وتمتدَّ الغايةُ، ويعلوَ المرتقى، ويعزَّزَ المطلبُ، حتى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ، وإلى أنْ يخرجَ من طوقِ البشرِ"⁴.

4.1 الاستثناءُ والسياقُ المتَّصلُ

لقد سبقَ حديثٌ عن أسبابِ النزولِ والمميزاتِ، أمَّا سياقُ النصِّ فغيرُ خافٍ أنَّه كانَ معياراً لدى بعضهم في تعيينِ المكيِّ والمدنيِّ، فقد ذكرَ الطبريُّ روايةً عن عكرمةَ ومجاهدٍ، تستثني آيةَ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سورةِ الأنفالِ المدنيَّةِ⁵، وكذلك استثنى القرطبيُّ في روايةٍ عن ابنِ عباسٍ⁶، غيرَ أنَّ الثعلبيَّ والبغويَّ عدَّاهما مدنيَّةً؛ انطلاقاً من سياقِ النصِّ، قالوا: "هذه الآيةُ معطوفةٌ على قوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾".

¹ ينظر: الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ج2، محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957، ص 99.

² الزمخشري، تفسير الكشاف، ط3، ج1، ص49.

³ ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ط2، ص416.

⁴ الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ج1، ص7.

⁵ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، ج13، ص502.

⁶ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج7، ص360.

قَلِيلٌ¹، وجوزَ هذا العطفَ أيضاً ابنُ عاشور²، وعللَ البغويُّ هذا الاتِّصالَ بأنَّ السورةَ مدنيَّةٌ، والمكرُ بالنبيِّ وقعَ في مكةَ، وهذا القولُ منجَّةٌ؛ ذلك أنَّ مضمونَ الآيةِ الأولى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾ وصفٌ قائمٌ على التذكُّرِ، لحالِ المسلمينَ في مكةَ³، وكذلكَ في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...﴾ كانَ المكرُ ومتعلقاتُهُ في مكةَ⁴، لذا؛ صحَّ العطفُ، إذ تقديرُ الكلامِ: "وَأذكرُ إذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا..."، وبذلكَ يكونُ السياقُ متصلاً لفظاً بالواوِ، ومعنىً بالمضمونِ، ومثلاً ذلكَ أيضاً استثناءً بعضهم آيةً ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ﴾ من سورةِ النحلِ المكيَّةِ، معتمدينَ على ما صحَّ من سببِ النزولِ⁵، غيرَ أنَّ ابنَ عاشورٍ عدَّها مكيَّةً؛ لاتصالِها بما قبلها لفظاً ومعنىً، قال: "فَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا أَمْ اتَّصَلَ"، فالاتِّصالُ اللفظيُّ جاءَ بالعطفِ على جملةٍ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ...﴾⁶، أمَّا المعنويُّ، فجاءَ في تدرُّجِ أحوالِ المعاملةِ، من الدعوةِ إلى الموعظةِ، فالمجادلةِ، فمعاقبةِ، المتجوزينَ على أفعالِهِم⁷.

وكذلكَ استبعدَ (سيد قطب) الاستثناءاتِ الواقعةَ في سورةِ هودٍ؛ انطلاقاً من موضوعِ السورةِ، واتِّصالِ سياقِها، فرأى أنها كلُّها مكيَّةٌ، وما وردَ في المصحفِ الأميريِّ، من أنَّ الآياتِ (12، 17، 114) مدنيَّةٌ، مخالفٌ لسياقِ النصِّ الذي يُثبتُ مكيَّتها، واعتمدَ قطبٌ، في مذهبهِ هذا، على أنَّ موضوعَ الآيتينِ (12، 17) موافقٌ لموضوعِ القرآنِ المكيِّ، في مقارعةِ المشركينَ وتحديهِم، أمَّا الآيةُ الثالثةُ (114)، فرأى أنها موصولةٌ بالسياقِ المعنويِّ المكيِّ⁸، وأيضاً، ردَّ استثناءَ بعضِ الرواياتِ آيةً ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾

¹ البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، (تفسير، ط4، ج3، ص349. الثعلبي، أبو إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ط1، ج4، تحقيق: محمد بن عاشور، الناشر: لبنان، دار إحياء التراث العربي، 2002، ص348.

² ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص327.

³ ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط1، ج3، ص136.

⁴ ينظر: السمرقندي، تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، ط1، ج2، ص18.

⁵ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج10، 1964، ص65.

⁶ النحل، 125.

⁷ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص326، 335.

⁸ ينظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج4، القاهرة، دار الشروق، 1972، ص1839، 1840.

من سورة الأنعام المكيّة، ورأى أنها لو كانت مدنيّةً لَنَقَطَعَ ما بعدها عمّا قبلها¹، ولعلّ هذا يُشعر أنّ قطبًا لا يفصلُ بينَ موضوعِ السُّورة، أو الآياتِ وسياقها المتّصل، لذلك ردّ تلكم الاستثناءاتِ بناءً على هذا وذلك.

والأصلُ أنّ القرآنَ منقولٌ بالروايةِ ابتداءً، والروايةُ الصحيحةُ هي مستندُ الدين، فمن المجازفةِ إهمالُ الروايةِ في مقابلِ النظرِ والاجتهاد، ثمّ إنّ القولَ باتّصالِ السِّيَاقِ في السورةِ ثابتٌ بمقدارِ فهمِ الدارسِ لذلكِ الاتّصالِ، وهذا يعني أنّ النظرَ في اتّصالِ السِّيَاقِ بمعزلٍ عن الروايةِ الصحيحةِ غيرُ صالحٍ لأنّ يكونَ معيارًا لنفيِ الاستثناء، أو إثباته؛ لأنّه منبثٌّ عن الرأْيِ والنظرِ، وإنّما ينبغي أن يُفهمَ ذلكَ الاتّصالُ، رغمَ تداخلِ الآياتِ المكيّةِ والمدنيّةِ في السُّورةِ الواحدة، على أنّ مصدرَهُما واحدٌ، وإنّ "كانَ وجودُ آياتِ مدنيّةٍ في سورةٍ مكيّةٍ، أو آياتِ مكيّةٍ في سورةٍ مدنيّةٍ خلافُ الأصلِ، فالمختارُ عدمُ قبولِ القولِ بهِ، إلا إذا ثبتَ بروايةٍ صحيحةٍ"²، وقد نصَّ القدماءُ في غيرِ موضعٍ على اعتمادِ الروايةِ الصحيحةِ في هذا الشأنِ، كابنِ كثيرٍ الذي قال: "ومنهم من يسنّتي من المكيّ آياتٍ، يدّعي أنها من المدنيّ، كما في سورة الحجِّ وغيرها، والحقُّ في ذلكَ ما دلَّ عليه الدليلُ الصحيح"³، ولعلّ في استحضارِ التزامِ القدماءِ بالروايةِ الصحيحةِ، في إثباتِ الوصفِ أو نفيه، تفسيرًا لتأخُّرِ ظهورِ ضوابطِ المكيّ والمدنيّ ومميزاته، أو ندرتها عن الصحابةِ.

ولكي تتضحَ الغايةُ، ممّا سبق، ينبغي أن يُقالَ: إنّ استثناءَ آياتِ مكيّةٍ من سورةٍ مدنيّةٍ، أو آياتِ مدنيّةٍ من سورةٍ مكيّةٍ، غيرُ قادحٍ في اتّصالِ النّصِّ القرآنيِّ وانسجامه، بل إنّ مَلَمَحِي السَّبَبِ والحَبَكِ يكشفانِ عن وحدةٍ صوتيّةٍ ولغويّةٍ وصرفيّةٍ ونحويّةٍ وسياقيّةٍ معنويّةٍ في السُّورةِ الواحدة، لم يستثمرها هؤلاء ولا أولئك في موضوعِ المكيّ والمدنيّ، لذا؛ ينبغي استثمارُ ثبوتِ أدلّةِ استثناءِ الآياتِ من جهةٍ، واتّصالِ النّصِّ القرآنيِّ وتماسكه من جهةٍ أخرى، في التَّنظِيرِ للإعجازِ القرآنيِّ، فرغمَ تباعدِ زمانِ نزولِ الآياتِ

¹ ينظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص1223.

² القلموني، تفسير المنار، ج14، ص335.

³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط2، ج1، ص18.

المستثناة ومكانها، سواءً أكانت مكيّة أم مدنيّة، إلا أنّها جاءت متّصلة سياقيّاً مع ما قبلها وما بعدها، ومنسجمة مع سائر آيات السورة انسجاماً تامّاً، أثبتته ملمحا السبك والحيك، كما سبق، لذلك لا قيمة، وفق هذه الدراسة، لإنكار أيّ استثناء أو إثباته، بناءً على النظر في وحدة البناء السياقيّ للسورة.

4.2 وحدة موضوعيّة أم سياق متّصل؟

إنّ الكلام على الوحدة الموضوعيّة¹ مرتبطٌ بموضوع المكيّ والمدنيّ، عند الحديث عن تداخل الوصف في السورة الواحدة، والآيات المستثناة، فقد يُتوهم أنّ إثبات تداخل الوصف منافٍ للوحدة الموضوعيّة في السورة، أو أنّ إثبات الوحدة الموضوعيّة في السورة يلزم منه نفي تداخل الوصف والاستثناء، والواقع أنّ هذا ليس كذلك، بل هناك ملايسات ووقائع نتج عنها مغالطات، أدت إلى مثل هذا التوهم، ومن غير شك أنّ الوحدة الموضوعيّة قد نشأت عند الغرب في سياق نقديّ محايد، استثمرت في دراسة أنماط أدبيّة لديهم، وكعادة المستشرقين لم يُطبّقوا هذا على القرآن مباشرة؛ كي يطعنوا فيه، بل بدؤوا بتطبيقه على الشعر، ثمّ أوجدوا صلاتٍ بين الشعر والقرآن، ونقلوا تطبيقها على القرآن، فليس للكلام الفنيّ قيمة عند (بروكلمان)، إلا إذا ظهر في وحدة أطول وأكبر، هي وحدة القصيدة²، التي لم يلتزم بها الشعراء القدماء، إلا في أحوال نادرة جدّاً³، ثم يستنتج أنّ الشاعر العربيّ ليس موضوعيّاً⁴، وقد تابع (بروكلمان) في مقولته هذه غير واحدٍ من المستشرقين، فجاء (كوالسكي) بوصف لبنية القصيدة العربيّة، فرأى أنّها تقوم على جزئيات بسيطة، لم يستطع الشاعر العربيّ أن يلاحظ غيرها، حتى ينتهي إلى أنّ رخاوة التآليف خاصيّة جوهريّة من خصائص القصائد العربيّة القديمة⁵، وتابع (باريت) سابقه، فرأى أنّ

¹ تعددت المصطلحات الدالة على الوحدة الموضوعية، بسبب الترجمة عن المستشرقين واللسانيين، فأطلق عليها وحدة القصيدة، والوحدة العضوية، والوحدة الفنية.

² ينظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ط4، ج1، ترجمة: عبد الحليم النجار، مصر، دار المعارف، ص58.

³ ينظر: نفسه، ص61.

⁴ نفسه، ص65.

⁵ ينظر: فاجنر، إيفالد، أسس الشعر العربي القديم الكلاسيكي، ط1، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، كلية الألسن، جامعة عين شمس، مؤسسة المختار، القاهرة، 2008. 235-254.

الموضوعية شيء ضعيف في الشعر العربي القديم، وموضوع القصيدة العربية لا يُعنى إلا بما يتصل بالذات، وتفخيم الأنا¹.

وبدلاً من أن يناع بعض المحدثين العرب أولئك المستشرقين في ماهية الفكرة، ومدى صلاحيتها في الأدب العربي، من حيث كونها وحدة قصصية روائية ولادة الأدب الغربي، تمثّلوها وانصرفوا لنفيها عن القصيدة العربية، أو إثباتها²، فكانوا بذلك مُقرّين ضمناً بمشروعية مقولات المستشرقين في النقد العربي وصحتها، وأصبح القول بالوحدة الموضوعية من المُسلّمات، لكنّ الإشكال عندهم في توصيف القصيدة العربية، من حيث إثبات الوحدة ونفيها، وليس بمدى صلاحية صدق تلك الوحدة المستوردة على القصيدة العربية.

وربما يقول من يحسن الظنّ بالمستشرقين: إنّ التزام المستشرقين بالوحدة الموضوعية في النقد الأدبيّ مستلهم من ثقافتهم الأدبية السائدة في (أوروبا) آنذاك، التي كان يهيمن عليها فن الرواية القصصي، ذلك أنّ فنّ الرواية قائم على وحدة الموضوع، بتتابع الأحداث وتربطها، وبهذا الاحتمال يُفسر قول (فاجنر): "إنّ الشعراء الجاهليين لم يأتوا بمواد قصصية في أشعارهم، إلا في القليل النادر، وإذا أوردوا هذه القصص فإنهم لا يملكون تكتيكات القصص"³، لذا؛ ليس غريباً أن يُعجبهم الشعر القصصي، كشعر عمر

¹ رابعة، موسى سامح، الأنواع الأدبية والشعر الجاهلي في دراسات بعض المستشرقين الألمان، السعودية، مجلة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، العدد 11، السنة التاسعة، 1995، ص280.

² من أولئك العقاد الذي كان أكثرهم جرأة في اتباع المستشرقين، وذلك حين يقارن بين القصيدة العربية والأوروبية، فيرى أنّ القصيدة الأوروبية مترابطة المعاني متنسقة الموضوعات، وهذا ما تفتقر إليه القصيدة العربية أو يقل فيها، فالسمة البارزة فيها وحدة البيت لا وحدة الموضوع. العقاد، عباس محمود، ساعات بين الكتب، ط1، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1984، ص346. ومنهم (شوقي ضيف) الذي قال: "ومن الحق أن القصيدة العربية لم تكن تعرف هذه الوحدة العضوية معرفة واضحة قبل عصرنا الحديث إلا نادراً، وربما كان مرجع ذلك إلى تقيد شعرائنا في العصور الوسطى بنموذج وضعه لها شعراء العصر الجاهلي". ضيف، شوقي، في النقد الأدبي، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1962م، ص154. وكذلك (طه حسين) إذ أخذ يلتمس الوحدة الموضوعية في القصيدة الجاهلية فقال: "ولست أريد أن أبعد في التديل على أنّ الشعر العربي القديم كثيره من الشعر، قد استوفى حظّه من هذه الوحدة المعنوية". حسين، طه، حديث الأربعاء، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ص41. أمّا (زكي عشاوي)، فشاء أن يثبت للقصيدة الجاهلية وصف؛ ليردّ على المستشرقين فاخترع وحدة فكرية للشعر القديم كلّ ترتبط بشخصية الشاعر وبيئته، سمّاها وحدة الصراع من أجل الحياة. ينظر: العشاوي، محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، بيروت، دار النهضة العربية، 1979، ص145. هذا غير أنّ (إحسان عباس) انتبه إلى خطورة تبني فكرة الوحدة الموضوعية بمفهومها الغربي التي تبناها المحدثون العرب، ورأى أنّها لا تصدق على الشعر العربي. ينظر: عباس، إحسان، فن الشعر، ط2، بيروت، دار الثقافة، 1959، ص198.

³ رابعة، الأنواع الأدبية والشعر الجاهلي في دراسات بعض المستشرقين الألمان، ص289.

بن أبي ربيعة، وكتاب الأغاني، وألف ليلة وليلة¹، وإنَّ المحدثين لم ينتبهوا إلى الفارق بين العربيَّة والإنجليزيَّة، من حيث النظام والأسلوب، إذ يلزم أن تمَّ فارقاً ناشئاً في أصول النقد بين اللغتين، أو ربَّما يُقال: إنَّ الوحدة الموضوعيَّة، بمفهومها الغربيِّ، وليدة المذهب الرومانتيكيِّ الرومانسيِّ، الذي شاع وانتشرَ في أوروبا، في منتصف القرن الثامن عشر.

وقد عرضت هذه الدراسة لهذه القضية؛ لارتباطها بالنصِّ القرآنيِّ؛ ذلك أنَّ مسيرة دراساتهم ونتائجها وتفريعاتها تدعو لسوء الظنِّ، وتكشف عن دوافعهم وغاياتهم، على نحوٍ بيِّن في استنساخ وصف عبثيَّة القصيدة العربيَّة، وتطبيقه على السورة القرآنيَّة، فمتى ثبت أنَّ معلَّقة امرئ القيس، مثلاً، مُشتمَّة مُشعَّنة من جهة الموضوع، فإنَّ ذلك مقيسٌ، بالضرورة، على سورة البقرة وآل عمران وسائر السور الطوال، وإنَّ آمن العربُ بأنَّه ليسَ تمَّ ترابطٌ لدى امرئ القيس، بين الكلام على الطلل والنساء والفرس والليل والسيل، فكذلك ينبغي أن يؤمَّنوا بعدم الترابط في سورة البقرة، بين الكلام على المنافقين وبني إسرائيل والطلاق والزكاة والربا، وإذا كان العربُ لا يجادلون في وصف بشريَّة القصيدة الجاهليَّة، رغم علوِّ مستواها الفنيِّ، فإنَّ قوة التشابه هذه بين القصيدة الجاهليَّة والقرآن في عرض الموضوعات، ستقوِّد بتلقائيَّة إلى القول ببشريَّة القرآن، أو الشكِّ بالهيَّة، وممَّا يؤكد هذا التشابه في البناء زعم بعض العرب أنَّ محمداً شاعر²، فالشاعرُ الجاهليُّ ومحمَّد، في نظرهم، سواءٌ في مستوى العمل الأدبيِّ ووصفه، ولعلَّ ما جاءت به المستشرقَّة (ريناتا ياكوبي) يقويُّ هذا التفسير، ذلك أنَّها قيَّدت تشتمت موضوعات القصيدة بزمنٍ دون زمنٍ، وكأنَّها تقصدُ زمن النبوة، أي زمن نزول القرآن، ورأت أنَّ الروابط بين هذه الموضوعات كانت في مرحلة لاحقة³.

¹ كحيل، عبد العزيز، محاور الخطاب الاستشراقي، صحيفة المثقف، العدد: 1776، 2011، www.almothaqaf.com
² ورد زعمهم هذا في نص القرآن، في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَلْهَامَ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾، الأنبياء (5)، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾، الطور (30).
³ ينظر: موسى رباحة، الاستشراق الألماني المعاصر والشعر الجاهلي، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد، الأردن 11 1999م، ص 11. وينظر: الرباعي، عبد القادر، جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم - ريناتا ياكوبي أنموذجاً، الأردن، دار جرير، 2008م، ص 62.

ولن يكون هذا التفسيرُ رجماً بالغيب، ولا اتهاماً للمستشرقين عند اتباعه بقول (باريت)، الذي وافق (رينشارد بيل) حينما ذهب إلى أن أكثر السور، لاسيما الطوال منها، رُكبت من أقسامٍ وأجزاءٍ منفصلة، وهذا يعني أن بعض السور يتكوّن بالفعل من طبقاتٍ متعدّدة أو مختلفة، وأنّ محمداً أجرى تعديلاتٍ في بعض السور، وأعاد استعمالها بالطريقة الجديدة¹، ومثل هذين (جولدتسهير) الذي لم ير نصّاً تشريعياً فيه من الاضطرابِ وعدم الثباتِ كالنصّ القرآني²، وزعم غير هؤلاء من المستشرقين أن القرآن "خليطٌ متنافرٌ، وجمعٌ غيرٌ مؤتلفٍ، ليس فيه وحدةٌ للموضوع، ولا يتبع منهج التّأليف العلميّ أو الفنيّ، من عرض الموضوع ومناقشته وتدوين الملاحظات، واستنتاج الحقائق، بل تجدُ السورة تدخلُ في أكثر من موضوع، وتعرض الجميع عرضاً مبتسراً سريعاً، ولا تراعي مناسبةً بين محتوياتها"³، بل إنّ منهم من رأى لكل آية غرضاً مستقلاً عن سابقه، كالوعظ أو الزجر، أو وصف الجنة والنار، أو قصة أو حكم من الأحكام، وهذا التشتت جعل القرآن على غير نسق الكتب الموضوعية⁴، وأرجع كثيرٌ من المستشرقين هذا الاضطراب الموضوعي في السورة إلى الصحابة، الذين جمعوا القرآن، فخلطوا آياته، عندما رتبوه على شكل سور⁵.

وقد انتقلت أنظار هؤلاء المستشرقين إلى المحدثين العرب، فراحوا يلتمسون لها أشباهاً ونظائر في التراث الإسلاميّ، فوجدوا ضالتهم في كلام القدماء على اتّصال السّياق، وترابط أجزاء السورة، فتشبّثوا به، وفهموه على أنه كلامٌ في الوحدة الموضوعية التي عناها المستشرقون، فشرعوا في دراساتٍ تثبت تلك الوحدة في السور القرآنية، طانين أنّهم بذلك يدافعون عن القرآن، ويحفظونه من شرور

¹ ينظر: باريت، رودى، محمد والقرآن، ط1، ترجمة: رضوان السيد، الإمارات، مؤسسة شرق غرب ديوان المسار للنشر، 2009، ص273.

² ينظر: جولدتسهير، مذاهب التفسير، ترجمة: عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، 1955، ص40.

³ أبو ليلة، محمد محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ط1، مصر، دار النشر، للجامعات، 2002، ص472. والرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ج1، الرياض، إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة العربية السعودية، 1983، ص222. والأبيض، أشواق حسن علي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ط1، مصر، دار الأفاق العربية، 2012، ص32.

⁴ ينظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، مصر، دار الكتب الحديثة، 1971، ص13.

⁵ ينظر: شحاته، عبد الله محمود، علوم القرآن، مصر، دار غريب، 2002 م، ص290.

المستشرقين، ويردون كيدهم إلى نحورهم، وهم في الحقيقة قد حولوا هذه الأقوال الأجنبية إلى نظريات واستدلالات عربية، ولعلّه لم يسلم من هذا المنزلق إلا نزرٌ يسير، حتى أكثرهم تمسكاً بالتراث كـ(سيد قطب)، الذي حرّر في ظلاله لكل سورة قرآنية موضوعاً واحداً، أو محوراً واحداً، تدور حوله في جوهها العام، كقوله: "وهذه البقية الباقية من سورة البقرة هي استطرادٌ في موضوعها الرئيسي، الذي شرحناه في مطلع الجزء الأول... وهو إعداد الجماعة المسلمة في المدينة؛ لتنهض بتكاليف الأمة المسلمة"¹، وفي موضع آخر قال: ﴿وَنُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجُه السورة²، وسواءً أكان متكلفاً في مذهبه هذا أم غير متكلف، فإنّ (سعيد حوى) بدا أكثر تأثراً بأنظارهم حينما أقام تفسيره (الأساس) على فكرة الوحدة الموضوعية، وزعم أنّ المفسرين القدماء غفلوا عن هذه النظرية التي جاءَ هوَ بها³، وإن كان لهم محاولات في وصل أول الكلام بآخره، إلا أنّها لم ترتق إلى مثل هذا الربط الموضوعي الذي قدّمه⁴، وذهب إلى القول بالوحدة في القرآن كله، قال: "لقد دندنَ علماؤنا حولَ هذا الموضوع، ولم يستوعبوه، واستوعبته بفضلِ الله، وأشاروا إليه، ولم يفصلوا فيه، ولقد فصلتُ فيه تفصيلاً استوعبَ الآيات في السورة الواحدة، والسور في القرآن كله، على ضوء نظرية شاملة أثبتت البحث صحتها"⁵، ورأى أنّ هذه الوحدة القرآنية تدحضُ شبهة أنّ القرآن فيه تباين، بين القرآن المكي والمدني، وهي دليل الإعجاز عنده.

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط1، ج1، ص275.

² نفسه، ص3559.

³ ينظر: حوى، سعيد، الأساس في التفسير، ط6، ج2، القاهرة، دار السلام، 1424 هـ، ص685.

⁴ بل ذهب إلى القول بالوحدة في القرآن كلها، قال: "لقد دندن علماؤنا حول هذا الموضوع ولم يستوعبوه، واستوعبته بفضل الله، وأشاروا إليه ولم يفصلوا فيه، ولقد فصلت فيه تفصيلاً استوعب الآيات في السورة الواحدة والسور في القرآن كله على ضوء نظرية شاملة أثبتت البحث صحتها، وهي تعطي الجواب على كثير من الأمور مما له صلة بوحدة السورة، ووحدة المجموعة القرآنية، ووحدة القسم القرآني، ثم في الوحدة القرآنية كلها"، ورأى أنّ هذا يدحضُ شبهة أنّ القرآن فيه تباين بين القرآن المكي والمدني، وهذا دليل الإعجاز عنده. حوى، سعيد، الأساس في التفسير، ط6، ج2، ص23.

⁵ حوى، سعيد، الأساس في التفسير، ط6، ج2، ص23.

وتابع هذين، من بعد، (رفعت عبد المطلب)؛ فرأى أن السورة وحدة لا تتجزأ في موضوعها¹، واستدل على ذلك بقول (محمد دراز)، وكان دراز قد استنسخ كلام القدماء على اتساق أجزاء السورة وتلاحمها، فقال: "إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان... بل إنها تلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان..."²، وفهم هذا الكلام عبد المطلب على أنه كلام في الوحدة الموضوعية، وقول دراز ما لم يقله. ورأى (محمد الصغير) أن السورة القرآنية تقوم على تجانس موضوعي من جزئيات متعددة؛ لتكون جميعاً وحدة موضوعية فيها، والذي ألبس على المستشرقين فهم هذا هو الترجمة، التي لا تحيط خبراً بالملايسات التكوينية للسورة³، وتابع هؤلاء نفرٌ كثيرٌ من الدارسين المحدثين⁴، لا يتسع المقام لذكر أقوالهم.

ولم ينتبه هؤلاء إلى خطورة إطلاق القول بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية؛ ووجه ذلك أن المستشرقين حدوا تلك الوحدة، وبيّنوا ماهيتها، بأنّها وحدة موضوعية ذات أحداث متتابعة، كأحداث العمل القصصي، فإذا استقرت بهذا المفهوم في أذهان العرب، وغدت سمة من سمات الأدب العالي، فإن إثباتها في السورة القرآنية أو نفيها عنها يلزم منه، ضمناً، الطعن في القرآن، ذلك أن جل سور القرآن عرضت غير موضوع، خلا سورة يوسف والسور القصار، وإثبات تلك الوحدة، بذلك المفهوم، سيكون، حتماً، متكلفاً لا سيما في السور الطوال، وبذلك ستبدو وحدة السورة القرآنية متكلفةً أو واهيةً، إن لم تكن عديمةً، فيلزمها وصف عيب التأليف، أمّا نفيها عن السورة، فإنّه نفي لسمة من سمات الأدب العالي عن القرآن، وبذلك يلزمه عيب التأليف والنقص أيضاً.

لقد تبدى جلياً أن تبني فكرة الوحدة الموضوعية بمفهومها الغربي، وتمثلها سيؤول إلى مقاصد المستشرقين، سواءً أكان بإثباتها في السورة القرآنية أم بنفيها عنها، وسيعينهم، من بعد، على سيرورة

¹ ينظر: عبد المطلب، رفعت فوزي، الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، مصر، دار السلام، 1986، ص19-20.

² دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، الكويت، دار القلم، دت، ص155.

³ ينظر: الصغير، محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية، لبنان، دار المؤرخ العربي، 1999، ص139.

⁴ ينظر: حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن، ص40. وينظر: محمد، رايح، تجليات الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سورة الواقعة، الجزائر، جامعة أحمد دراية إيراد، دراسة جامعية، 2016، ص6.

زعمهم أنّ السورة القرآنية مشتتة مضطربة غير منتظمة، وبذلك يتحول ما يجيئون به إلى علمٍ وحقيقة، وهذا لا يعني، بالضرورة، أنه لا توجد وحدة بوجه مطلق في السورة القرآنية، فإذا كانت الوحدة التي أرادها المستشرقون ظاهرة بيّنة، كوحدة الأحداث القصصية في سورة يوسف، فإن الوحدة التي أشار إليها القدماء خفية غير ظاهرة على من لم يأخذ بزمام اللغة العربية، ولم يملك الذوق السليم، ففي كل سورة وحدة في بناء النصّ منتظمة، وسياق الآيات فيها متصل من حيث التراكيب اللفظية والمعاني، وهذا ما عُرف حديثاً بالسبك والحبك، اللذين يُعينان على إدراك الإعجاز القرآني، ذلك الإعجاز الذي لا يدرك إلا بملكة اللغة والذوق العربي، الذي يتحصّل من طول خدمة علمي البيان والمعاني¹، وهذا ما لم يستطعه المستشرقون، ولعلّه عزّ على بعض المحدثين.

ولذا؛ كان على هؤلاء الذين ناكفوا المستشرقين أن يتمثلوا غاية النصّ القرآني، بإثبات وصف اتصال السياق الذي انطلى على أولئك الأعاجم، أو لم يدركوه، فسرّ من أسرار النصّ القرآني؛ أن يبقى السياق متصلاً لفظاً ومعنى، من أول السورة إلى آخرها، رغم تعدد الموضوعات وتنوعها، فلا يشعر القارئ بنشاز أو بانكسار تتابع النصّ، أو انفصال بعضه عن بعض البتة، بل يبقى مشدوداً مأخوذاً باتصال التراكيب والمعاني، وإن لم يقف على وجه الإعجاز، فهو يدركه، سواءً أكان قادراً على وصفه أم لم يكن، وقد أتى القدماء على شيء غير قليل من هذا.

وبناءً على هذا وذاك؛ جاءت هذه الدراسة لتثبت وصف اتصال سياق السور القرآنية، وتكامل بنائها، بصرف النظر عن موضوعها، ووصفها بالمكي والمدني، فقد كشفت وسائل السبك والحبك أنّ الآيات المستتناة من السورة جاءت منسجمة، ومنسقة مع ما قبلها وما بعدها، رغم اختلاف وصفها عن سائر وصف السورة، وقد تمثّل ذلك في ربط الآيات بأسباب النزول، وسياق المقام والحال، وربط السابق باللاحق، سواءً أكان ذلك بالوسائل النحوية، كالإحالة والاستبدال والحذف والوصل، أم بالوسائل المعجمية، كالترار والمصاحبة المعجمية، أم بعلاقات الحبك، معتمدة على قرائن مقالية وسياقية؛ لتحقّق

¹ ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ط2، ص416.

ملحَ الكفاية النصية في مستوى سطح النصّ، فتتضح دلالتُهُ، ومقصدهُ العامُّ، ولعلَّ هذا من شأنه أن يؤكِّد مقولة القدماء: "ارتبطَ أيُّ القرآنِ بعضها ببعضٍ، حتى تكونَ الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"¹ أو يفسرها، باتصالِ أجزاء الكلام، وثبوتِ نصيبه.

ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ قسمًا من الدراساتِ المرتبطةِ بنحوِ النصِّ القرآنيِّ، أثبتتُ اتصالَ هذا الدرسِ بأصولِ القدماءِ، فقد خلصَ (باقر فرج ونعيمة سيد) إلى أنَّ الدراساتِ النصِّية لها أساسٌ لدى القدماء² وإنَّ كان ينقصهم المصطلح³، وتبدو هذه الأحكامُ معتمدةً على ما تناثرَ في مصنفاتِ القدماءِ، ممَّا يتفقُ في مضمونه مع نحوِ النصِّ؛ لإثباتِ أصولِ هذا العلمِ في التراثِ، وكذلك أثبتَ قسمٌ آخرٌ منها وصفَ التماسكِ النصِّيِّ في جزءٍ من القرآنِ، أو سورةٍ منه⁴، إلا أنَّ نتائجها جاءتْ منبئة الصلَّة عن أنظارِ القدماءِ من جهةِ الأعمالِ، فلم تنظرْ في الغايةِ من صنيعِ القدماءِ، كاتصالِ الكلامِ، وتلاحمِ أجزاءه، ولم تصلُ ذلكَ بأنظارِ نحوِ النصِّ، بل أشارَ بعضها إلى قصورِ درسِ القدماءِ في الجانبِ الإجماليِّ⁵، وبصرفِ النظرِ عن مدى صدقِ هذا أو كذبه، فإنَّ هذه الدراسة قامتُ على تفحصِ صنيعِ القدماءِ؛ للوقوفِ على غايتهم بإثباتِ اتصالِ السِّياقِ، وتلاحمِ أجزاء الكلامِ؛ ليكونَ ذلكَ مسعفاً على استعادةِ نتائجهم، ساعة دراسة وسائلِ نحوِ النصِّ، برجعِ إثباتِ ذلكَ الاتِّصالِ والتلاحمِ بينَ آياتٍ مكيَّةٍ ومدنيَّةٍ، رغمَ انفصالِ زمانِ نزولها ومكانها، وتعددِ موضوعاتها، كما امتازتْ هذه الدراسةُ عن غيرها بتوظيفِ نتيجةِ درسيها الإجماليِّ، في الردِّ على أنظارِ المستشرقينِ المرتبطةِ بالقرآنِ المكيِّ والمدنيِّ.

¹ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص369.

² ينظر: أحمد، نعيمة سيد، اللسانيات والنص القرآني - الفاصلة القرآنية أنموذجاً - دراسة نصية لمعيار السبك والحبك، الجزائر، جامعة قاصد مرباح، كلية الآداب واللغات دراسة جامعية، 2020، ص218، 219.

³ ينظر: فرج، باقر محسن، السبك والحبك في جزء المجادلة، العراق، جامعة المثنى، كلية التربية للعلوم الإنسانية، دراسة جامعية، 2018، ص175.

⁴ ينظر: حيال، أحمد حسين، السبك النصي في القرآن، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، العراق، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، دراسة جامعية، 2011، ص171، 172. وينظر: بلعيد هجيرة وتبويب حياة، السبك والحبك في القرآن الكريم سورة البقرة (الجزء الأول) أنموذجاً، الجزائر، جامعة محمد بن يحيى، كلية الآداب، 2020، ص88، 89.

⁵ ينظر: حيال، أحمد حسين، السبك النصي في القرآن، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، العراق، ص171.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تكشف عن وسائل السبك والحبك في الآيات المكيّة والمدنيّة المستثناة من السورة القرآنيّة؛ لبيان مظاهر التماسك النصّي في بؤرة هذه الدراسة، ثمّ تُقيّم شيئاً من أنظار المستشرقين في موضوع القرآن المكي والمدني، متوسّلةً بنتيجة درس تلك الوسائل، ويبنى على هذا تقديم صورة واقعيّة للقرآن المكي والمدني، من حيث تباين أسلوبه وموضوعه؛ لتستثمر في تقييم تلك الأنظار، وما انبث عنها من دراسات عربيّة حديثة، وذلك وفق معطيات علميّة متكاملة بعيدة عن التعميم والتقريب، وقد خلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

1. وصف القرآن بالمكي والمدني ثابت لدى القدماء بالسماح أو بالقياس، أمّا السماع، ففيه خلاف ظاهر؛ سببه عدم ورود نص ديني في تعيين ذلك الوصف، واعتماده على أقوال الصحابة وآرائهم، وقد أدت بعض الروايات المرتبطة بأسباب النزول إلى التوهم والخط وتوسيع الخلاف، وإن كان قد رجح، قديماً، معيار الزمان على معيار المكان وحال المخاطبين في تعيين ذلك، فإن الرواية الصحيحة هي الحاسمة في إثبات ذلك الوصف، وأمّا الضوابط والمميزات القياسيّة، فيستأنس بها؛ لأنها صادرة عن النظر والاجتهاد والرأي.
2. أثبت درس وسائل السبك والحبك أن الآيات المستثناة من السورة منسجمة ومتسقة مع ما قبلها وما بعدها، رغم تعدد موضوع السورة، واختلاف وصفها بالمكي والمدني، وقوبل هذا بطعون المستشرقين المنبعثة من التباين الأسلوبي في ذلك الوصف.
3. كانت عناية القدماء بوسائل درس النصّي عفوية غير منتظمة، فرغم أن النحاة وقفوا على الروابط اللغويّة بين آيات القرآن، والبلاغيين كشفوا عن اتصال المعاني وتتابعها، والمفسرين اختبروا وجوهاً تفسيرية أخرى مُحتملة، إلا أنهم لم ينظروا في وظيفة ذلك الكليّة التي تحقق وصف نصيّة النصّ.

4. كانَ لأنظارِ المستشرقينَ أثرٌ بالغٌ بانحرافِ منهجِ بعضِ المحدثينَ عنِ مضمارِ القدماءِ في درسِ القرآنِ المكيِّ والمدنيِّ، فجاءتْ دراساتهمُ، فيما غلبَ، مستجيبةً لمقاصدِ المستشرقينَ، وسائرةً في مضمارِهم.

5. إنَّ استثناءَ آياتِ مكيةٍ من سورةٍ مدنيَّةٍ أو آياتِ مدنيَّةٍ، من سورةٍ مكيَّةٍ غيرُ قادحٍ في اتِّصالِ النصِّ القرآنيِّ وانسجامِهِ، بل ينبغي استثمارُ ثبوتِ أدلَّةِ استثناءِ الآياتِ من جهةٍ، واتصالِ النصِّ القرآنيِّ وتماسكِهِ من جهةٍ أخرى في التتظيرِ للإعجازِ القرآنيِّ.

6. أسقطَ المستشرقونَ نتيجةَ دراسةِ الوحدةِ الموضوعيَّةِ في الشعرِ الجاهليِّ على النصِّ القرآنيِّ، واستنسخوا له الوصفَ الشعريَّ نفسه، بنفيِ تلكَ الوحدةِ عنه، وتابعهم قسمٌ من المحدثينَ العربِ، فتكلَّفوا إثباتَ الوحدةِ الموضوعيَّةِ بمفهومها الغربيِّ في السورةِ القرآنيَّةِ، وفسَّرُوا مقولاتِ القدماءِ حولَ سياقِ النصِّ المتصلِ بأنَّها كلامٌ على تلكَ الوحدةِ، وقد أثبتتْ هذهِ الدراسةُ عدمَ صلاحيةِ درسِ الوحدةِ الموضوعيَّةِ في الشعرِ العربيِّ، والنصِّ القرآنيِّ على وجهِ الخصوصِ، وبيَّنتْ خطورةَ إثباتها في السورةِ القرآنيَّةِ، أو نفيها عنها.

7. كشفَ الدرسُ اللسانيُّ الحديثُ عنَ مفارقاتٍ ومقارباتٍ جديدةٍ في تعاملِهِ معِ النصِّ، تتفقُ كثيراً معِ بنيةِ النصِّ القرآنيِّ، الذي يتَّسمُ بقدرتهِ الذاتيةِ على التفاعلِ الوظيفيِّ معِ ما يستجدُّ من علومٍ وأنظارٍ لغويَّةٍ حديثةٍ، قوميَّةٍ أو أجنبيَّةٍ، وهذا يكشفُ عنَ ضرورةِ عصريَّةٍ لتحديثِ الدرسِ القرآنيِّ، وإعادةِ توصيفِهِ وفقَ الأنظارِ الحداثيَّةِ؛ لتستدركَ على ما في كتبِ التفسيرِ من تداخلِ المنهجياتِ وتعددِها؛ ليُعَادَ ضبطُها وتنسيقُها وبنائُها نظريًّا، وفقَ أسسٍ علميةٍ حداثيَّةٍ.

المراجع العلمية

المصادر والمراجع العربية

1. الأبيص، أشواق حسن علي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2012.
2. ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1420هـ.
3. الأزهر، الزناد، نسيج النص (بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً)، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1993.
4. الاستريبادي، محمد بن حسن الرضي، شرح الرضي على الكافية، ط2، بنغازي، جامعة قار يونس، 1996.
5. استيتية، سمير، منازل الرؤية (منهج تكاملي في قراءة النص)، ط1، عمان، دار وائل، 2002.
6. ابن أبي الإصبع العدواني، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، مصر، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ت.
7. الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج1، ط4، تحقيق: السيد أحمد صقر، بيروت، دار المعارف، د.ت.
8. الإيجي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004.

9. باريت، رودي، محمد والقرآن، ط1، ترجمة: رضوان السيد، الإمارات، مؤسسة شرق غرب ديوان المسار للنشر، 2009.
10. بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط1، القاهرة، دار توبار، 1997.
- علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط11، مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، 1997.
 - دراسات تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، (د.ت).
11. بدران، عبد القادر بن أحمد واهر، الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار، تحقيق: زهير الشاويش، لبنان، المكتب الإسلامي، 1991.
12. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ط4، ترجمة: عبد الحليم النجار، مصر، دار المعارف.
13. البطاشي، خليل بن ياسر، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ط1، الأردن، دار جرير للنشر، 2009.
14. البغا، مصطفى ديب، ومستو، محيي الدين ديب، الواضح في علوم القرآن، دمشق، دار الكلم الطيب- دار العلوم الإنسانية، 1998.
15. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ط4، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، السعودية، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1997.
16. أبو بكر الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط5، السعودية، مكتبة العلوم والحكم، 2003.

17. بلا، يمينة وفاطمة عقباوي، **السبك النصي في كتاب المثل السائر**، الجزائر، جامعة أدرار، كلية الآداب واللغات، 2018.
18. بلاشير، **كتاب القرآن**، ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974.
19. بوجراند، ودريس، **مدخل إلى علم لغة النص**، ط1، ترجمة: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
20. البوطي، محمد سعيد رمضان، **من روائع القرآن**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1999.
21. بوقرة، نعمان، **المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب**، ط1، الأردن، جدار للكتاب العالمي، 2015.
22. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط1، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1418.
23. البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، **دلائل النبوة**، ط1، تحقيق: عبد المعطي قلنجي، مصر، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، 1988.
24. تاج، مير فوزية، **التحليل النصي في التفاسير القرآنية البيانية والموضوعية (دراسة تحليلية في ضوء منهج نحو النص)**، باكستان، الجامعة الإسلامية العالمية، 2013.
25. التميمي، عواطف كنوش، **الدلالة السياقية عند اللغويين**، ط1، لندن، دار السياب للطباعة والنشر، 2007.
26. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1995.

- شرح حديث النزول، ط5، بيروت، المكتب الإسلامي، 1977.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1986.
- 27. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، البيان والتبيين، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1423هـ.
- 28. الجبرين، عبد الله بن عبد العزيز بن حمادة، تسهيل العقيدة الإسلامية، ط2، السعودية، دار العصيمي للنشر والتوزيع، د.ت.
- 29. جبل، محمد حسن حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2010.
- 30. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مصر، مطبعة المدني، د.ت.
- درج الدرر في تفسير الآي والسور، ط1، تحقيق وليد بن أحمد بن صالح الحسين، وإياد عبد اللطيف القيسي، بريطانيا، مجلة الحكمة، 2008.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط3، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، القاهرة، مطبعة المدني، 1992.
- 31. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1983.

32. ابن جنبي، أبو الفتح عثمان الموصلي، **الخصائص**، ط4، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.

• **اللمع في العربية**، تحقيق: فائز فارس، الكويت، دار الكتب الثقافية، د.ت.

• **الخصائص**، ج2، تحقيق: محمد علي النجار، مصر، المكتبة العلمية، د.ت.

33. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، **زاد المسير في علم التفسير**، ط1، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1422هـ.

34. جولدنتسهير، **مذاهب التفسير**، ترجمة: عبد الحلیم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، 1955.

35. تشومسكي، نوم، **البنى النحوية**، ط1، ترجمة: يوثيل يوسف عزيز، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987.

36. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، **تفسير القرآن العظيم**، ط3، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المملكة العربية السعودية، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1419هـ.

37. حجازي، محمد محمود، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، مصر، دار الكتب الحديثة، 1971.

38. ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ.

39. حسان، تمام، **البيان في روائع القرآن**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.

• **اللغة العربية معناها ومبناها**، ط6، القاهرة، عالم الكتب، 2009.

40. حسان، تمام، **مقالات في اللغة والأدب**، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2006.
41. أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي، **تفسير مقاتل بن سليمان**، ط1، تحقيق عبد الله محمود شحاته، بيروت، دار إحياء التراث، 1423.
42. حسن، عباس، **النحو الوافي**، ط15، مصر، دار المعارف، د.ت.
43. حسين، طه، **حديث الأربعاء**، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.
44. الحسيني، حمادة محمد عبد الفتاح، **المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن**، مصر، جامعة الأزهر، 2007.
45. الحسيني، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، ط1، بيروت، المكتبة العنصرية، 1423هـ.
46. حماسة، محمد، **بناء الجملة العربية**، ط1، القاهرة، دار الشروق، 1996.
47. حمد، عبد الله خضر، **الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية**، ط1، لبنان، دار القلم، 2017.
48. الحماوي، عمر العرباوي، **كتاب التوحيد المسمى بالتخلي عن التقليد والتخلي بالأصل المفيد**، مصر، مطبعة الوراق العصرية، 1984.
49. حمودة، طاهر سليمان، **ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي**، ط1، مصر، دار الجامعة، 1998.
50. حميدان، أحمد محمد، والدعاس، أحمد عبيد، والقاسم، إسماعيل محمود، **إعراب القرآن الكريم**، ط1، دمشق، دار المنير ودار الفارابي، 1425هـ.
51. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ط1، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2001.

52. حوّى، سعيد، الأساس في التفسير، ط6، القاهرة، دار السلام، 1424هـ.
53. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، 1420.
54. ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ج1، مصر، مطبعة دار الكتب المصرية، 1941.
55. الخثعمي، سليمان بن سحمان، الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، ط5، تحقيق: عبد السلام بن برجس بن ناصر بن عبد الكريم، السعودية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، 1992.
56. الخراط، أبو بلال، أحمد بن محمد، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، ج1، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1426هـ.
57. خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ط2، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006.
58. خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 1991.
- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط2، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006.
59. الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.
60. الداودي، زاهر مرهون، الترابط النصي بين الشعر والنثر، ط1، عمان، دار جريب، 2010.
61. دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، الكويت، دار القلم، د.ت.

62. درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى، إعراب القرآن وبيانه، ط4، سورية، دار الإرشاد للشئون الجامعية، بيروت، دار ابن كثير، 1415هـ—.
63. الدسوقي، محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، [ومختصر السعد هو شرح تلخيص مفتاح العلوم لجلال الدين القزويني]، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، المكتبة العصرية، د.ت.
64. دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ط1، ترجمة حسان تمام، القاهرة، دار عالم الكتب، 1998.
65. دي بوجراند، روبرت، ولفغانغ دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، ط1، ترجمة: الهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، بيروت، مطبعة دار الكتاب، 1992.
66. دي سوسير، فردينان، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي ومجيد النصر، بيروت، دار النعمان الثقافية، 1984.
67. دي سوسير، فرديناند، علم اللغة العام، ط1، ترجمة: يوثيل يوسف عزيز، بغداد، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، 1985.
68. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ—.
69. راون، ج.ب براون وج يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي، السعودية، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، 1997.
70. الرباعي، عبد القادر، جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم- ريناتا ياكوبي أنموذجًا، الأردن، دار جرير، 2008.

71. الربيع، أمانة، البنية السردية للقصة القصيرة في سلطنة عُمان، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.

72. الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، الرياض، إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة العربية السعودية، 1983.

73. الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، د. ت.

• مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.

74. الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957.

75. الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957.

76. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، ط1، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998.

• الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، بيروت، دار الكتاب العربي، 1407هـ.

• المفصل في صنعة الإعراب، ط1، تحقيق: علي بو ملح، بيروت، 1993.

• تفسير الكشاف، ط3، لبنان، دار المعرفة، 2009.

77. أبو زنيد، عثمان، نحو النص (إطار نظري ودراسات تطبيقية)، ط1، الأردن، عالم الكتاب، 2010.

78. أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، **زهرة التفاسير**، مصر، دار الفكر العربي، د.ت.
79. السامرائي، فاضل، **معاني النحو**، ط2، عمان، دار الفكر، 2003.
80. السخاوي، علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي أبو الحسن، **جمال القراء** و**كمال الإقراء**، ط1، تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة، دمشق - بيروت، دار المأمون للتراث، 1997.
81. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
82. السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، **مفتاح العلوم**، ط2، لبنان، دار الكتب العلمية، 1987.
83. سلامة، محمد علي، **منهج الفرقان في علوم القرآن**، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2002.
84. السجلماسي، أبو محمد القاسم الأنصاري، **المنزل البديع في تجنيس أساليب البديع**، تحقيق: علال الغازي، الرباط، مكتبة المعارف، 1980.
85. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، **تفسير السمرقندي (بحر العلوم)**، ط1، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النوتي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993.

86. السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي التميمي، تفسير السمعاني، ط1، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، السعودية، دار الوطن، 1997.
87. السمين الحلبي، أبو العباس، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، 1986.
88. سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، ط3، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1988.
89. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار الفكر، د.ت.
90. الشايب، خضر، نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، الرياض، مكتبة العبيكان، 2002،
91. شحاته، عبد الله محمود، علوم القرآن، مصر، دار غريب، 2002.
92. الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، القاهرة، مطبعة بولاق (الأميرية)، 1285هـ.
93. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لبنان، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 1995.
- العذب النَّميرُ من مجالسِ الشَّنَقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، ط2، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، مكة، دار عالم الفوائد للنشر و التوزيع، 1426هـ.

94. أبو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط2، القاهرة، مكتبة السنة، 2003.

• المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار اللواء للنشر والتوزيع، السعودية، 1987.

95. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، فتح القدير، ط1، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، 1414هـ.

96. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، ط1، القاهرة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، 1997.

97. صالح، بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، ط2، عمان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1418هـ.

• أصول الألفية عند النحاة العرب، بيروت، مجلة الفكر العربي، العدد 8-9، معهد الإنماء العربي، 1979.

98. الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، بيروت، دار العلم للملايين، 2000.

99. الصبان، أبو العرفان محمد بن علي الشافعي، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997.

100. الصبيحي، محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، بيروت، دار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2008.

101. الصغير، محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية، لبنان، دار المؤرخ العربي، 1999.

102. ابن الضريس، أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى، فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، ط1، تحقيق: غزوة بدير، دمشق، دار الفكر، 1987.
103. ضيف، شوقي، في النقد الأدبي، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1962.
104. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2000.
105. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، القاهرة، ط1، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
106. الطوفي، أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عيد الكريم الصرصري، الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية، ط1، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005.
107. الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم، الإكسير في علم التفسير (في أصول وقواعد تفسير القرآن الكريم)، تحقيق: محمد عثمان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1971.
108. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984.
109. عباس، إحسان، فن الشعر، ط2، بيروت، دار الثقافة، 1959.
110. عباس، أحمد خضر، أسلوب التعليل في اللغة العربية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1971.
111. عباس، فضل حسن، إتقان البرهان في علوم القرآن، الأردن، دار الفرقان، 1997.
- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ط1، دار البشير، عمان، 1987.

112. عبد الراضي، أحمد محمد، نحو النص بين الأصالة والحداثة، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008.

113. عبد العزيز، محمد حسن، المصاحبة في التعبير اللغوي، القاهرة، دار الفكر، 1990.

114. عبد المجيد، جميل، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ط1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

115. عبد المطلب، رفعت فوزي، الوحدة الموضوعية للصور القرآنية، مصر، دار السلام، 1986.

116. عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1984.

117. أبو عبّيد، القاسم بن سلّام الهروي، فضائل القرآن، ط1، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابية، ووفاء تقي الدين، (دمشق - بيروت)، دار ابن كثير، 1995.

118. ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الأنجزي الفاسي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج2، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، حسن عباس زكي، 1419.

119. ابن عرفة، محمد بن محمد الوردغمي التونسي، تفسير ابن عرفة، ط1، تحقيق: جلال الأسيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008.

120. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين الكتابية والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العنصرية، 1419 هـ.

• الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ت.

121. العثماوي، محمد زكي، **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**، بيروت، دار النهضة العربية، 1979.
122. عضيمة، محمد عبد الخالق، **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، تصدير: محمود محمد شاكر، القاهرة، دار الحديث، د.ت.
123. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط1، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ.
124. عفيفي، أحمد، **نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي**، ط1، دار العلوم، مكتبة الزهراء، القاهرة، 2001.
125. العقاد، عباس محمود، **ساعات بين الكتب**، ط1، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1984.
126. ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار التراث - دار مصر للطباعة، 1980.
127. ابن عقيلة، المكي، **الزيادة والإحسان في علوم القرآن**، ط1، الإمارات العربية المتحدة، مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة، 2006.
128. عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة**، ط5، مصر، عالم الكتاب، 1998.
129. عمر، محمد أبو خرمة، **نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى**، ط1، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2004.
130. أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، **البيان في عدّ آي القرآن**، ط1، غانم قدوري الحمد، الكويت، مركز المخطوطات والتراث، 1994.

131. عناني، محمد، **المصطلحات الأدبية الحديثة**، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 1997.

132. عياشي، منذر، **مقالات في الأسلوبية** - دراسة، ط1، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1990.

133. العيص، زيد عمر عبد الله، **علم المكي والمدني في عيون المستشرقين (عرض ونقد)**، الأردن، دار الفكر للنشر، 2015.

134. الغانمي، فهد بن درهم، **النص القضائي القيم والمعايير النصية**، الأردن، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2019.

135. الغلاييني، مصطفى بن محمد سليم، **جامع الدروس العربية**، ط28، بيروت، المكتبة العصرية، 1993.

136. غنيمي، محمد هلال، **النقد الأدبي الحديث**، مصر، دار، 1979.

137. الغيتابي، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الحنفي، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

138. فاجنر، إيفالد، **أسس الشعر العربي القديم الكلاسيكي**، ط1، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، كلية الألسن، جامعة عين شمس، مؤسسة المختار، القاهرة، 2008.

139. ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس، **معجم المقاييس**، اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر، (د.ت.).

140. فان دايك، **النص والسياق**، ترجمة: عبد القادر فنيني، المغرب، دار أفريقيا الشرق، 2000.

141. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980.

142. فرج، حسام أحمد، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2007.
143. ابن الفرس، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، أحكام القرآن، ط1، تحقيق: صلاح الدين بو عفيف، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.
144. الفقى، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط1، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
145. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1996.
146. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، محاسن التأويل، ط1، ج9، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، 1418هـ.
147. قدس، عبد الحميد بن محمد علي، لطائف الإشارات على تسهيل الطرقات لنظم الورقات في الأصول الفقهيّات، مصر، مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1950.
148. القرطاجني، أبو الحسن حازم محمد بن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الجيب بن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، د.ت.
149. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط2، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1964.

150. القزويني، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، ط3، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الجيل، د.ت.

151. القطان، مناع بن خليل، مباحث في علوم القرآن، ط3، السعودية، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2000.

152. قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، 1972.

153. القلموني، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة الحسيني، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.

154. قَيَّاس، ليندة، لسانيات النص بين النظرية والتطبيق، القاهرة، ط1، مكتبة الآداب، 2009.

155. الكبيسي، طراد، جماليات النثر العربي، بغداد، دار شؤون الثقافة العامة، الموسوعة الصغيرة، 2000.

156. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ط2، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، السعودية، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999.

157. الكرمانلي، أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مصر، دار الفضيلة، د.ت.

158. الكرمني، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن، تحقيق: سامي عطا حسن، الكويت، دار القرآن الكريم، 2019.

159. كريدان، محمد الهادي، مكي القرآن ومدنيّه، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس،
1984.

160. الكلبى الغرناطى، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي، التسهيل لعلوم
التنزيل، ط1، ج1، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1416هـ.

161. لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، بغداد، دار الشؤون الثقافية
العامة، 1987.

162. أبو ليلة، محمد محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ط1، مصر، دار النشر،
للجامعات، 2002.

163. الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)،
ط1، تحقيق: مجدي باسلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005.

164. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، بيروت، عالم
الكتب، د.ت.

165. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، ط2، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، القاهرة،
لجنة إحياء التراث الإسلامي وزارة الأوقاف، 1994.

166. محمد، عزة شبل، علم لغة النص النظرية والتطبيق، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2007.

167. المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، ط1، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى
البابى الحلبي، 1946.

168. المرتجى، أنور، سيميائية النص الأدبي، الدار البيضاء، دار أفريقيا الشرق، 2010.

169. مصدق، محمد أمين، **حذف الفعل ودوره في تحقيق التماسك النصي**، الجزائر، جامعة محمد خضير، كلية الآداب واللغات، مخبر اللسانيات واللغة العربية، 2018.
170. مصلوح، سعد، **نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية**، فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد العاشر، العددان 1 و2، يوليو (أغسطس)، 1991.
171. مفتاح، إبراهيم، محمد عبد الله، **التماسك النصي للاستخدام اللغوي في شعر الخنساء**، ط1، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2015.
172. مناع، عادل، **نحو النص (اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية)**، ط1، القاهرة، مصر العربية للنشر.
173. ابن منقذ، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي، **البدیع في نقد الشعر**، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة، د.ت.
174. موسى ربابعة، **الاستشراق الألماتي المعاصر والشعر الجاهلي**، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد، الأردن 11 1999.
175. نادية رمضان، **علم لغة النص والأسلوب**، مصر، مؤسسة حورس الدولية، 2013.
176. الناصري، محمد المكي، **التيسير في أحاديث التفسير**، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.
177. النجدي، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، **الجواهر المضية**، السعودية، دار العاصمة، 1412هـ.

178. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ط1، تحقيق: يوسف علي بديوي، بيروت، دار الكلم الطيب، 1998.
179. النعماني، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، ط1، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية.
180. النوري، محمد جواد، لسانيات النص وتحليل الخطاب، تقديم: سعد مصلوح، بيروت، دار الكتب العلمية، 2020.
181. النويهي، محمد، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت.
182. النيسابوري، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، كتاب تفسير القرآن، ط1، تحقيق: سعد بن محمد السعد، المدينة النبوية، دار المآثر، 2002.
183. هاينه مان، فولفجانج، ديتز فيهفجر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد بحيري، ط1، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2004.
184. الهري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ط1، إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، بيروت، دار طوق النجاة، 2001.
185. ابن هشام، عبد الله بن يوسف، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط6، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دمشق، دار الفكر، 1985.
186. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري، أسباب نزول القرآن، ط2، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الدمام، دار الإصلاح، 1992.

• **التفسيرُ البسيطُ**، ط1، تحقيق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، 1430هـ.

• **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط1، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق، دار القلم، 1415هـ.

• **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، ط1، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وأحمد محمد صيرة وأحمد عبد الغني الجمل وعبد الرحمن عويس، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994.

187. **الوادعي**، مقبلُ بنُ هادي بنِ مقبلِ بنِ قائدة الهمداني، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، ط4، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، 1987.

188. **ابن يعيش**، أبو البقاء يعيش بن علي ابن أبي السرايا محمد بن علي الموصلي، **شرح المفصل للزمخشري**، ط1، قدم له: إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001.

الرسائل الجامعية

1. أحمد، نعيمة سيد، **اللسانيات والنص القرآني - الفاصلة القرآنية أنموذجاً - دراسة نصية لمعيار السبك والحبك**، الجزائر، جامعة قاصد مرباح، كلية الآداب واللغات، دراسة جامعية، 2020.

2. أحمد، هاني محمد زيب، **التماسك النصي في القرآن الكريم: سورة الأحقاف وسورة الحديد نموذجاً**، رسالة دكتوراه، الأردن، جامعة اليرموك، 2015.

3. بلعبد هجيرة وتبوب حياة، السبكُ والحبكُ في القرآنِ الكريمِ سورةِ البقرةِ (الجزءِ الأولِ) **أموذجًا**، الجزائر، جامعة محمد بن يحيى، كلية الآداب، 2020.
4. بو الشعير، سليمة، وزويد، إبتسام، أدوات التماسك النصي في سورة الشعراء، الجزائر، دراسة جامعية (ماجستير)، جامعة محمد الصديق بن يحيى، 2020.
5. الحسيني، حمادة محمد عبد الفتاح، المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن، مصر، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية - الدراسات العليا والبحوث، 2007.
6. حيال، أحمد حسين، السبك النصي في القرآن الكريم (دراسة تطبيقية في سورة الأنعام)، رسالة ماجستير، العراق، جامعة المستنصرية، 2011.
7. حيال، أحمد حسين، السبك النصي في القرآن، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، العراق، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، دراسة جامعية، 2011.
8. فرج، باقر محيسن، السبك والحبك في جزء المجادلة، العراق، جامعة المثنى، كلية التربية للعلوم الإنسانية، دراسة جامعية، 2018.
9. محمد، رابح، تجليات الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سورة الواقعة، الجزائر، جامعة أحمد دراية إيراد، دراسة جامعية، 2016.

المجلات والتقارير

1. إمبيّة، عبد الوهاب خلف الله، ثنائية السبك والحبك في اللغة والأدب، ليبيا، مجلة جامعة سبها (العلوم الإنسانية) المجلد الثامن، العدد الأول، 2009.
2. بسندي، خالد، نظرية القرائن في التحليل اللغوي، الأردن، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد 4، العدد 2، 2007.

3. بصل، محمد، وفاطمة بلة، ملامح نظرية السياق عند ابن جني (الخصائص) أنموذجًا، سورية، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مجلد 36، عدد 3، 2014.
4. بطاهر، بن عيسى، النقد التطبيقي عند حازم القرطاجني (شعر المتنبي أنموذجًا)، الأردن، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (8)، العدد (1)، 2012.
5. بوشيبية، عبد القادر، لسانيات النص وآفاق قراءة النص القرآني، الجزائر، مجلة الإشعاع في اللسانيات والترجمة، العدد الثامن، المجلد (6)، 2017.
6. الثوابية، هيثم حماد، السبك النصي في سورة الملك، المجلة الأدبية جامعة عين شمس، العدد الثاني، مجلد 18، 2012.
7. ربابعة، موسى سامح، الأنواع الأدبية والشعر الجاهلي في دراسات بعض المستشرقين الألمان، السعودية، مجلة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، العدد 11، السنة التاسعة، 1995.
8. الزهراني، مرزوق بن هياس، أطيب النشر في تفسير الوصايا العشر، المدينة المنورة، مجلة الجامعة الإسلامية، د.ت.
9. الزهرة، يعقوب، نحو النص بين النظرية والإجراء، الجزائر، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 3، العدد 2، 2019.
10. زيتوني، نصير، بعض ملامح نحو النص في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، فلسطين، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثالث والثلاثون (2)، 2014.
11. أبو شريف، علي سلامة عبد الحليم، وسائل السبك النصي في التراث اللغوي والدرس اللساني المعاصر، القاهرة، مجلة كلية دار العلوم، 2016.

12. عامر، عرفة عبد المقصود، ظاهرة الاستبدال في نحو الجملة ونحو النص، الإمارات، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، المجلد/ العدد 44، 2012.
13. عبد القوي، غادة محمد، من آليات السبك والحبك في الحكاية الخرافية الفارسية، مصر، جامعة القاهرة، مجلة رسالة المشرق - مركز الدراسات الشرقية، العدد 1، 2، المجلد 32، 2017.
14. العبد، محمد، حبك النص، مجلة فصول، العدد 59، ربيع 2002، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
15. عرار، مهدي، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفى: دراسة دلالية تواصلية، أمريكا، جامعة ينغ برنغهام، مجلة العربية، العدد 39، 2002.
16. قواوة، الطيب العزالي، الانسجام النصي وأدواته، الجزائر، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خضير، العدد الثامن، 2012.
17. كحيل، عبد العزيز، محاور الخطاب الاستشراقي، صحيفة المتقف، العدد: 1776، 2011، www.almothaqaf.com
18. محمد، عشري محمد علي، الفصل والوصل: دراسة لسانية نصية، السعودية، مجلة جامعة الطائف (الأداب والتربية)، العدد التاسع، المجلد الثاني، 2013.
19. النجار، نادية، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، مجلة علوم اللغة، المجلد التاسع، العدد الثاني، 2006.
20. نور، حسن هادي، الفصل والوصل في خطب نهج البلاغة، العراق، مجلة الآداب جامعة بغداد، المجلد/العدد 101، 2012.

21. الياسري، يعقوب يوسف خلف، بشرية النصّ القرآنيّ في ضوء إشكاليّة فهم المكيّ والمدنيّ،

العراق، مجلة جامعة ذي قار، كليّة الآداب، عدد خاص - المؤتمر العلمي الخامس، 2012.



**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

**TEXT GRAMMAR (COHESION AND COHERENCE
CRITERIA) IN THE OVERLAPPING OF MECCAN
AND MEDINAN QUR'AN IN SAME SURAH CHAPTER**

**By
Shadi Mohammad Aesa Al Ghol**

**Supervised by
Prof. Mohammad Rabaa**

**This Dissertation is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirement for the
Degree of PHD of Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies,
An-Najah National University, Nablus, Palestine.**

2022

**TEXT GRAMMAR (COHESION AND COHERENCE CRITERIA) IN
THE OVERLAPPING OF MECCAN AND MEDINAN QUR'AN IN SAME
SURAH CHAPTER**

By
Shadi Mohammad Aesa Al Ghol
Supervised by
Prof. Mohammad Rabaa

Abstract

This study has sought to examine aspects of text coherence and cohesion in contexts in which Meccan and Medinian verses overlapped in the same surah. It has also examined the orientalist's books which falsely described the Holy Qur'an of having contradiction in its composition and absurdity of style in two separate periods: the Meccan and the Medinan. To these ends, the researcher identified their evidence and orientation of their claims. He also linguistically employed the strength of Qur'anic text in an ideological way to reveal the facts: negation of having been written by humans and proving its divinity based on an applied linguistic method. In this context, the researcher has read the text grammar (cohesion and coherence criteria) as a means to that end. This may help in revisiting some of modern Arab studies which had orbited in the space of orientalist's views. This is in addition to sending out a realistic picture of the Qur'anic text in the core of this study in accordance with integrated scientific givens away from generalizations and approximation. In the light of the study findings, the researcher concluded that the excluded Meccan and Medinan verses in the Qur'anic sura - according to cohesion and coherence criteria- were in harmony with the rest of verses of the sura in connected textual context. This reveals the extent of text coherence in the Qur'anic sura. And this refutes the orientalist's views and illusion.

Keywords: Cohesion and Coherence Criteria; The Meccan and Medinan Qur'an; The one Surah.